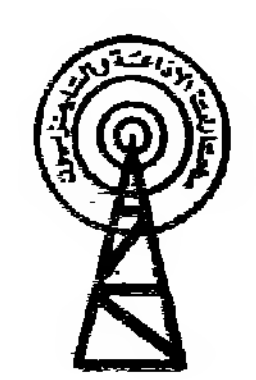
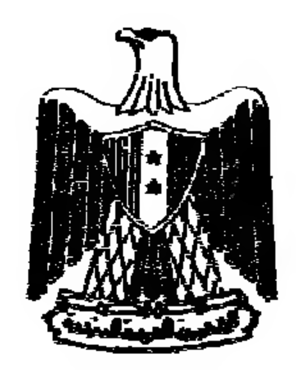
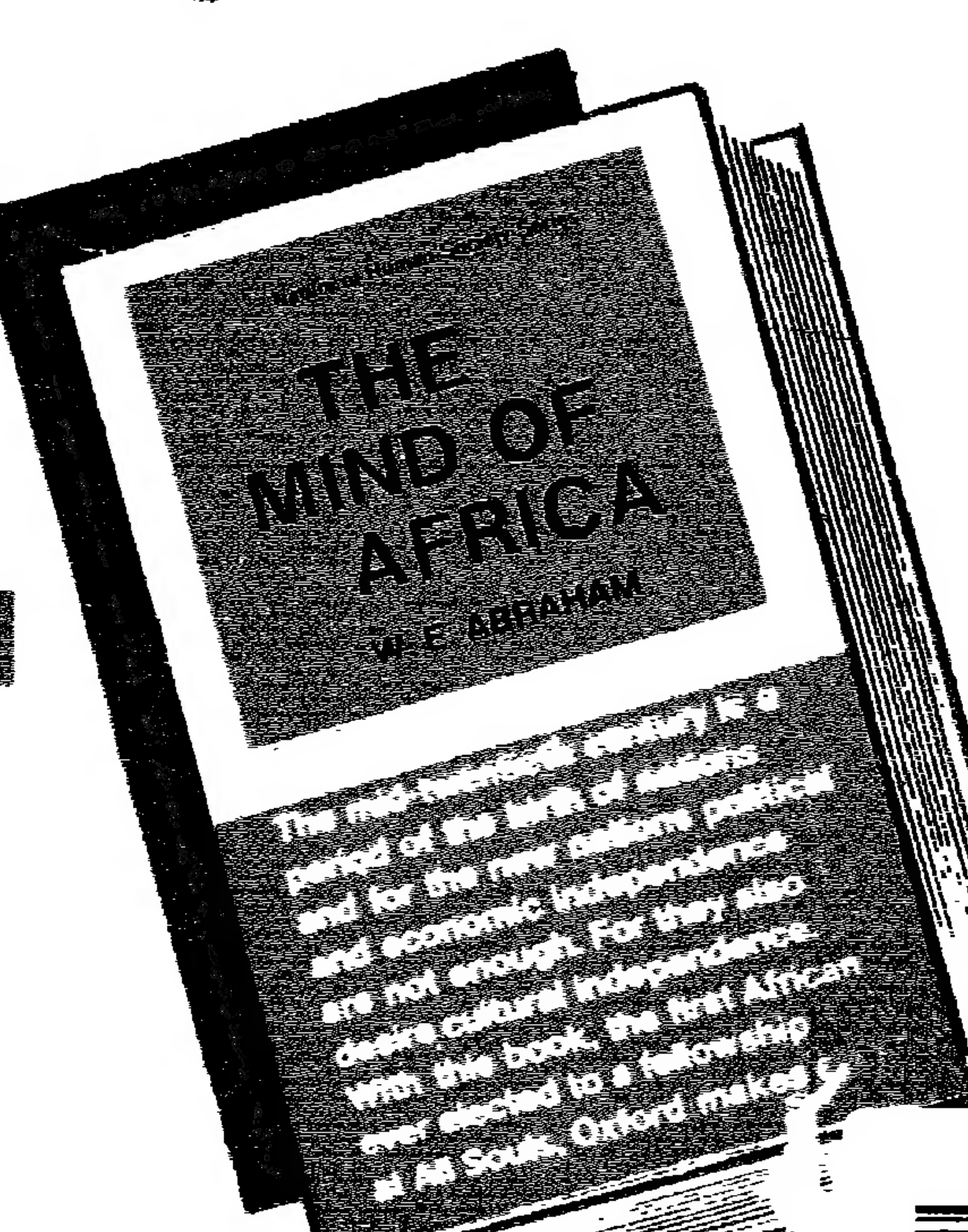




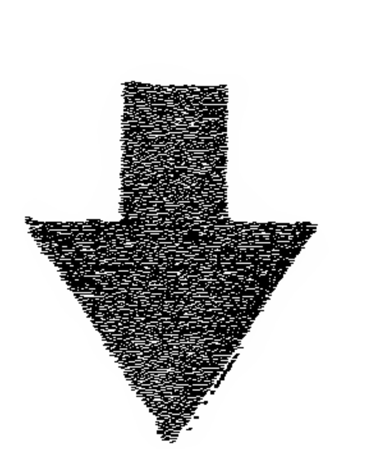
اخترنا لك

كيف تفكر إفريقية؟



بقلم: و. أ. ابراهام
ترجمة وتعليق: خيري حماد







اخترنا لك

كيف تفكر افريقية؟

بقلم: و. أ. ابراهام
تعريب وتعليق: خيري حماد

تقدمة المعرب

كانت القارة الافريقية فى معظم أرجائها حتى سنوات خلت صندوقا مغلقا، تقوم الدول الاستعمارية على حراسته بأساطيلها وقواتها المسلحة وأنظمتها الاستعمارية الجائرة ، فهى البقرة الحلوب التى تبتز من خاماتها المواد الأولية اللازمة لصناعاتها • وهى السوق التى تبيع فيها هذه المواد بعد أن تستصنعها وتحولها الى سلع جاهزة لتعيد تصديرها اليها بأسعار خيالية يكون فيها الغنم للاستعمار ، والغرم على الشعوب الافريقية المحرومة من كل شىء حتى من حق التنفس بانطلاق •

وكانت هذه الدول الاستعمارية تضرب نطاقا من الفولاذ على هذه القارة بقواتها العسكرية ، فترابط على سواحلها ، وتنشر بعض قواتها فى داخلها تاركة القبائل التى تعيش فى هذا الداخل • تعيش فى ظلمات الجهل ، وتعانى من شظف العيش وشقائه ماتعانيه • ولم تكن تسمح بدخولها الا للجوابين يطوفون أرجاءها ، والوكلاء والعيون يجوسون مجاهلها وأدغالها ، بحثا عن مغتم وتنقيبا عن معدن جديد تفترسه القوى الاستعمارية الجشعة • وكان هؤلاء الوكلاء يتنكرون فى أزياء زائفة ، مصطنعة ، هى مسوح الرهبان حينا ، أو لباس رجال العلم أحيانا، يدعون نشر المسيحية وهم منها براء ، لانهم يخالفون أولى تعاليمها فى مساواة الانسان بالانسان • وفى مسئولية الفرد أمام خالقه ، ويزعمون التنقيب والبحث عن الدراسات العلمية فى كل ميدان ، مع انهم يتنكرون للعلم ومبادئه فى أبسط صوره ، وهى أن تتاح فرصة للناس جميعا • وأن يكون هدفه الحفاظ على كرامة الانسان •

ولم تكن هذه السلطات الاستعمارية ، تسمح للأفريقيين بمغادرة قارتهم الا اذا خرجوا منها عبيدا يباعون فى أسواق النخاسة ، أو اجراء للاستعمار ، يذهبون الى معاهده فى الغرب ، ليعودوا منها ، عملاء يبشرون لولا قلة نادرة منهم أبت لهم طبيعتهم الصافية النقية • وايمانهم بأوطانهم ان يستجيبوا لأهداف الاستعمار وغاياته بالنعم «الزائفة» التى يغدقها الغرب على افريقيا ، وبالعمل الذى يقوم به لنهضتها وتقدمها •

لكن المارد الافريقى الجبار ، مالبث أن تجاوب مع الروح التحررية

التى سيطرت على العالم بأسره فى الحقب الاخيرة ؛ ولا سيما فى أعقاب الحرب الكونية الثانية • وراح يتململ فى قمقمه ، متفجرا على شكل ثورة دامية هنا • ونضال شعبى هناك • ينشد الحرية ويطلب الاستقلال ويلح فى تنفيذ الدعاوى ، التى طلع بها ميثاق الاطلسى ابان الحرب العالمية الثانية وأقرتها شريعة الامم المتحدة فى حق كل شعب فى تقرير مصيره •

وخاضت الشعوب الافريقية معارك التحرر واحدة أثر أخرى ، وانبرى قادتها وبعضهم ممن درس فى معاهد الغرب وجامعاته ، يكيلون الضربات للاستعمار ضربة بعد ضربة يريدون تطهير قارتهم من رجسه وانقاذها مما حمله اليها من استعباد وظلم ، وعنصرية • وأخذت الدول الافريقية المستقلة تظهر الى حيز الوجود بصورة متتابعة فيعترف العالم بوجودها • وتصبح ممثلة فى الامم المتحدة ، حتى غدت هذه الدول تمثل أكبر مجموعة عالمية فيها واكثرها عددا • واذا كان بعض البلاد الافريقية مازال يرزح تحت نير الاستعمار حتى الآن ؛ ويعانى ويلات الاضطهاد العنصرى التى تنزلها به الاقليات الاوربية المستوطنة . فان عجلة التاريخ لن تتوقف ، وحتمية التحرر لن تتأخر فى اقامة الدليل على صحتها • وسينجلى نقع المعارك التى تخوضها هذه البلاد والتى تلقى العون والنصرة فيها من أخواتها المتحررات ، عن علم الحرية ، مشرعا فوق القارة من شمالها الى جنوبها ومن شرقها الى غربها لتسير فى طريق الوعى التقدمى الصحيح وتطرح عن نفسها أغلال الاستعمار الجديد ، الذى تود الدول الاستعمارية التى أفل نجمها ، أن تفرضه على القارة • مستخدمة السلاح الاقتصادى كوسيلة لضمان التبعية السياسية اللامباشرة .

واذا كانت القارة الافريقية قد قطعت شوطا طويلا فى طريق استقلالها السياسى ولم يعد أمامها الا استكمال هذا الشوط فى مراحله الأخيرة لتحرير ماتبقى من أجزاء القارة تحت نير الاستعمار وسلطانه ، فان الطريق مازال طويلا أمامها لتأمين الاستقلال الاقتصادى الكامل • الذى لامعنى للاستقلال السياسى بدونه • وما زالت هذه الطريق ملأى بالاشواك بل وبالصخور والجنادل التى تؤلف السوق الاوربية المشتركة واحدة منها ، بل أضخمها وأكثرها وعورة ، ويتحتم على هذه القارة التى تحررت أن تذللها ؛ لتصل الى هدفها الذى تسعى اليه فى التحرر الكامل والتعاون الذى يحمل شتى المسميات ، ومنها تعبير الجامعة الافريقية •

ولم نكن حتى سنوات قليلة • نعرف الا النزر اليسير عن هذه القارة وكان ما نعرفه عنها ، فى الغالب ، أوروبى الصناعة ، استعمارى النزعة ؛ ولكن الحقبة الاخيرة حملت الينا كثيرا من الكتب والمؤلفات

والمقالات والبحوث التى خاضت ميادين البحث فى الشئون السياسية والتاريخيه والاقتصاديه • دون تركيز على النواحي الاجتماعية أو الثقافية أو الفكريه • وظلت هذه النواحي بالنسبه الينا مجهولا من المجاهيل التى أراد الاستعمار منها أن تكون الصورة التى يحملها العالم عن هذه « القارة السوداء» على حد تسميته • لتظل الميدان الذى يحتاج ، كما يدعى الاستعمار ، الى معونة الحضارة الغربية للأخذ بيده ، ومساعدته على النهوض والسير به فى معارج التقدم • وليستعمل هذا الادعاء وسيلة لتحقيق غاياته فى البقاء هناك • يستغل خيرات القارة • ويبتز أموالها ويسخر أيديها العاملة تحت ستار «الأبوة» الكاذبة ، والحنان الزائف •

ولعل هذا الكتاب الذى ننقله الى القراء العرب اليوم ، والذى وضعه مؤلف من أبناء القارة الافريقية نفسها ، هو الاستاذ ابراهام • من الكتب القليلة النادرة التى حاولت القاء أضواء صحيحة لامتحيزة وان كان التأثر بثقافات الغرب واتجاهاته لم يجنبها مغبة التردى احيانا فى هوة التحيز على الجوانب المتعلقة بثقافات القارة الافريقية ، وحضارتها الفكرية • لاستكمال استقلالها الحضارى الذى لايعنى بحال من الاحوال فرض الحصار الثقافى عليها أو العزلة الفكرية عن الحضارات الانسانية الاخرى وانما يعنى أولا وقبل كل شيء ، تصوير المفاهيم والقيم الأفريقية على حقيقتها مستمدا معالم الصورة من التاريخ والمفاهيم والقيم ، وبيان ماتحتاج اليه هذه الصورة من قيم ومفاهيم جديدة لتتحول من صورة موضوعية تمثل الحاضر الى صورة تطلعية تمثل المستقبل والغد المرجو.

وأرى لزاما على فى هذه المقدمة أن أنقل الى القارىء العربى ، ماقاله أحد النقاد الغربيين الذى يتوخى الموضوعية فى غالب مايكتب فى الحديث عن كتابنا الذى نعربه •• لقد شهدت أواسط القرن العشرين مولد دول جديدة حصلت على استقلالها السياسى والاقتصادى • ولكن هذا الاستقلال لم يعد كافيا بالنسبة اليها ، اذ أنها تسعى الى تحقيق استقلالها الثقافى أيضا • ولاريب فى أن هذا الكتاب الذى وضعه أول أفريقى يحصل على مقعد «الأستاذية» فى جامعة أوكسفورد هو اسهام رائع يحمل كل معانى التحدى فى النقاش الدائر عن مستقبل الفكرة والثقافة فى أفريقيا •

يستهل المؤلف كتابه بمناقشة لمفاهيم الثقافة الدقيقة ويدعمها بالشروح والأسانيد المسهبة والمفصلة عن مجتمع يضم أكبر الجماعات اللغوية وأهمها فى غانا ، وهو مجتمع الآكان • شارحا فى مناقشته هذه نظرات هذا المجتمع الى الحياة • وينتقل الكاتب بعد ذلك الى درس وقائع التاريخ الافريقى وصوره ، والاتصال بين أفريقيا وأوربا ، وأمانى القارة الافريقية السياسية والاقتصادية ومشاكلها متناولا شتى المواضيع التى

يواجهها هـذا الشعب الجديد أثناء بحثه عن روحه الجماعية · ولعل أبرز مافي الكتاب هو هذا الجمع الرائع بين النقـاش الرفيع والاسلوب الدقيق والشرح الوافي ·

ولهذا الكتاب أهمية مزدوجة ، الاولى أنه صورة ذاتية فكرية للجيل الراهن من الافريقيين المثقفين · والثانية أنه اسهام مهم للغاية فى حق هذا الجيل فى مشاكل الثقـافة والقومية ، والسياســات والاخلاق والسير مع التقدم الاجتماعى فى عصر يسوده التبدل السريع والخطير · وقد يكون تطوير غانا ونموها سابقة للاجزاء الباقية من افريقيا ولا ريب فى أن هذا الكتاب يسهم اسهاما بارزا فى المناقشات السياسية الدائرة فى غانا وفى المناطق الغربية من افريقية ·

ولد المؤلف فى عام ١٩٣٤ ، وتخرج من قسم الفلسفة فى جامعـة غانا فى عام ١٩٥٧ والتحق بجامعة اكسفورد حيث حصل على درجـــة «الأستاذية» فى الفلسفة منها ثم عمل معيدا فى احدى كلياتها ، كما عمل محافظا لمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية فى جامعة لنـدن · وقد طاف المؤلف بعدد من بلاد آسيا وأوربا وأمريكا ثم أصبح أستاذا مساعدا للفلسفة فى جامعة غانا ·

والكتاب فى مجموعه دراسة رفيعة للنواحى العقلية والثقـــافية والفكرية فى الحضارة الافريقية القديمة ، مع استشفاف لتطلعات أفريقيا فى هذه المجالات واستجلاء لما يقوم من ارتباطات بينهـــا وبين النواحى المماثلة لها فى حضارات أوربا من غربية رأسمالية أو شرقية اشتراكية · وهو فى الوقت نفسه دراسة موضوعية لبعض المسائل التى تشغل أذهان القادة الافريقيين ، كالجامعة الافريقية ، وعلاقة افريقيـا بالسوق الاوربية المشتركة ؛ والاستقلال الاقتصادى واستغلال الموارد الطبيعية والمعدنية وسياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز ، والتكتلات الافريقية الاقليمية والاضطهاد العنصرى ، والتطلعات الإيجابية الى غد مشرق زاهر ·

واذا كنت قد اختلفت مع المؤلف فى بعض آرائه واتجاهاته مبينـا وجهة نظرى فى كل مسألة من المسائل فى الشروح والهوامش ، فان هذا الاختلاف لايعنى مطلقا اننى أقلل من قيمة الكتاب الذى أضعه بين أيدى قرائنا العرب اليوم · فهو فى نظرى دراسة رائعة ، تســتحق أن تقرأ بامعان وتفهم عميقين ، وجديرة بأن تلقى كل عناية وكل تقدير ·

القاهرة فى ٥ ابريل ١٩٦٣

خيرى حماد

الاهداء ...

لنا نحن ...
شعب أفريقيا

مقـــــدمة

نمت معى الفكرة الحافزة على وضع كتاب يتناول العمليـة التاريخية التى تتمخض عنهـا القـارة الافريقيـة فى هـذه الايام ، نتيجـة عدد من المناقشات والندوات والأحاديث التى اشتركت فيها . ولا ريب فى أن الحاجة الى نفهم هذه العملية التى تنطوى على الكثير من التطورات ملحـة كل الالحاح • ولكن هذا الفهم يتطلب شيئا من التحليـــــل ، ويتطلب التحليل من ناحيته أيضا وجود مجموعة من الافكار القيادية ، ولا يساعد هذا الهيكل بدوره على الكشف عن القوى الهائلة التى أخذت فى التألق فى القارة الافريقية فحسب ، بل يحسر النقاب أيضا عن تلك التكيفات الصامتة ، التى تحدد صورة الشعب ومبادئه ومواقفه ، ورغباته ومكارهه وما تنطوى عليه من قوى دافعة •

ويحتاج المرء ليكون تحليله موضوعيا ، الى الدنو من صفات الغريب الذى لا يحس بما يحس به الاهلون من ناحية ، ومن صفات القريب الذى يعرف خفايا الامور ودقائقها من الناحية الاخرى ، ولما كنت افريقيا ، فان نوازعى الداخلية تتجاوب مع تبعات الوعى الجماعى فى افريقيا ، ولكن اختيارى عضوا فى هيئة « جميع الارواح » ذات الطابع العالمى ، مكنتنى من تقدير مايتميز به الفكر من حرية ، ومن ترابط ، ومن أتصال وهى ثمـــار يساعد على وجودها الانفصام الطبيعى عن التطورات التى يتولى المرء تحليلها .

ولم أكتف بمجرد شرح القوى التى تعمل فى أفريقيا وتفصيلهـــا وتفنيدها ، أو وصف الشعوب التى انطلقت هذه القوى من عقالها ، فى وسطها • ولكننى سعيت للكشف عن ذلك الهيكل الذى تعمل هـــذه القوى فى داخله ، والذى يعرض شعب افريقيا فى الوضع الانسانى للمجتمع الذى يعيش فيه • ولكل مجتمع عقيدته الخاصة ؛ ولا ريب فى أن هذه العقيدة هى التى تقدم المبادىء التى تقرر أهمية الاحداث ذات الخطورة وتحددها • ويعنى الجزء الاول من الفصل الاول بايضاح هـــذه المهمة وشرحها • وقد يبدو هذا الجزء من الكتاب منطويا حتما على شىء من الاطلاقية ، لكنه من الناحية الاخرى متناه فى الدقة ؛ انه هو فى الحقيقة العامل الذى يربط أجزاء الكتاب بعضها الى بعض • وحاولت فى الفصل الثانى أن أحلل المركب النظرى الذى يسود مجتمعا أفريقيا واحدا ، وأن أشرح

كيف يمكن لهذا المركب أن يكون صورة عن أفريقيا كلهـا • وتوليت في الفصل الثالث دراسة الطريقة التي ضاع فيها الاستقلال ، والطريقة التي تمت منها استعادته على ضوء المشاكل المعروضة على أفريقيا والوسائل التي طورت فيها افريقيا طرق معالجتها لهذه المشاكل • أما في الفصل الرابع والاخير ، فقد قمت بدراسة مشاكل أفريقيا على صعيد القارة كلها، وأظهرت أن الوحدة الافريقية تخرج من هذه الدراسات وهي تعرض الحل الأمثل لكافة المشاكل •

واني لأحس بالكثير من عرفان الجميل لكافة أولئك الافارقة أو غير الأفارقة الذين أرغموني في مناقشاتهم معي على التفكير في هذه التيارات التي يحس بها الانسان •

واني مدين قبل كل شيء ، للدكتور قوامي نكروما الذي تفضل بمطالعة مخطوطات هذا الكتاب قبل طباعتها •

ليقون ١٩٦٢ •

ويلي • أي • ابراهام

العقيدة والمجتمع

« الثقافة وأهمية الاحداث ، طبيعة الثقافة ــ الاعتبارات التاريخية الأنسنة والاستعقال ــ الأنسنة والتطور ، التحليل الاساسى العلمى للانسان : العلاقة مع السياسة ــ قواعد المجتمع رأسه ــ فوائد الثقافة الاتصال الافريقى بأوروبا ــ الاتصال الافريقى بالشرق الاوسط ــ الطبيعة التقليدية لافريقيا ــ النسخة الثانية عن الفردوس ــ نسب مزعوم » .

تقع كافة الاحداث ذات الاهمية الكبيرة فى اطار احدى الثقافات وتشتق أهميتها فى حكم الواقع من الثقافة التى تجد نفسها فيها . وكثيرا مايحدث ، وسيحدث حتما ان يجد أحد هذه الاحداث الذى يقع على حدود ثقافتين مختلفتين نفسه وقد أحيط بأهمية مختلفة وحبى بطاقات مختلفة على اثارة ردود فعل قوية ، وبطاقات متباينة على تقرير اتجاه السياسات النابعة منه ، ويثير هذا الوضع على الفور المشاكل لعدد من الانظمة التى تنطوى قبل كل شىء على التاريخ والعلم الاجتماعى لاصول الانسان .. وتثير كتابة تاريخ لثقافة تنتمى الى وسط غير الوسط الذى تكتب فيه ولا يقوم بينهما أى تشاكل أو تماثل من ناحية الأحداث والأوضاع المعنية بالكثير من المشاكل الخطيرة التى تنطوى على التحيز الثقافى والتشويه المتعمد . ولا يعرض مثل هذا التاريخ بحكم الحتمية أية موضوعية ، كما لايمكن له أن يعرض بأية صورة من الصور ، التحرر من اللون الثقافى الخاص بهذا التاريخ . ولا يمكن لأية ثقافة دخيلة ، أن تقدم على صعيد الموضوعية التى تتعلق بتقييم الاحداث والحقائق أية مجموعة بديلة من الأهواء .

وتكون القرارات السريعة ، وأوضاع التأقلم التى تجد البلادالافريقية نفسها فيها ، والتبدلات المنطوية على الكثير من الجهد ، فى أوبقات الانتقال السياسى من طراز الاحداث . وتكون الاسس العقلية الكمينة ، اذ أن كل ثقافة تنطوى على أساس عقلى وكذلك التأقلمات الصامته التى تقرر كل ما يجب الحفاظ عليه وما يجب الخلاص منه ، عرضة للظهور ، عن طريق تعريض ما تنطوى عليه الثقافة المعنية من تعقيدات نظرية . وهناك دائما مثل هذا التعقيد الذى يظهر فى تشابك القيم الثقافية والتميز الثقافى ،

لكن قلة من الناس ليس الا ، هى التى تنصرف بعنايتها بالطبع الى الاسهام فى الناحية النظرية لا فى الناحية العملية من الثقافة .

وثمة ثروة ضخمة فى أفريقيا من الفكر العامة التقليدية ، التى تعرض نفسها بوضوح فى الاوضاع النظرية الراهنة لسياسات هذه القارة ومجتمعها ، وكذلك فى تطبيقات الدول المستقلة منها الى حد كبير . ومن المهم كل الأهمية القيام ببعض التحقيقات فى نظريات هذه الثقافات . ولا ريب فى أن هذه التحقيقات هى التى ستحسر النقاب عن أى النواحى من ثقافات الغرب أو الشرق أو غيرهما من الثقافات الأجنبية يمكن أن تترعرع فى افريقيا ، وعن تركيب التعديلات التى قد تتعرض لها . وقد أشار الأب بلاسيد تمبلز الى هذا الطراز من الدراسة عند حديثه عن قبائل البالوبا فى الكونجو .

ولم أحاول شيئا من هذا القبيل هنا ، ولكننى حاولت فى هذا الصدد أن أبين ما فى مثل هذه التحقيقات من أهمية . ولم يكن من السهل على اثناء هذه العملية أن أجتنب ابراز بعض الاخطاء المعينة ، وبعضها جسيم للغاية ، التى قاد اليها التبلد فى الاحساس بأهمية مثل هذه التحريات . وقد يكون هذا العمل نظريا الى حد ما ، ولكنه ليس بالشىء النظرى كل النظرية . وقد تكون الناحية النظرية فيه مقتصرة على قدرته على تمكين المرء من رؤية بعض القضايا التى تثار بصورة عامة بالنسبة الى أفريقيا . وهو يحاول من الناحية الأخرى تفكيك بعض التعقيدات الناجمة عن اتصال افريقيا بأوروبة أو بالشرق الاوسط ، ويعالج فى نفس الوقت آمال المستقبل مرتكزة الى التركيب الجديد الناجم عن هذا التحليل والتفكيك . واذا ما نظرنا الى مستقبل افريقيا نظرة واقعية تبين لنا أن هذا المستقبل يجب أن يكون مرتبطا بهذا التركيب الجديد ، عن طريق تحليله قبل كل شىء . وفى وسع المرء عن هذا السبيل ، أن يدرس بعض الأهداف القوية التى تعمل فى افريقيا اليوم ، وأن يفهم المبادىء التى تقوم وراء هذه الأهداف .

ويختلف الناس فى استخدام كلمة « الثقافة » ، واذا ما توخينا المفهوم الشامل لها . تبين لنا أنها تستخدم لتشمل كل ميدان من الميادين المتعلقة بحياة الناس ، سواء أكانت مبادىء خاصة أم عامة . واذا ما نظرنا الى هذا الاستعمال من هذه الزاوية ، تبين لنا أن التعبير يشمل كل ناحية من نواحى المعرفة . والفنى والعلم والتقنية (التكنولوجيا) والديانات والأخلاق والطقوس والسياسات والأدب ، وحتى الازياء وآداب السلوك . وما اذا كان الناس فى مجتمع من المجتمعات ينظفون أسنانهم ثلاث مرات يوميا أو مرة واحدة ، ولكن استخدام الكلمة فى هذا الشكل لا يعطيها

الميزة الوصفية المجردة · فعندما يقال لك ان الرجل المثقف ، يتنازل عن المقعد الذى يجلس اليه الى أية سيدة فان فى وسعك أن تتأكد من أن هذا القول الذى سمعت لايعنى مجرد الوصف فحسب ، بل ويعنى التوصية أيضا · ومع ذلك فان استعمال هذه الكلمة فى شكلها الواسع هذا ، يعنى استخدامها جزئيا · ليعطى وصفا معينا · فهى تستعمل الى حد ما للتعبير عن رأى مثالى ، أو مجموعة من المثل · ولا شك فى حتمية تقسيم الثقافة فى هذا المعنى الى فئتين احداهما عامة والاخرى خاصة · وتكون الثقافة العامة أكثر دقة وتزمتا اذ أنها تتطلب بصورة جهرية مكشوفة ، الانسجام المعقول · ويبدو هذا التطلب واضحا فى عبارتى « أوبى أباء وأوبى - مبودى كوردا » الفلنتينيين بلغة الاكاى ، وتعنى العبارة الاولى أن هذا الانسان « مثقف » كما تعنى العبارة الثانية أنه « غير مثقف » أو أنه « فظ » و « خشن » ، ولا يعنى استعمالها بالنسبة لانسان مجرد وصف له بل واتهام أيضا · وينطبق هذا القول على كل مكان · ومن الصواب كل الصواب أن نعنى توجيه اللوم الى انسان عندما نصفه بأنه غير مثقف ·

وهناك مع ذلك استعمال أضيق لهذه الكلمة ، وذلك عندما نحدد الثقافة بالأمور التى تتصل بالفكر · وهنا تشمل العبارة خيرة النتاج فى الأدب والتاريخ والموسيقى والرسم والنحت · ولكن هذه القائمة لا تشمل كل محتويات الثقافة أو تستنزف معانيها · فمن اللازم اللازب بالنسبة للفكر الانسانى اذا ما أمسك بناصية مثل هذا « التنظيم » الرائع ، أن يتحلى أيضا بطاقة خاصة على « الشم » يستطيع عن طريقهـا أن يحكم مسبقا على ما يستسيغه وعلى ما يتجاوب به مع الاوضـاع الموصوفة حكما « صحيحا » « سليما » · ولا ريب فى أن التقليد الزائف لهذه الحاسة هو الذى يدعى أحيانا بالترفع الكريه والتعالى ·

ولعل من الطريف هنا أن نورد الطريقة التى اكتسبت فيها هـذه الكلمة ، ذلك المعنى الذى أشرت اليه ، فلقد اكتسبت هذا المعنى ، على ما أعتقد ، نتيجة عملية للافتقار فى هذه الأيام الى كل ما كان الانسان المثقف يمثله من آراء في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهما قرنا النهضة الفكرية ، فلقد كان فى مكنة الرجل الواسع الثقافةفى تلك الايام مثلا كليبنيتز (Leibnitz) (١) ، أن يكون أديبـا تقليديا (كلاسـيكيا)

---

(١) جوتفريد ويلهلم فريهير ليبنيتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) فيلسـوف المانى وعالم رياضي مشهور . ولد في لايبزيج درس القانون في جامعتها ، ثم درس في جامعة نورمبرج. وقد اشتهر بالأقتراح الذى قدمه الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا لغزو مصر لتحويل انتباهه ومطامعه عن ألمانيا . ويقال ان نابوليون اعتمد الخطة التى وضعها ليبنيتز عندما غزا مصر . وقد اخترع آلة حسابية معقدة . وقد أصدر في عام ١٦١٦ كتابا عن المفاهيم=

ومؤرخا وعالما في اللاهوت • ومشرعا في القضاء ، ورياضيا ، وعالما في الطبيعة وفيلسوفا ودبلوماسيا وسياسيا • وكان ذلك العصر أيضا عصر « الرجل الموسوعة » أو الرجل ذي الآفاق الواسعة في العلم ، الذي مثل ديدرو (Diderot) (١) صورته المشرقة وفولتير (Voltaire) (٢) صورته المعتمة القاتمة • ولكن علينا أن نعترف هنا أن أوضاع التطور بالنسبة لهذه الأنظمة ، كانت في ذلك الحين من النوع الذي يمكن الفرد من التعمق في كثير من الفروع ، وبشيء كبير من الاسهاب والتفصيل ، وقد قام الفيلسوف الافريقي أنطوني ويليام امو الذي عاش في القرن الثامن عشر وحاضر في جامعات هيل ووتينبرج وينا الالمانية، بطبع سلسلة من المحاضرات التي القاها في المنطق والمتافيزيقيا (الغيبيات) ، وعلم وظائف الأعضاء (الفيسيولوجيا) ، والعرافه والفلك ، ونظريه القانون • وفتح الكف ، مع الاسف أيضا ، وقد تمكن أيضا من امتلاك ناصية التاريخ والقانون •• لكن هذه الأنظمة ما لبثت أن مرت بتطورات هامة بعد انقضاء القرن الثامن عشر بما فيها نظام فتح الكف • وكان التطور الذي وقع في القرن التاسع عشر وحده موحيا بالاجلال والمهابة • وعثر الكثير من هذه العلوم على الأسلوب الصحيح الخاص بها • وشقت فكرة الدقة في الرياضات طريقها بقوة ، وان كان ليبنيتز قد تحداها من قبل ، كما حط من قدر الركون الى الحدس والبديهة على الرغم من كانت (Kant). (٣) وكانت الفكرة السائدة من قبل وبتأثير من

= الانسانية . وكان يرى أن القوة هي الجوهر الاصلي واعترف بوجود الشر ولكنه آمن بامكان القضاء عليه نهائيا .

(١) دنيس ديدرو (١٧١٣ — ١٧٨٤) . من حكماء فرنسا ومؤلفيها ولد في مقاطعة شمبانيا ودرس عند الآباء اليسوعيين ، وكان يطمع في دراسة اللاهوت ثم تحول الى فقه القانون . وقد زاول عددا من المهن وقاوم الجوع بما يكتبه . وقد كتب في جميع المواضيع . ومن أشهر مؤلفاته « افكار فلسفية » ، واشترك في وضع الموسوعة العلمية التي ضمنها كل آرائه الفلسفية . وله كتاب عن الرسم وآخر عن تحليل الطبيعة .

(٢) جان فرانسوا ماري (١٦٩٤ — ١٧٧٨) . الكاتب المسرحي الفرنسي المشهور والمؤرخ . ولد في باريس ودرس في كلية الآباء اليسوعيين . ومكنته مواهبه الأدبية من اقتحام الاوساط الادبية منذ نعومة أظفاره . ومن اشهر مسرحياته أوديب والعذراء وله عدة مؤلفات فلسفية تاريخية . — المعرب —

(٣) عمانوئيل كانت (١٧٢٤ — ١٨٠٤) ، من أبرز الفلاسفة الحديثين ، ومن اشهر علماء ماوراء الطبيعة . ولد في كونيجزبرج عاصمة بروسيا الشرقية ، من اصل سكوتلندي وكان لأمه اثر كبير في تعليمه وتثقيفه ودفعه الى حب الطبيعة والتعلق بها . درس الرياضيات واللاهوت والفلسفة والطبيعة . وتقوم فلسفته على رفض وجود اي قانون للشيء المطلق ، او الشيء الذي لا أول له ولا نهاية . وقد قسم الفهم البشري الى أربع عشرة فئة هي الوحدة والكثرة والجماعية والحقيقة والتحديد والسلب والعلاقة بين الوجود والعارض وبين السبب والنتيجة والفصل ورد الفعل والامكانية والوجود والضرورة .

الفيلسوف الألمـــــانى عمانوئيل كانت ، ان فى الامكان بل قد يكون من الضرورى الرجوع الى الحدس فى اثبات النتائج الرياضيه واقرارها . وكان يرى أن حدسنا يمكن أن يتأثر وأن يتكيف بالحقيقة الواقعة . وهى أننا نوجد ضمن حدود زمانية ومكانية ولهـــذا فلم يكن على ثقـــة من أن الملائكة وهـــم لا يعتمـــــدون على الحـــــدود الزمانية والمكانية التى نجـــد أنفسنا مقيدين بهـــا ، لن يغالطوا فى الواقع فى استنتاجاتنا الرياضية ، أو أنهم لا يجدونها عسيرة على افهامهم . وجاء عنصر الدقة الجديد ففصل العلوم الرياضية عن الحدس وبات تركيب أحاسيسنا على الرغم من أهميته الطبيعية بالنسبة الى ما نستعمله من حبر وورق فى كتاباتنا منفصم العلاقة منبتها مع النظريات والبراهين الرياضية . ولاريب فى أن هذا التحول كان يمثـــــل علم النفس وعلم المنطق بالنســـبة الى رياضياتنا. وبعثت من جديد آراء ليبنيتز فى العلاقة بين المنطق والرياضيات. وشرع جورج بول (George Boole) الايرلندى ، وبيانو (Peano) الايطالى وهما عالمان رياضيان بحكم مهنتهما ، يعملان على اقامة الدليل على ما بين الرياضيات والمنطق من تناسق متشابك وكاد فريج وراسل أن يحققـــا ما أراده ذانك العالمان . وكانت الفكرة الجوهرية هى القدرة على التمييز بين ما يمكن اقامة الدليـــل عليه بشكل أصـــيل وصحيح وبين مالا يمـــكن اثبات صحته ، فاذا خيل اليك أن فى امكان فرضية معينة ، الوصول الى نظرية من النظريات ، فان فى وسعك اقامة الدليـــل على صحتها ، أما اذا خيل اليك بأن هذه الفرضية لا تؤلف نظرية فان فى وسعك أن تقيم الدليل على صحة تخيلك هذا وأن عجزت عن اقامة الدليل على عدم صحته وكان هناك عدد من الفرضيات التى قيل ان الرياضيين أقاموا الدليل على صحتها وقد ثبت فيما بعد أن هذه الفرضيات كانت بعيدة كل البعـــد عن الصحة وان الدليل قد قام على زيفها . ومن الواضح أنه لو كان فى الامكان اختراع وسيلة للتمييز الى حد ما وبصورة آلية بين الاحكام العامة الصادقة والاحكام غير الصادقة ، فان هذه الوسيلة تكون نافعة كل النفع لاى نظام علمى . ولا ريب فى أن محاولة تطبيق المنطق على الرياضيات هى الخطوة الأولى فى ايجاد هذا الطراز من الاوضاع فى ملكوت الرياضة .

وعثرت بعض الأنظمة العلمية وبينها الرياضيات فى القرن التاسع عشر على وسيلتهـــا الصحيحة . ولعـــل النتيجة العظيمـــة لهذا فى القرن العشرين هو ما تحقق من نجاح مذهل فى حقل العلوم ، يفوق فى الخطى الواسعة التى قطعهـــا كل ما تم تحقيقه فى الفترة التى انقضت بين عصر الاغريق والقرن التاسع عشر . وكان طراز التطور الذى وقع من النوع الذى يتطلب من كل راغب فى القبض على ناصية علم من العلوم ، أن يخضع

نفسه لتدريب طويل وجدى من طراز التخصص · ويكون تركيز القوى كاملا كل الكمال ، بحيث تغدو العلوم حوانيت مقفلة فى وجه غيرها من الانظمة · ولا ريب فى أن هذا هو منبع التباين الذى حمل س · ب · سنو (C.P. Snow) على أن ينبه « بالثقافتين » · ولكن التخصص والنجاح الظاهرى للعلوم هو الذى أثر على بعض العقول على أى حال الى درجة حملها على أن توحد أخيرا بين ممكنات المعرفة البشرية ، واحتمالات العلم · وكثيرا ما يجد المرء فعلا أناسا يتمرسون على الفنون ، وقد حفزتهم الرغبة فى أن ينضموا الى قوافل العلم ، يلجأون الى بعض الأحاديث المؤلمة عن الطريقة العلمية المتبعة فى الأنظمة التى ينتمون اليها ، وهكذا بدأنا نسمح بالطريقة العلمية فى الموسيقى والرسم والنقد الأدبى والتاريخ والفلسفة · وقد لا أدهش مطلقا اذا ما سمعت بعض الناس يشرعون فى الحديث عن الطريقة العلمية فى الشعر ، ومن المحتمل أن يكون مثل هذا الحديث قد ظهر فعلا فلقد سمعنا سيلا منهمرا من الحديث عن هذه الفلسفة أو تلك ، وذلك كمحاولة لايضاح ما تعنية هذه الطريقة العلمية بالنسبة الى كل نوع من الفروع ·

وعلى المرء أن لا يخطىء فى علاقة كل هذه الأمور بالأنسنة · وقد سبق لى أن أوضحت أن فكرة الرجل المثقف اليوم ، ليست الا انعداما « لرجل الموسوعة » الذى عرفته أوربا فى عصر النهضة الفكرية · فهذه الحقيقة تربط هذه الفكرة فورا بالأنسنة الاستعقالية · وقد يقول الانسان ان جوهر الانسنة هو الاستعاضة عن الله الخالق وتكمن امكانية ذلك فى امتلاك الانسان للعقل ، وفى اعجاب الانسان بهذا الامتلاك ولقد عنت الثقافة فى عصر النهضة ، تعهد العقل والمنطق بالتثقيف والرعاية ، ولما كانت قوة الاحساس قد ظلت خاضعة للعقل حتى قام هيوم (Hume) (١) يدعو الى أن العقل لا يستطيع التوصية بأى اجراء للعمل ، أو بأى هدف على أنه جدير بأن يسعى المرء اليه لذاته فان علم الاخلاق، وعلم الجمالية ظلا يعتبران أشياء استعقالية · وقد بلغت ذروة هذا الاتجاه فى اخلاقيات « كانت » الاستعقالية ، التى أقامت جدوى الاحكام الأخلاقية والجمالية على ما يوصى به العقل ·

---

(١) ديفيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦) فيلسوف ومؤرخ اسكوتلندى ، درس القانون في بداية حياته ولكنه ما لبث أن عدل عنه بسبب سوء حالته الصحية . وأهم كتبه « اطروحة عن الطبيعة البشرية » و « مقالات في السياسة والأخلاق » و « مقالات فلسفية عن الفهم البشرى » و «التحرى من مبادىء الأخلاق» و «مطارحات سياسية» . وتعتبر آراؤه في الفلسفة من النوع الشكى بالنسبة الى المتزمتين من ذوى العقائد الدينية .

ـ المعرب ـ

والفكرة التى تنطوى عليها الأنسنة العقلية ، فكرة عقلية أيضا ، وقد سبق لهذه الفكرة أن وردت في الرأى الذى دعا اليه ارسطو والقائل بأن الانسان حيوان عاقل وكذلك في النظرية السياسية الديموقراطية التى أقامها على أساس هذا الرأى • والفكرة هنا هى أننا لا نستطيع ان نصف تملكنا للعقل بالشيء العارض • ومن الصدق أن يقال ، ان حيازة المخلوقات البشرية للعقل لابد وأن يكون اتفاقا عارضا وقد يكون سعيدا بالنسبة الى الذباب الذى يعيش على ما يفرزه الانسان • لكن هذه الحيازة تعتبر خاصية مميزة ومعرفة بالنسبة الى الانسان • ولا ريب أن هذا مايعنيه اطلاق أسماء مختلفة على العقل ، كالطاقة أو الملكة أو الميل بدلا من تسميته بسلسلة من الأفعـــال ذات الطابع القصصى ، ولا ريب فى أن هذه هى المأساة التى عاشها هيوم • فلقد خيل اليه بأن الأشياء المادية ليست الا مجرد أفكار تطبعها الأحاسيس فينا • وخيل اليه أيضا أن كل فكرة ليست الا وجودا واضحا فى ذاته ، وأن ليست له أية علاقة بأية فكرة أخرى • ويصبح لنا أن نطلق على هذا الخيال اسم فلسفة هيوم الذرية • ولم يستطع أن يحدد بالضبط ما يراه في العقل نفسه ، وان كان ميالا الى القول بأن العقل أيضا ليس الا مجموعة من الأفكار وهنا ، أى عند هذه النقطة ، واجهه احتمالان ، اما أن ينكر وجود شيء اسمه العقل وهو ما يبدو أنه قد فعله حقا أو أن يقول بأن الأفكار نفسها هى موجودات مدركة • ويبدو أنه وقف حائرا فى الخيار بين الأمرين ، وأطاحت به حيرته الى حالة من العجز عن النطق •

وهكذا اذا لم يكن فى مكنتنا أن نقول بأن حيازتنا للعقل شيء عارض فان من واجبنا أن ننظر الى هذا العقل بعين المهابة والاجلال • وحتى اذا نظرنا اليه كنتيجة متقنة التخطيط للتطور ، فاننا سنكون فى حالة عجز عن الامتناع عن التأثر به • وقد يجد المرء نفسه متحمسا للمغامرة بالقول بأن العودة الى القصص عن الخيالات المتطورة والحسنة التخطيط ، ليست الا رجوعا الى فكرة التطور نفسه • وقد لا يضفى التطور البطيء الذى يثب من شيء الى آخر كما تثب الضفدع • على الخيال أى معنى معقول • وقد لا تعنى القفزات شيئا اذا لم تترك فجوات بينها ، اذ لا معنى للفجوة على هذا الصعيد الا أن تكون علاقة ترابط غير قانونى وغير مشروع • وليس من المعقول أن يخلق التطور سواء أكان من النوع الذى يتم عن طريق الاختيار الطبيعى طبقا لنظرة داروين (Darwin) (1) أم عن طـريق التركيب

---

(1) شارل روبرت داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢) الفيلسوف الطبيعى البريطـانى المشهور ولد في شروزبرى وقد درس في جامعتى ادنبره وكمبردج ، وقد أولع منذ حداثته بعلمى النبات والحيوان وكان يجمع الفراشات من صغره • وهو صاحب النظرية المشهورة عن تطور الانسان وتنازع البقاء وبقاء الأنسب • – المعـرب –

المعقد تطبيقا لنظرية تيهارد دي شاردان وأتباعه ، عقلا من اللاعقل ، وليس في وسع التطور أن يوضح جذور الحياة الواعية وأصولها ٠

وهناك الآن فئتان من القضايا يجدر بالانسان أن يعرضهما ٠ ففي وسع المرء اذا ما واجهته ظاهرة الوعي ، والوعي الذاتي ، أن يتحرى عن تلك الاوضاع التي تعتبر كافية كفاية مادية ، أي تلك الاوضاع الواقعية التي ترتبط بها الحياة الواعية ، وأعني بها تركيب الخلايا ، أو أن يتحرى عن تلك الأوضاع الكافية كفاية شكلية أي الأوضاع المتشابهة والتي تعتبر أحداثا للحياة الواعية ٠ وجميع هذه الأوضاع مجهولة كل الجهل ٠ ويعتبر تحديد هذين الطرازين من الأوضاع مسئولا عن تلك الأخطاء التي ترتكب باسم مذهب الظواهر اللاحقة ، وهو المذهب الذي يحاول تحديد العقل ، بأنه الأثر الناتج عن المادة ٠ ويعني هذا المذهب ، أن العقل ليس الا صورة من صور فعل المادة ونشاطها ٠ وهذا هو جوهر المذهب الجديد القائل بحيوية المادة ، فاذا ما أردت البحث عن الاوضاع المادية للفكر ٠ ونشدت العثور على أمثلة منها ؛ فان علماء وظائف الاعضاء (الفيزيولوجيا) وعلماء الكيمياء العضوية ، سيتحدثون اليك عن بعض الظواهر التي تتفاعل في عقل الانسان عندما يفكر ٠ ولكن ربط هذه الظواهر بالتفكير يعرضك الى الوقوع في أخطاء لا منطقية ٠ ولا ريب في أن الخطأ الذي يمثل هنا يشبه الى حد كبير ذلك الذي وقع فيه ويتجنشتاين (Wittgenstein) في كتابه « تحقيقات فلسفية » عندما عالج أحلام الانسان على أنها الوصف الحقيقي لما يحس به ٠ وتتلخص زبدة معالجته لموضوع الأحلام ، في المعادلة بين ظاهرة الأحلام وبين سردها ٠ وهذا يعني أن الحلم لا يصبح حلما قابلا للملاحظة الا اذا سرد سردا صحيحا ويظهر من هنا ، أن الحلم لا يغدو من الناحية العقلية عرضة للملاحظة العامة الا عن طريق الكلام وغير الكلام من وجوه النشاط الادراكي ٠ ولاريب في أن سخافة هذا التحليل ، لا تبدو الا عن طريق نظريات الادراك الحسي ٠ وتضع معظم هذه النظريات أوضاعا مجسدة معينة من الادراك الحسي ، ثم تمضي دون كبير ضجة الى تمييز هذه الاوضاع شكليا وتحديدها على النحو الذي يدركها الانسان فيه ٠ ومن المحتمل الا استطيع الابصار ، اذا لم يهاجم الضوء ناظري ويشكل صورة على شبكية عيني ، ولكن انتقال الضوء من مصدره الى عيني ، وتشكيله الصورة على شبكيتها لا يمكن أن يكونا عن طريق فردي أو جماعي ، الحقيقة الباطنية لذلك الاشراق الذي يسمى الرؤية ، ولا يمكن لهذه الأوضاع البدنية الحسية أن تؤمن التفسير الصحيح للرؤية والوعي وان كانت تجعل من هذه الرؤية شيئا يشبه الأعجوبة ٠

وليس ثمة من شك في أن درجة تشبعنا بالفكرة القائلة ٠ بأننا لا نستعقل بطريق العرض والمصادفة ، هي التي تقرر المدى الذي نكون

فيه على استعداد للاذعان لصوت اعتل ٠ وعندما يصل هذا التشبع الى منتهاه ، نلجأ الى تقييم الأخلاق والسياسات والعلوم وحتى التقنيه على قواعد المنطق وأسسه ، ويبدأ المذهب التجريبي في عيوننا : كمستنقع من البلادة حيث يخوض الناس فيه دون تبصره ، ودون أفكار ، وينتظرون من الأحداث أن تبغتهم وتفاجئهم ، بدلا من تحديد العلاقة الجوهرية القائمة بين الأمور عن طريق ايضاح الافكار القائمة وراء هذه الأشياء ٠ ولقد كانت هذه هي الفكرة التى نادى بها ليبنيتز اذ اعتقد هذا العبقرى الالمانى الذى عاش في القرن السابع عشر ، أن ليس ثمة من شيء لا يقوم ترابط بينه وبين فكرة معينة ٠ ولقد خيل اليه أن احتمالات الوقوع ، والحدثان فى الطبيعة ، قد غدت مكشوفة فى العلاقات القائمة بين الفكرة القائمة وراء الأمور ولن يكون ثمة أية مفاجئات فى ذلك بالنسبة الى الرجل الذى يستطيع الامساك بهذه الفكرة ، والكشف عن ارتباطاتها الداخلية ٠ ويعتمد المذهب التجريبى على احتمال المفاجآت ٠ وعلى التذرع بالحكمة بعد وقوع الحادث ، ولكن ليبنيتز ، كان يرى فى هذه المفاجآت وضعا نفسيا ناجما عن الجهل والبلادة ٠ ولاريب فى أن هذا الطراز من توقير ليبنيتز للعقل ، هو الذى يقودنا الى القول بأننا نفهم الله فهما طيبا ، والى اتهام ليبنيتز بانه عالم رياضى ، أو فيلسوف يؤمن بالمذهب العقلى أو أنه فى يومنا هذا اقتصادى من أتباع ريكاردو (Ricardo) (١) ٠ ولا ريب فى أن هذا الطراز من توقير ليبنيتز هو الذى يدفعنا الى أن نقرر مصائرنا بأيدينا ، وأن نكتب بأيدينا شهادات حسن سلوكنا وقد شـــهد العصر الفيكتورى (٢) فى بريطانيا تحقيق هذا الكفر الانسانى بطريقة عاطفية الارضاء وكانت أمجاد الامبراطورية ، والثراء الناجم عن الصناعة والتجارة والوطنية المستشهدة التى قدمت رموز التضحية والفداء ، والآلام الشديدة التى عانتها الطبقات العاملة والاتقان المنظم لقواعد السلوك العامة ، وحتى التصميم الموزون البارع لعلم الامبراطورية (اليونيون جاك) ، كلها من الانتصارات الرائعة التى حققها الانسان الخلاق ٠ وهكذا تحول كل شيء الى التنظيم ولا أقول الى التصنع ٠ وأصبح فى وسع كل انسان أن يتكهن بصدق بما يكون عليه موقف الشابات المتوقع فى أى ظرف من الظروف ٠ ولم يكن من السهل على أى حال أن يصـــدق المرء ان كل هـــذا التجـانس الذى يخلقه التنظيم

---

(١) ديفيد ريكاردو (١٧٧٢ — ١٨٢٣) عالم انجليزى اقتصادى . ولد في لنـدن عن اب هولندى من اصل يهودى . واشترك مع ابيه بعد ذلك في أعمال البورصة . وقد كرس ريكاردو الكثير من وقت فراغه للدراسات العلمية . وكان احد مؤسسي جمعيـة لندن الجيولوجية . وقد وضع عددا من الكتب في الاقتصاد السياسي . وأهم كتبـه « بحث في مبادىء الاقتصاد السياسي والضرائب » .

(٢) عصر الملكة فكتوريا في انجلترا بين عامى ١٨٧٧ و ١٩٠١ .

الرسمي ، أصل في وجوده • فمازال العهد الفيكتوري ، هذا اذا شئنا المضي في بحث هذا المثال حتى النهاية ، يعيش في ظل خطير من الشك ، بأنه كان عهد نفاق واصطناع • ومع ذلك فان هذا الكمال التلقائي الوجود الذي يمثله العهد الفيكتوري • ما كان ليستطيع البقاء والخلود طويلا على ضوء المعايير الانسانية ، ذلك لأن المذهب الانساني مذهب مناضل وجم النشاط • وكل ما حدث بعد انتهاء ذلك العهد هو تحطيم هذا الكمال الصوري ، أو الصورية الكاملة المتجانسة • وهذا يعني أن الانسان حطم خلقه الكامل محولا اياه الى قطع ممزقة مهشمة • ويبرز هذا الميل الى التقطيع والتجزئة ، في عدد من الحركات التي ظهرت في أوروبا المعاصرة • ومازال الركود الآسن الذي ظهر في العهد الفيكتوري ، والذي استفز مذهب العودة الى التنزير ، قائما في مجالات عدة • وكان التلهف على التحليل واضحا كل الوضوح في هـــذه المرارة العابسة التي تنطق بها شفاه فوضويي دوستويفسكي (١) وكان الداء الذي استشرى في الفلسفات المختلفة الانواع ، الرمز العاكس لفترة الركود والأسن • وليس من الفضيلة في شيء أن يكثر المرء من الثرثرة والحديث السطحي عن المواضيع التي يعالجها بدلا من أن يتناول هذه المواضيع بالبحث والدرس العميقين • وشرع نقاد الأدب يغرقون أنفسهم في تحليل فلسفة النقد • وأصيب علماء اللاهوت بحمى فلسفة الدين • وأصبحت فلسفة الفن موضوعا متفوقا على الفن نفسه • وحتى الفلاسفة أنفسهم أخذوا يشغلون أنفسهم في بحث « فلسفة الفلسفة » عن طريق الحوار الأفلاطوني المعروف بدلا من المضي قدما في دراسات الفلسفة نفسها ، وقد وصلوا الى الذروة في تفكيرهم الرخيص هذا الذي أطلقوا عليه أسماء مختلفة منها الايجابية المنطقية والدلالة التوكيدية وقد تخلوا عندما وصلوا الى هذه النقطة عن الفلسفة كل التخلي ، لا سيما وقد تنكروا لاحتمالاتها بالسلوك الذي سلكوه ، وذلك لأنهم رأوا في الفلسفة شكلا من أشكال معاجم الاقتراحات ، التي تختلف عن معاجم الكلمات • وتحقق الجمود في الأدب في صورة العواطف الباكية التي وردت على السنة الشعراء من أمثال تنيسون • أما في الفن فقد تحقق الجمـــود فيما في الفن التأثيري من ميوعة ممتعة ومن استرخاء يشبه ما يتراءى في الاحلام • وكانت التأثيرية في الفن تمثل الدور الذي أداه

---

(١) فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي (١٨٢٢ — ١٨٨١) ، احد كبار البارزين في الادب الروسي ومن أكبر رجال القصة في العالم في القرن التاسع عشر • ولد في موسكو من والد يعمل في الطب • أصيب بعاهات في صباه ظل يشكو منها طيلة حياته • من اهم كتبه «الجريمة والعقاب» و «المجذوب» و«اخوة كرامازوف» وغيرها •

موزارت فى الموسيقى • وغدت تجزئة روثرفورد (Rutherford) (١) للذرة أمرا ينطوى على شيء من التكهن بالغيب • وقد ألح بيكاسو فى الفن الى النظرية الذرية ، عندما قام بتجزئة الجسم البشرى ، ثم أعاد تجميعه ثانية وكأنه كان يعيش فى كابوس من كوابيس امبيدوكليس(Empedocles) (٢) فمن مزايا التركيب أن يخلق الهدوء والدعة ، اللذين لا يستطيع التحليل أن يخلقهما • واختفت فى عصر التحليل الذى خلف العهد الفيكتورى جميع مظاهر الدعة والهدوء والرزانة • وأطل ازعاج الموسيقى العصرية فى شكل استغلال فاجر لما فى النشاز من مضايقة • وتخلى التصوير الأدبى الرائع عن مواقعه ليحل محله شعر البخار وشعر « الخردة » المعدنية • وتخلى كاتبو التاريخ عن الشمول ليحل محله ميل تامير الى الاصطفائية •

ولم يتغير الوضع بالنسبة الى الرجل نفســـه • فلقد قام فرويد (Freud) (٣) بتجزئته الى نتف وأجزاء ، مكتشفا فيه شيئا غير الصلصال الذى نفخ فيه الله من روحه ليغدو بشرا سويا وأعلن أنه لا يعدو أن يكون تداخلا من العناصر المتطبعة بطبائع لاذاتية • وتحول الدفع والتعمد فى نظريات فرويد النفسية الى القياس العقلى القائم بين السبب والنتيجة • ولعل وجه التباين بينه وبين يونغ (Jung) (٤) ، لا يقوم بصدد الطريقة

---

(١) اللورد ايرنست روثر فورد — ١٨٧١ — ١٩٣٧ : ولد في برايتودتر في زيلندة الجديدة ودرس في جامعة كمبريدج حيث عمل في حقل البحث العلمى ، ثم أصبح استاذا لعلم الطبيعة التجريبى في الجامعة نفسها • وكان من رواد البحوث العلمية في الفيزياء الذرية ، وقد تمكن في عام ١٩٣٢ من تجزئة الذرة • وكانت له مكانة علمية بارزة •

(٢) ايمبيد وكليس — الفيلسوف الاغريقى ، وكان مشرعا وشاعرا وكاهنا عالما من كهنة صقلية • ولد حوالى عام ٤٩٠ قبل الميلاد • اشتهر بتحليله العالم الى العناصر الاربعة وهى النار والهواء والارض والماء مصورا النار بأنها مصدر الحياة • وان العناصر الثلاثة الاخرى هى أسس المادة • وتقوم نظريته على هذا الاساس وعلى وجود عنصرين آخرين هما الحب والكراهية •   — المعرب —

(٣) سيجموند فرويد — ١٨٥٦ — ١٩٣٩ • أستاذ علم الاعصاب في جامعة فيينا واشتهر امره ، بأنه رائد من رواد علم التحليل النفسي • ولد في مدينــة فرايبورج في مورافيا في السادس من مايو ودرس في جامعة فيينا • وكانت أول نتائج دراساته ، القول بامكان معالجة الجنون العادى بالتشخيص والتحليل النفسيين عن طريق الايحاء • وكان أول من قال بتفسير الاحلام على اعتبار انها اعمال من العقل الباطن أثناء الليل عندماتغدو الادارة مشلولة ، وتتوقف الوعيية عن العمل • وكان اول من قال بأن جميـع حـالات العصاب ناجمة عن الكبت الجنسي ، وان الشهوات الجنسية تتوالد مع الانسان منذ مجيئه الى الحياة • لقيت نظرياته معارضة شديدة في حياته •

(٤) كارل جوستاف يونج — ١٨٧٥ ، عالم نفسي ســويسرى واخصائى في الطب النفسي • ولد في كيسويل وتعاون مع فرويد في تطوير نظرية فرويد في التحليل النفسي ، ولكنهمــا اختلفــا في الرأى ووقعت القطيعــة بينهمــا ، أسس معهـــدا للطب النفسي في زوريخ • من أهم كتبه « اســهام في الطب النفسي » و « الرجل المعاصر يبحث عن روحه » و « نفسية الدين » و « الفكر الروحى الحديث » •   — المعرب —

التي يجزأ فيها الانسان الى عناصره وانما في الطريقة التي أعيد تشكيله فيهـــا من عناصره المختلفة وقد ابتكر يونج بدلا من « لا شخصية » فرويد ، سجنا يضم العفاريت الذين يتقمصون الشر دائما ويعرض هذان الاحتمالان من التذرير ، احتمالا مزدوجا بالنسبة الى الانسان بعد أن تم تفتيته الى عنـــاصره الأولية • وفي الامكان اطلاق اسمي « الجوهرية » و « العلمية » على هذين الاحتمالين ، لا سيما وأنهما في الحقيقة من احتمالات البناء ، ويتعلقان بطبيعة الانسان وجوهره • ولا ريب في أن طريقة يونج في التحليل هي التي أوجدت هذين الاحتمالين ، وقد تكون الوجودية من الطراز الذي ابتـــدره سارتر (Sartre) (١) هي التي مضت في ايضاح هذين الاحتمالين • وتقول وجهة النظر « الجوهرية » للانسان أن هناك عنصرا دائما في بني البشر لا يمكن رده أو نقضه ، وهو الأساس في البشرية كلها • ويرى وجوديو سارتر هذا العنصر الذي لا يرد في قدرة الانسان المزعومة على العمل كلية بدون دفع أو تفكير • ويرى المرء هذا الطراز من التفكير أيضا في كتاب « الشياطين » لدوستويفسكي • واذا ما نظر المرء الى هذا الموضوع دون أي تحيز ، بات من حقه في أن يشك في امكان هذا العمل وفي أن يعتقد بأن وجودية سارتر تنطوي على أن أهم ما في الانسان هو لا معقوليته • وينبع الحث على التعلق بهذه النظرية من الاعتقاد القابل للنقض ، وهو أن الحرية لا يمكن تقريرها أو ايضاحها •

ولعل أهم نتيجة لهذا الايمان ، هو أن يغدو الانســـان العاقل ، عبدا رقيقا لعقله ، وبذلك تغدو متابعة الاعمـــال المعقولة وتنفيذها ممثلة لأداة العبودية بدلا من أن تمثل الحرية المتنورة • ولكن اذا كانت حيازة العقل جزءا من طبيعتنا • فان هذا العقل لا يستطيع استعبادنا ، اذ أن طبيعتنا أعجز من أن تستبدبنا ، لعدم وجود أية وشائج بيننا وبين هذه الطبيعـــة قابلة للتحطيم • فحيث لا وجود للوشـــائج ، لا يكون هناك أي استبداد • ومع ذلك يتطلب وجود الاعمـــــال العقلية شكلا من أشكال التصميم الصحيح • ويعتمد امكان التخطيط والوصول الى النتائج على ما في التصميم من واقعية وعلى وجود أوضاع كافية للحوادث العرضية •

وتجســـــد النظرة السارترية على صعيد آداب السلوك ثقـــافة «التطرف» وهي تؤدي في حقول السياسة والاقتصاد وغيرها من ميادين

---

(١) جان بول سارتر – ١٩٠٥ – روائي فرنسي وفيلسوف وكاتب مسرحي ولد في باريس من والد يعمل ضابطا في البحرية • تخرج في الجامعة في عام ١٩٢٩ • اشترك في الحرب الكونية الثانية وأسره الألمان • مؤسس نظرية الوجودية ، التي انتشرت بين الشبان اليائسين بعد انتهاء الحرب • وترجمت قصصه الى مختلف اللغات من أشهر كتبه « الخطايا » و « أعمدة الحرية » و « الاشتراكية والحرية » •

– المعرب –

النشاط الرسمي الى الفوضى في أسوأ الحالات ، بينما تؤدي في أحسن الحالات الى التفرديه السياسة والاقتصادية التي عرضها جون ستيوارت مل (Mill) (١) • وقد تميل الى التقليل من قوة قبضه الحكومه على الشعب • وهي تؤدى الى تفسيخ الثقافة • وانتأكيد على التفردية وعلى التطرف في جميع مجالاتهما • واني لأرى شخصيا أن الثقافة هي الحياة التي يشترك الشعب في عيشها • ومن الواضح أن النظرة « الجوهرية » للانسانية التي تعرضهاوجودية سارتر ، لا يمكن أن تنسجم مع نظرتي الى الثقافة ، وهي النظرة التي أنا على استعداد للدفاع عنها • لكن هذا التعارض يجب الا يكون مصدرا من مصادر الالم والشقاء ، اذ مهما بلغ عجز الثقافة عن العمل ، فانها على الاقل تكبح جماح التفردية • ولا تنظر الفكرة السارترية نظرة ود الى أية محاولة لكبح جماح التفردية ومن هنا لا تتفق السارترية مع العمل التكاملي للثقافة •

ولما كانت فكرتي مجرد محاولة لاضفاء الصبغة الروحية على الطبيعة الانسانية وهي الطبيعة التي تنظر اليها وجودية سارتر نظرة جوهرية • فان هناك اراء جوهرية بديلة ، أقل تناقضا من نظرة سارتر مع وجهة نظري في الثقافة • ولا ريب في أن فكرة حتمية العقل بالنسبة الى الوضع الانساني تؤلف وجهة نظر جوهرية في الطبيعة الانسانية ولقد اختلفت الآراء الجوهرية نفسها من عصر الى عصر • ومن حقبة الى أخرى • وفي وسع المرء أن يقول ان هذه الآراء هي التي تطبع كل حقبة من الحقب بطابعها الخاص بها • ففي عصر ثراء المنطق الاغريقي ، عندما كانت القوة الدافعة الى التعميم • قد اكتشفت في عهد طاليس (Thales) (٢) ليسير على نهجها خلفاؤه ، وفي العهد الذي تنكر فيه الناس في دلتا النيل للقواعد العملية المتزمته ، متحولين عنها الى النظريات والادلة ، فان النشاط الجديد للعقل بات مؤثرا كل التأثير سواء من ناحية زرايته بالحدود والقيود أو من ناحية ما حققه من انتصارات

---

(١) جون ستيوارت مل (١٨٠٦ – ١٨٧٣) فيلسوف بريطاني وعالم من علماء الاقتصاد كان والده جيمس مل أشهر من أرخ عن الهند . درس دراسة خاصة على يد والده واصبح موظفا في شركة الهند . بشر بمذهب النفعية . وكان مؤسسا لجمعيتها . من أشهر مؤلفاته «مبادىء الاقتصاد السياسي» و «مشكلة الارض في ارلندة». كان من دعاة حرية الفكر والقول .

— المعرب —

(٢) طاليس (حوالى ٦٠٠ قبل الميلاد) فيلسوف اغريقي كان رئيسا للحكماء السبعة ولد في ميليتس . وقد علم أن الماء هو العنصر الأساسي الذى تنبع منه كافة العناصر الاخرى . ومن الواضح أنه استمد الكثير من علوم المصريين ومن حضارة وادى الرافدين وقد عرف بأنه مكتشف الهندسة الاطلاقية التجريدية .

— المعرب —

وأصبح التعريف الشائع للانسان بانه حيوان عاقل ، وجميع التعاريف في الواقع «جوهرية» في أثرها ، اذ أنها تعرف أشياء تعتبرها حتمية لا غنى عنها • وقد أدت جميع المميزات الخاصة التي أدخلها الأغريق على شواهدهم العقلية عن الانسان ، الى منجزات رائعة في حقول العلم ، والانسانيات ، وعلم الأحياء والرياضة والمنطق والفلسفة والأدب والنظريات السياسية • وكانت منجزاتهم التقنية أيضا عظيمة للغـاية • وقد أدى تأنقهم في القضايا الفكرية الى الاصرار على شيء من الدقة في القضـايا العملية ، جعلت علومهم الهندسية في مكانة كبيرة • وكان هذا التأنق أيضا عاملا ضخما في السمو بأذواقهـم في الفنون المنظورية وظل فنهم في النحت والعمارة مسيطرا على نحت أوروبا وعمارتها حتى بداية عهـد الانحلال الحديث • ولما كان العقل الانساني هو الاساس في كل هذا • اذ أنه برز في كل تعريف صدر عنهم بالانسان ، فان عنايتهم كانت شديدة ، في أن ينموا أفكارهم هذه الى أكبر حد ممكن • وقد سهل عليهم ذلك أن يجعلوا من ثقافتهم شعبا متكاملا كل التكامل • والعقـل شيء يشترك الجميع في حيازته • وقد تم تطويره على أسس مشـتركة ترتكز على نظرية تربوية نابعة عن تفكير عميق ، ومنسجمة بالتالي كل الانسجام مع تلك الاسس لكن ثقافتهم — أي الاغريق ، واجهت هنا أكبر ما يهددها من أخطار • اذ لما كان العقل خاضـعا لنظرية التطور ، فقد كان من الطبيعي بالنسبة الى أفلاطون (١) أن يفترض أن منحة العقل هي أساس المجتمع والثقافة ، وأن أصحاب العقول الكبيرة يجب أن يكونوا الاوصياء على هذه المنحة • وقد عرض ديكارت (Descartes) (٢) ، صورة بديلة عندما أصر على أن العقل ملكية صورية لا ملموسة للانسـان ، ولهذا فلا يمكن أن تتباين درجاته تباينا كبيراً • وقد أدى فشل أفلاطون في تنفيذ نظريته السياسية القائلة بديكتاتورية المثقفين ، الى الانتصـار الفوري للديموقراطية الاثينية • وقد مكن هذا الانتصار أهل أثينا من انتاج تلك الظاهرة في طراز نسبي من القول ومن الوحدة التي تبذل الجهود في تحقيقها • ومع هذا فان الاعتماد على العقـل كظاهرة مميزة للانسان ، ليس الا احدى الطرق التي تمكن الثقافة من أن تغدو عامل

---

(١) الفيلسوف الاغريقي المشهور الذي لا يحتاج الى تعريف •

(٢) رينيه ديكارت ١٥٩٦ — ١٦٥٠ فيلسوف فرنسي ولد في تورين ودرس عنـد الآباء اليسوعيين • عمل في جيش بافاريا ثم استقر في باريس ثم عاد الى الاقامة في هولندة ومات في ستوكهولم عاصمة السويد التي ارتحل اليها في آخر سنة من حياته • يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة ، أول من دعا الى الايمان بالمحسوس ليس الا وتحكيم العقل • من أشهر كتبه « مبادىء فلسفية » و«التفكير في مبادىء الفلسفة» •

— المعرب —

تكامل · ويشبع فشل وجودية سارتر في الهـــام مثل هذه الثقافة من الحقيقة المجردة وهي انها تقيم طبيعة الانسان على أساس اللامعقولية ·

لكن اللامعقولية لا تخضع للقـــانون الغيبي أو التنبئي ، ولهذا فلا يمكن أن تكون طليعة التكامل · فعدد احتمالات الانعكاسات العقلية محدودة في جميع الحالات والأوضاع · وعلى هذا الاساس يمكن التنبؤ بانعكاس أي رجل عاقل لأي حالة أو حافز · أما عندما يكون الانسان فاقد العقل فان احتمالات انعكاساته لنفس الوضع أو الحالة ، تكون غير محدودة · ولا يمكن الا لخيال هذا الرجل أن يحدد انعكاساته بصورة أساسية ، ومن هنا تنبع نظرية سارتر الوجودية في أن الثقافة يجب أن تكون كابحة ، وبالتالي شيئا لا يطاق · وهي ترى أن مهمة الثقافة تحديد فرص الانسان في أن يكون فردا · لانهـــا تدعو الى الاندماج والتكامل عن طريق تنسيق مجالات الانعكاس وتحديدها ·

ولعل من أصدق الأمثلة على الآراء الجوهرية التي ولدت ثقـــافة الاندماج والتكامل · النظرة الى الرجل على أنه القياس لكل شيء · أو النظرة اليه كحيوان سياسي أو كحيوان اقتصادي · وحار أرسطو (١) ، بين أن يعامل الانسان كحيوان عاقل أو كحيوان سياسي · وقرر أخيراً ، ازالة هذه الحيرة النظرية التي يعاني منها عن طريق الجمع بين النظريتين · أي عن طريق القول بأن الانسان من الناحية العملية ، حيوان سياسي ، ولكن هذا الانسان وجد نفسه مرغما بعقلانيته على البحث عن النظرية السياسية الوحيدة المعقولة وهي النظرية السياسية الديموقراطية · وقد سيطرت نظرية الانسان حيوان سياسي تمام السيطرة على جميع أولئك المفـــكرين النظريين الذين جعلوا من فرضية « الحق الطبيعي » محور فلسفاتهم السياسية · ويعتبر لوك (Locke) (٢) وروسو (Rousseau) (٣)،

---

(١) ارسطو ، الفيلسوف الاغريقي الكبير وهو اشهر من ان يعرف ·

(٢) جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) فيلسوف انجليزى مشهور · ولد في سومرسيت، درس في جامعة أوكسفورد ثم اصبح استاذا فيها ، فسكرتيرا للورد شافتسبرى · وعندما تولى هذا رئاسة الوزارة عين وزيرا للتجارة · وعندما سقط اللورد من الحكم ارتحل لوك الى مونبلييه في فرنســا حيث عكف على الدرس والتعمق · وغرق بعــد ذلك في الدوامات السياسية ليجد نفسه أخيرا لاجئا في هولنده في عام ١٦٨٣ · وضع مؤلفات عدة منها « رسالة عن التسامح » و « اطروحة عن الفهم الانسانى » و «آراء في التربية» و « عقلانية المسيحية » وكلن من المعارضين للتزمت العقائدى ·

ـ المعرب ـ

(٣) جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) كاتب وفيلسوف فرنسي كبير · ولد في جنيف من أب ساعاتي ، لم يتلق دراسة منظمة ولم يتعد صفوف مدرسة القرية التي ولد فيها · عمل مساعدا عند نحات كان يسيء معاملته كل الاساءة ، فر الى سافوى =

خير مثـــل على هؤلاء • أما الرأي الذى شرح فى السيطرة على الغرب والشرق على حد سواء اليوم ، فهو أن الانسان حيوان اقتصادى • وجميع هذه الاراء « جوهرية » الاساس ، وهى تولد نتاجات تكاميه مقبوله • ومن المتوقع أن تظل النظرة الاقتصاديه للانسان • مسيطرة على الغرب والشرق أمدا طويلا •

ومع كل هذا فان النظرة « الجوهرية » للانسان ليست بالشكل الوحيد الممكن للرأى القادر على توكيد الناحية التعاملية من الثقـافة • ولايضاح هـذا القول أرى من الواجب التطلع قليـلا الى الطراز الاخر من التفكير ، وهو الطراز العلمى • فهناك أوجه مفـــارقة كبيرة بين هذين الرأيين • فهناك نواح تكون فيها النظرة العلمية للانسان جوهرية ايضا • فهى جوهرية من ناحية تافهة واحدة على الاقل • وهى أنها تقول بشىء من الزرايه ، أن الانسان قادر ــ قدرة أساسيه على كشف الغيب والتنبؤ • لكن هذا الرأى لا يعتبر « جوهريا » من الوجهة النظرية الطريفة • والمهم من الناحية النظرية هو أن الانسان يحمل طبقا للرأى الجوهرى ، الفكره القائلة بأن طبيعة الانسان لا تتغير تغيرا أساسيا فى أية ناحية مهمة • ولعل هذا الرأى هو الذى ترفضه الفكرة العلمية عن الانسان رفضا باتا • وليست الفكرة العلمية واحدة، ولكنها طراز من التفكير • اذ أن الحسابات العلمية قد تختلف أيضا فى العناصر التى تحلل الانسان بموجبها • ولا ريب فى أن الجامع لهذه الفكر وهو أمر فى منتهى الاهمية بالنسبة للثقافة ، هو القول بامكان تبدل الطبيعة الانســانية ، وامكان التكهن بالانعكاسات البشرية بصورة كاملة وكذلك بامكان رســم مخططها • وليس ثمة من شك أيضا فى وضوح الفـــوائد التى يمكن أن تتحقق من هذه الاحتمالات كلها • وقد أفادت صناعة الاعلان وأساليب التسويق الاخرى فائدة عظيمة منها • ولا يمكن للمرء أيضـــا أن يتجاهل الاهمية المحتملة لها بالنسبة الى النظريات السياسية والتطبيق السياسى أيضا • فلو أمكن على سبيل المثال تخطيط الانعكاسات الانســانية ، لأقام هذا الامكان عقبات فى طريق الديموقراطية التى تعيش من الناحية العقائدية على أساس الرضى الشعبى • ومن الواضح أن هـــذه النتيجة للنظرية العلمية للطبيعة الانسانية ، التى تجعلها خاضعة للتحقيقات على صعيد اللاشخصية واللاتقديرية ، والتى تجعلهـــا قادرة على التخطيط وتقبل

= حيث عاش فى رعاية «السيدة دى دارين» ، التى ادخلته مدرسة اللاهوت فى تورين . وعندما سافر من المدرسة تعرف الى السيدة ابيينى التى باتت من اعز صديقاته. بدأ اسمه فى البروز عندما بلغ السابعة والثلاثين ، من أهم ماتركه كتاب « العقد الاجتماعى » و « رسالة عن الحضارة » و « جولى ــ اوهلواز الجديدة » و « اميل » .
ــ المعرب ــ

التبدل ، ترتبط ارتباطا مباشرا مع الناحية المتكاملة للثقافة ، ولا سيما أن الثقافة هنا تعتبر فى الحقيقه « طريقة واحدة من طرق التعبير عن الانعكاسات المتجانسه التى يخلقها التخطيط والتوجيه • وتعتمد الطريقة العلمية على التحليل وعلى التفتيت ثم على السيطرة على الجزئيات والمتغيرات المختارة • وتعرض هذه الطريقة امكان تجميع العناصر المختلفة التى توصل اليها التحليل بمختلف الطرق والوسائل • وهى تعرض أيضا مجموعة من الخطوط العريضة للتركيب على اعتبار أن كل خط منها تعبير عن مصلحة كامنة وقد تبنت مدينة اسبارطة (الاغريقية) مثلا النظرة العلمية للانسان وخلقت ثقافة تسيطر عليها المصالح العسكرية أو الاستفزازية وليس ثمة من ثقافتين أكثر تباينا وتناقضا من ثقافتى اثينا واسبارطة ، فلقد كانت احداهما خرساء بينما كانت الثانية ذات جلبة وضوضاء • وتعبر عن المصلحة الكامنة فى التركيب فى كل ما يعتبر ثابتا أو ما يعتبر قابلا للتبدل •

وتقسم النظرتان « الجوهرية » والعلمية الثقافتين اللتين جاء بهما س • بى • سنو (Snow) اذ يميل الذين يدرسون الانسانيات بصورة طبيعية الى النظرة الجوهرية بينما يميل الذين يدرسون العلوم بصورة طبيعية أيضا الى النظرة العلمية • ولعل السبيل الامثل للتوفيق بينهم هو أن نبحث فى هذين الطرازين من الآراء كمشكلتين اسميتين لغة •

وقد يحتاج الاهتمام الى الناحية المتكاملة فى الثقافة الى بعض الايضاح • فهناك أربعة أمور على الاقل تخلقها الثقافة ، ويشير كل منها الى أنها أداة من أدوات التكامل والاندماج • فالمجتمع فى حاجة الى درجة من التنظيم • والنظرة التفتيتية له متناقضة على صعيد هذا الايضاح ، اذ لا يمكن بأى حال من الاحوال أن نطلق اسم المجتمع على أية مجموعة من الرجال الذين لا كابت لهم • والذين يعيشون فى مجرد « تجميع » يتميز بالفقر والشقاء والوحشية والافتقار الى كل شىء ، وأجواء الخوف والفزع • ولا يمكن ايجاد أى عقد اجتماعى أو الوصول اليه دون وجود لغة مشتركة ، ولا يمكن الوصول الى هذه اللغة المشتركة التى هى السبيل الوحيد للتواصل ، فى مجموعة يسلك كل انسان فيها مسلوك من يحس بأنه مختص بنفسه ليس الا ، ولا ترابط له مع أى قريب •

وهناك من الناحية العامة رأيان فى موضوع ما يمكن أن يشكل الاساس فى تنظيم أى مجتمع من المجتمعات • ويتلاقى هذان الرأيان على أى حال فى تباينهما ، مع التباين القائم بين النظريتين الجوهرية والعلمية • اذ يمكن اعتبار المجتمع قائما اما على نظام من الحقوق أو على نظام من الواجبات • وعندما يعتبر المجتمع قائما على الحقوق ، يصبح فى

وسع المرء أن يتوقع مذهبا من الحقوق الطبيعية يخلق مع الفرد ، ولايمكن فصله عنه • ويرتكز هذا الرأى فى العادة على الفلسفة أو الدين أو عليهما معا • فلقد رأى جون لوك مثلا ، ان الانسان اذا مزج شيئا من «التعميم» مع الجهود التى يبذلهـــا جسمه هو ، فانه يخلق ملكية تحمـــل طابع الاشتراك • ومن الواجب فهم الملكية هنا على أنها تعنى الحق الوحيد فى الافادة ، وترتكز فكرة لوك على الخصائص الفردية للأنوية (أنا) • وفى وسعنا شرح هذه الخصائص بالتمرين التالى • فلو قمت مثلا بحك مؤخرة رأسى ، وتحديتك أن تفعل ما فعلته أنا ، فأنك تواجه أحد احتمالين • أستطيع أن أثير فى وجههـــا الاعتراضات اللازمة ، فلو حككت مؤخرة رأسك ، أمكننى أن أغالطك بأننى حككت مؤخرة رأسى ، وأنك حككت مؤخرة رأسك • أما اذا حككت مؤخرة رأسى أنا ، فان فى وسعى الادعاء بأننى حككت رأسى ، وأنك حككت رأس انسان آخر • وهكذا أصبح الطريق ممهدا أمام لوك للقول بأن الشخص المتكلم (أنا) ، فريد فى نوعه وأن أنا تعنى « أنا » ، ليس الا ، وان خصائصها لا تتبدل ولا تتغير ، ولا يمكن للاعراب عن طريق التحول من صفة المتكلم الى الصفة المفصولة أو الساقطة ، أن يؤثر على هذا الوضع فالوظائف التى يقوم بها جسدى ، حتى ولو كانت وظائف تناسلية ، هى وظائف خاصة بجسدى ولا يمكن أن يشترك فيها أحد • وكل من يقيم نظريته فى الملكية الخاصة على هذا الاساس من التمييز بشخص المتكلم ، ينفذ بلا وعى نظرية المجتمع القائم على الحقوق • ويغدو المجتمع متفتتا ، كمـــا يغدو غير جوهرى فى هذه الحالة بالنسبة الى الوضع الانسانى القائم فى ذلك المجتمع • وتغدو مهمة الحكومة فى مثـــل هذا الوضع ، التوفيـــق الى حد كبير بين الحقوق المتعارضة والدفاع عنها • ويعنى هذا أن يبدأ مصور هذا الوضع بجون لوك وأن ينتهى بجون ستيوارت ميل ، أو يبدأ بجـــان جاك روسو ، وينتهى بشكل من أشكال الوجودية السياسية •

أما اذا كان المجتمع يعتبر من الناحية الاخرى قائما على مجموعة منظمة من الواجبات فان مهمة الحكومة تغدو والحالة هذه الى حد كبير ، حل التناقضات بين الواجبات اذ أن هذه الواجبات شأنها فى ذلك شأن الحقوق تثير التناقضات من نفسها • ويؤدى بنـــاء المجتمع على أساس شبكة من الواجبات فورا الى زوال تفتته وتذريره • والفروق بين الواجبات والحقوق كأساس للمجتمع ، على الرغم من طبيعتهـــا النظرية هى فى الواقع قضية عملية تتعلق بطرز المنظمات أو الانظمة التى يمكن اعتبارها مقبولة • وليست قضية الخيـــار بين الانظمة ، مسألة نظرية مجردة ، بل أنها تنطوى على مزيج اضافى عملى أيضا • اذ أنها فى النهاية خيار بين الحلول العملية البديلة ، وعندما يكون حل وضع ينطوى على بعض

التعقيد قائما على نظريات وأفكار عامة عن طبيعة المجتمع ، فان هـــذا الحل ، لا يقحم نفسه بين المشاكل • وعندما يعرض الحل عرضا كافيا ، فان هذه المشاكل تعترف بوجود عدة حلول نظرية ممكنة • ولكن الحل المعين الذى يقيم الدليل على نجاحه ، يعتمد على التوكيد الذى يعطى لنواح ثقافية معينة • فالرأى الغربى فى المجتمع مثلا ، يؤكد حقوقا معينة تعتبر مقدمات لتنظيم المجتمع • ولكن يجب أن يتضح بأن قائمة المقدمات هذه قد تختلف باختلاف نوع الأساس الذى يقترح المرء اقامة المجتمع عليه • فعندما يحدد الواجب بأنه يهدف الى حمـــاية الحقوق ، تصبح حقوق الملكية الخاصة ، أمرا أساسيا فى ذلك المجتمع • ويتحتم على النظم التى تسن لاقامة هذا المجتمع ، أن تولى هـــذا الامر الاساسى كل الاعتبار والاهمية • أما عندما لا يحدد الواجب بأنه يهدف الى استتباب الامر بين الحقوق وحمايتها ، أى عندما لا تكون صيانة الحقوق هى سبب الوجود بالنسبة الى الواجبات • فان الوجود فى هـــذا المجتمع أو الحياة فيه ، يغدوان الامر الاساسى بالنسبة الى الوضع الانســـانى ويغدو المجتمع بداية لا بد منها أو مقـــدمة للحقوق ، بدلا من أن تكون الحقوق مقدمة للمجتمع •

ولكن سواء أعتبر المجتمع قائما على أساس الحقوق أو على أساس الواجبات ، فان من الواضح كل الوضوح أن هناك شطرا كبيرا من حياة الشعب ، يقوم خارج تدخل الحكومة وأعمالها أو على الاصح خارج نطاق العناية الحكومية • وكل ما تفعله الحكومة على صعيد حياة الأفراد هو أن تضع الحدود على مجالات عمـــل الفرد • أما بالنسبة الى منطلقات عمله الحر ، فان جل ما تستطيع الحـــكومة أن تفعله ، هو توجيه بعض الطاقات المعينة ، وارشادها فى مجالات العمل • وتؤدى الحكومة هـــذا الواجب فى الغالب ، فى تأكيدها صيانة فرص الاختيار هذه وايضاحها . اذ أن كل حكومة تستطيع عن طريق البرامج التعليمية مثلا تحديد فرص معينة أما فى الجهـــاز الحكومى أو فى الصناعة ، أو فى مهنة التعليم نفسها • ولكن لما كان تدخل الدولة المباشر ، مهما كانت هذه الدولة واعية وذات أهداف واضحة ، لا يستطيع أن يشمل أكثر من جزء محدود من أعمال الفرد الممكنة ، فان من اللازم اللازب ، أن لا يصبح العمـــل الفردى فى أى مجتمع ، متقلبا كل التقلب ، أو غريبـــا كل الغرابة اذا أراد القائمون به من الافراد ، العيش فى اطار ذلك المجتمع • ويعتمد امكان تدخل الدولة نفسه ، على تعاون الافراد ، ويتطلب هـــذا التعاون وحدة معقولة فى الهدف بينهم • فالمعروف أن كل فرد يعتمد فى معاشه وحياته ، على احتمال الآخرين وتعاونهم ، ولكن كلما ضعف شـــعور الآخرين الطبيعى بأن هذا الرجل ، يعتمد فى بقائه على احتمـــالهم الخاص

وتعاونهم ، كلما ضعفت قدرتهم على المضى بهذا التعاون وهذا الاحتمال • وليست الثقافة الا أداة لاظهار هذا التعـــاون والاحتمال بمظهر الشيء الطبيعى • ويعتمد نجاحها على المدى الذى يسمح لها فيه بأن تكون قادرة على اثبات صحتها وصدقها وعلى الرغم من أنها تسمح بمناقشات ذاتية وداخلية المحتوى ، وعلى الرغم من أنها تنمو وتتغذى على هذه المناقشات ، فان مبادىء الاقرار فى هذه المناقشات هى من خلق الثقـــافة نفسها • وتستطيع الثقافة عن طريق توحيد الشعب فى عقائده ومبادئه العامة ، أو على الاقل عن طريق التسامح مع بعض العقائد والاعمال والقيم ، أن تسد مع النظام ذلك الجزء الحياتى الذى يقوم وراء حدود تدخـل الدولة •

وتنشأ ناحية ثانية للثقـــافة متصلة بالناحية السابقة من الطريقة التى تملأ فيها ذلك الجزء الحياتى الخارج عن نطاق سلطة تدخل الدولة • وهى تمـــلأ ذلك الجزء بطريقة تضمن فى الوقت نفسه الاندماج فى المجتمع الذى تقوم فيه على أساس انعـــكاسات مشتركة ، وأعمـــال مشتركة ، ومصالح ومواقف وقيم مشتركة أيضا وهى تخلق القاعدة فى بلورة المصير المشترك وفى التعاون من أجل هذا المصير • واذا ما تطلع المرء الى الغرب ، رأى أن هذا المجال للافادة من الثقافة قد تطور تطورا عظيما • ولعل الثقافة هى المعنية ، عندما يسمع المرء هناك واحدا يقول ان هذه العقيدة أو تلك ستحطم طريقة الحياة ، وأن من الواجب الحفاظ على هـذه الطريقة والدفاع عنهـا مهمـا كان الثمن الذى يقتضيـه هـذا الدفاع وتتطور هذه الناحية من الثقافة أيضا ، تطورا سريعا فى البلاد الاشتراكية على شكل نداءات للضمير الاشتراكى ، لتحطيم بعض المساوىء الاجتماعية والقضاء عليها وبينها بالطبع ، الشغب والعربدة ، وقد يكون ما يقـــوله مجتمع ما عن نفسه هو عين ما يدعيه المجتمع الآخر لنفسه أيضا •

وهناك فائدة ثالثة للثقافة وهى ايضـــاح الاحداث وابرازها • فالمشاكل القومية تنشأ على صعيد الاوضـــاع القومية • وهى تكتسب أهميتها منهـا ، وتتحـول الى الاتجـاه النقدى فقط ، فى الأفق النورانى النقى الذى تضفيه الثقافة الشمولية عليها • ومن واجب أى حل فعال ودائم أن يستمد عناصره من الموارد القومية • ويحتـــاج المرء للغربلة والانتقـاء والتحليل فى الاوضاع المعقدة الى فـكرة أو مجموعة من الافكار المسيطرة • وليست الثقافات الا السجل الصحيح لهذه الافكار والاساليب والمواقف ، والمصدر الصـــادق للجهد ، الذى يتفهمه الناس ، والذى يستطيعون مجاراته والعيش به • وللحدث نفسه أهمية تختلف باختلاف الاجواء الثقافية التى يقع فيها وكان المقدم على تحطيم مقعد العرش فى بريطانيا يلقى من العقاب فيها ، غير ما يلقاه مرتكب هذا العمل فى بلاد

الأشانتي في القرن التاسع عشر • فالاخير يلقى عقـوية الموت حتمة ولا يمكن ايضاح الفرق في صرامة العقاب الا بأن هناك خلافا في النظر الى هذا المقعد في كل من الثقافتين • ويؤلف التاريخ دائما الضوء الذي تلقيه الثقافة على الاحداث • ولا ريب في أن قوة الثقافة المقررة هي التي تجعل النبوءات ممكنة في التاريخ • وعنـدما تكون لشعب من الشعوب ثقافة مشتركة ، فان الاهمية المعلقة على الاحداث تجد تقبلا كبيرا ، ويكون للسياسة التي تتخذ لمواجهتها فرصة الصدق والوثوق • وقد تختلف المثل بين ثقافتين مختلفتين ــ واذا كان في الامكان تمييز المثل عن الانظمة التي تضفي الفعالية والتأثير عليها ، فعندما تشترك ثقافتان في الاهداف والمثل المشتركة ، فان الانظمة التي تعبر عن هذه المثل ، قد تختلف عن بعضها تمام الاختلاف • وقد لا تكون العلاقة بين الانظمة والمثل متشابهة. وعندما تكون الانظمة مؤثرة فعالة فان السبب في تشابهها لا يتمثل في أنها تعبر عن مثل معينة وتدافع عنها • ويعتمد نجاح الانظمة على الأوضاع والمعطيات المحلية ، ولما كانت هذه الاوضاع والمعطيات تتبدل تبدلا بارزا فان النظريات السياسية توصي بايجاد تعـديلات في الانظمة القائمة ، ولا ريب في أن الحاجة الى التبديل في الانظمة هي في حد ذاتها تعبير عن الحاجة الى الحفاظ على المثل • ولا ريب في أن أفريقيا وآسيا قادرتان عن تعليم أوروبا درسا وأفهامها أن في الامكان خدمة نفس المثـل بأنظمة مختلفة ، وان الانظمة والحالة هـذه اصطلاحية عرفية • ويحسن هذا الادراك أيضا ، عن أن النظريات السياسية بالنسـبة الى تعاملها مـع الأنظمة نسبية أيضا • ويجب ألا تفترض في أية حـالة من الاحوال ، مكتسبة طابع الشمول في تطبيقها •

وتتلخص الناحية الرابعة من فوائد الثقافة في السيطرة على التبدد وليست هذه الناحية الا ذيلا أو نتيجة للناحية الثالثة السابقة ، فليس ثمة من شك في أن عمليات التصنيع مثلا تخلق التبدل الثقافي ، اذ أنها تؤدي الى الانتقال الى حياة المدن والى هجرة العمال الجماعية من الارياف الى الحواضر ، وكذلك الى تفتيت هذه العـلاقات الصامتة التي تربط الأسر والعشائر في الحيـاة الريفية ، وهي تميل الى الاستعاضة عن الاحساس بالجماعة بالشعور بالفردية ، ذلك لأن قوى الفرد في الأوضاع المدنية تتعرض دائما للابهـاظ في حمل المسئوليات ، ويكون النجاح والتقدير فيها فردي الطابع • وتنشأ في هذه الاوضاع مشاكل جديدة تتعلق بقضاء أوقات الفراغ ، وذلك بالنسـبة الى الجدة في وضع هذه الاوقات • وتتحكم قوة الثقافة في المدى الذي تستطيع فيه قوى التجزئة والتفتيت العثور على منطلقاتها الحرة والناجحة في هذه الاوضاع • وفي امكاننا لبحث هذه الناحية الرابعة من نواحي الثقافة أن نفكر في الثقافة

كشيء ذي ثلاثة أوجه ، وهي الوجه المادي ويشمل أنظمة الملكية والتقنية، والوجه التنظيمي ويشمل العادات والتقاليد وكذلك يشمل بصورة واضحة الانظمة السياسية والاجتماعية ، وأخيرا الوجه التقييمي ويضم قواعد السلوك والدين والادب والفن الى الحد الذي تضم فيه هذه الآمال والاحكام والوجه المادي للثقافة هو الذي يتعرض اليوم الى أكثر نواحي التبدل شدة • فقد وجدت حواشي وذيول الحياة الصناعية ، كالسيارات مثلا وغيرها من السلع الاستهلاكية ، قواعد ثابتة لها في حياة المجتمعات الافريقية التي لم يجر تصنيعها بأي حال من الاحوال • وليست كماليات هذه الثقافة المادية في افريقيا ثمرة من ثمار التصنيع ، كما هي في أي مكان آخر ، وانما هي مقدمات له ، وان كانت بعض تطبيقاته الفنية كالمواصلات مثلا والى حد أقل ، الانتاج ، قد انتقلت الى هناك في السنوات الماضية • ولكن من المفيد النافع أن نتحرى ما اذا كان هذا التمدد وذلك التبدل في الثقافة المادية في افريقيا قد مس ثقافتي القيم والتنظيم فيها • فهل توسعت الثقافة المادية دون أي مساس بأي من الوجهين الآخرين للثقافة ؟ واذا كانت الناحيتان الاخريان قد شهدتا شيئا من التعديل ، أو شيئا من الافقار والعدم في الوقت الذي توسعت فيه الناحية المادية ، ألا يكون ذلك نتيجة بعض الارتباطات الداخلية ، أو أنها مجرد ثمرة لسياسة « دع الامور تجرى كما تشاء » • وقد تسفر تحرياتنا في هذا الصدد عن العثور على الحقيقة الواقعة وهي أن الناحيتين الأخريين للثقافة قد تأثرتا تأثرا مؤلما في افريقيا في نفس الوقت الذي اذعنت فيه الثقافة المادية للاغراءات والغوايات الغربية فلقد طرأ على النظم الاجتماعية تبدل كبير للغاية ، وأضحت الفروق الطبقية أكثر ميوعة مما كانت عليه من قبل ، وأضحت الثورة الاجتماعية أكثر قوة واندفاعا • ويبدو أن هذا كان نتيجة امتداد الثقافة المادية في كل مكان ، ولا سيما عندما يكون هذا التمدد ثمرة التصنيع • وقد أصبحت المكانة والرتبة مرتبطتين بحيازة مهارات معينة أو بالتمتع بالحد الادنى من الثراء • ولم تعد نصب المكانة والطبقية ، هي عين ما كانت عليه في الماضي • فقد برزت الى السطح جماعات من التجار ، الذين أضحوا ذوى أثر كبير في مجتمعهم عن طريق ما يستطيعون التصرف به ، بحيث لم تعد ثمة من حاجة الى البحث عن أصولهم لادراجهم في قائمة أفراد الطبقة العالية • وقد خلق النظام التعليمي الذي جاء مع التمدد في الثقافة مجموعات من الافراد لم يكن في وسع الحكم الاستعماري الاستغناء عنهم وقد اعتبروا في الفترة التي عقبت الاستقلال • على صلة بالمصادر الجديدة للسلطان • وهناك ثغرة واسعة بين هذه الجماعات وبين الجماهير الشعبية التي ما زالت تعمل في الزراعة أو في مهن لا تحتاج الى الخبرات الفنية أو التي تحتاج الى شبه خبرة فنية ، ويزيد من اتساعها التسيبي الافتقار الى

طبقة وسطى تصل بينهما • وقد باتت نتيجة هذه التطورات جماعات لا عد لها ولا حصر من الافراد الذين كانوا يعتبرون وفق التقاليد السابقة من أبناء الطبقة العمالية ، غريبة على هذه الطبقة • ولا مكان لها فيها ولكن المقاييس التقليدية لم تعد والحالة هذه ميتة لا وجود لها ، بل غدت حية وحديثة أيضا ، لأن تسعين فى المائة من افريقيا ، ما زالت تعيش على تقاليدها • ولا ريب فى أن هذا يعتبر مقياسا للفرق بين المدن والقرى • فالصفوة الجديدة من النـــاس تحتشد فى المدن ، بينما تواصل الصفوة القديمة العيش فيما يمكن اعتباره فى المعايير القومية نوعا من التجديد المؤجل فى القرى • ومن الحتمى أن تزداد الفروق بين المدن والقرى فى المراحل المبكرة من التصنيع • اذ أن العملية الصناعية يجب أن تكون فى هذه المراحل ، انتقائية متزمتة ، ولذا تبدو عيوب التكوين الاجتماعى واضحة كل الوضوح فى المدن • ويتم فى هذه الفترة تصريف عدد كبير من أبناء القرى ، لينتقلوا كعمال مهاجرين الى المدن • وما لم يجر تطوير المواصلات على شكل تعبيد طرق جيدة تربـــط القرى بالمدن ، بسرعة بالغة ، فان القرى نفسهـــا ستصاب بالهزال والحرمان حتى من ذلك الانتعـــاش النسبى الذى ينشأ من حركة المرور الدائمة فى المواصلات الشريانية للبلاد ومن المحتمل حقا على أى حال أن يؤدى النظام التقليدى لتصنيف الناس فى طبقـــات الى حد ما الى التلطيف من حدة الفروق والثغرات الطبقية أو الى تعديلها أو ايمانهـا ، وذلك بالنسبة الى الفرص الجديدة التى أتاحتها الظروف المتبدلة • لكن هـــذا يعتمد على التعليم الثقافى أكثر من الاعتماد على أى شىء آخر • ففى وسع المرء على أى حال أن يقول ان الانظمة الطبقية التقليدية فى افريقيا ، لم تترك أثرا مدمرا على العـــلاقات الاجتماعية كالاثر الذى خلفته فى الغرب والشرق معا وسأتولى شرح هذه القضية بالتفصيل فى الفصل التالى • ولذا اكتفى الآن بالقول بأن فى وسع الانســان أن يتجنب عن طريق التبصر فى الجمع بين الاضداد ، بعض الوغول فى الشهوات والتطرفات التى غدت مترابطة مع التمدد غير المنتظم فى الثقافة المادية فى أوروبا ، وليس للصراع الطبقى فى مثل هذه الاوضاع أى معنى على صعيد الثقافة الافريقية • ولم تتوافر حتى الآن الاوضاع التى يمكن اعتبارها معطيات تؤدى الى خلق هـــذا الصراع •

وقد يقال أن توسع الثقافة المادية قد ساعد على الحركة الاجتماعية وعلى السهولة النسبية فى التنقل من طبقة الى أخرى • وهناك منطق أيضا فى القول بأن النظام التقليدى فى التصنيف الطبقى يسمـــح بالتحـــرك الاجتماعى • • واذا كانت الطبقـــات ترتبط بالسلطات والزعامات التى تقررها ، فان النظام التقليدى الذى يقرر هذه الطبقات يصبح عرضـــة

للتحرك الاجتماعى . ولعل من الاصح أن يقال على أى حال أنه على صعيد النظام التقليدى ، كانت الطبقات تعنى من ناحية التصنيف ، أوصافا معنية ولا تنطوى على أية معان خاصة من ناحية العمل والسلطان والسلطة . وفى هذه الحالة ، لم يكن النظام يسمح بأى تحرك أو انتقال من طبقة الى أخرى . فالانسان يولد منتميا الى طبقة معينة ثم ينشأ فيها ويموت فيها أيضا . وتبدو أوروبا وكأنها تسير فى هذا الطريق اليوم . فالانتماء الى الطبقة النبيلة فى أوربا لا يبدواليوم وكأنه يعنى أى معنى خاص من ناحية العمل أو السلطان أو السلطة . ولقد كان النظام الافريقى التقليدى يسمح حتى بانتقال العبيد الى مرتبة الزعامة ، وذلك بالنسبة الى مدى ارتباط العمل والسلطان والسلطة بالاختصاصات . أما حيث ينعدم الاختصاص فان طبقة المرء تضمن له التقدم والاسبقية ولا سيما فى الاحتفالات والمهرجانات والقضايا المماثلة . أما حيث توجد الاختصاصات كالفراهة السياسية والحكمة ، فليس ثمة أية أسبقية مرتبطة بحق الابن البكر فى الوراثة عن أبيه . وكان فى وسع أى عبد يقيم الدليل على واسع حكمته وغزير معرفته فى سياسة شئون مجتمعه ، أن يحتل مركز الزعامة والسلطان دون الحاجة الى أية ثورة أو انقلاب .

وتلقى نظام الاسرة أيضا هزات قاسية كذلك ، ولم تعد هناك فى كثير من الحالات تلك الوشائج العائلية الوثيقة التى كانت قائمة فى الماضى . وقد ضيقت المسئوليات الآن استجابة للضغوط الاقتصادية . ولاريب فى أن النظام التقليدى للقيمة يرفض مثل هذا الطراز من الاستجابة . وعندما يسأل انسان ضمن اطار القيم التقليدية عما اذا كان جشعه للمال قد بلغ حدا يغدو فيه على استعداد لرؤية أقاربه يموتون جوعا يقع المسئول تحت الانطباع بأن هذا السؤال الذى وجه اليه لا يعدو أن يكون قضية بيانية مجردة . لكن المستوى الجديد للحياة النابع من الزيادة فى الاستهلاك الناتج عن التمدد فى الثقافة المادية لا يسمح بأن تنقلب كل وجبة طعام الى وليمة تطعم فيها أفواه لا عد لها ولا حصر . وهكذا تعرضت قيمة ثمينة من القيم لخطر التهلكة والزوال . وأصبح معرضا الى التفتيت والتذرير ، بالنسبة الى ما لحق بالالتزامات المترابطة مع هذه القيمة . وأخذت الاسرة تنحدر باستمرار الى الحيز الضيق الذى يشمل ربها وزوجته وأطفاله ليس الا .

ولحق الضعف ايضا بنظام الزعامة القبلية . فلقد حلت الدولة محل القبيلة فى أفريقيا كوحدة اجتماعية . وباتت أراضى أية دولة أوسع بكثير من أراضى أية قبيلة من القبائل . ولا ريب فى أن هذا التبدل يؤدى بالطبع الى التأثير على نظام المشيخة القبلية . ولم يعد شيوخ المشايخ ، زعماء مستقلين ذوى سيادة ، اذ أنهم يجدون أنفسهم مرغمين على الترابط ضمن

اطار المجالس الاقليمة مع غيرهم من جيرانهم الشيوخ . ولا ريب فى أن هذا الترابط ، هو في حد ذاته احساس بالوحدة القوميه . ويسيرمعه جنبا الى جنب ، وعلى الصعيد المعادى انتقال مستمر من ولاء المواطنين من سلطان الى اخر بين الشيوخ . وكانت الحركات العمالية وحدها هى التى اضعفت وبصورة فعالة ، السلطان الذى كان الشيخ التقليدى يتمتع به على أبناء قبيلته . وأدى توقفه عن أن يكون صاحب السيادة، وعن أن يكون صاحب الحول والطول ومصدر القرارات السياسية على أى حال ، الى توقف أفراد شعبه بسرعة عن التطلع اليه طلبا للتوجيه والارشاد وتحول الى شخصية اجتماعية أكثر منه شخصية سياسية ، ولم تعد حتى لمظاهر النبالة التى كانت تمت اليه فى الماضى أى وجود فى هذا الوضع الخفيض الذى آل اليه . ولم تعد للشيخ فى هذه الايام حتى مكانة المواطن الممتاز وعندما يطل فجر التصنيع اطلالة شاملة على أفريقيا ، لن يبقى فى وسع أية قبيلة ، أو لن يسمح لها أيضا بتأمين العدد الضخم من العمال الذى تتطلبه عمليات التصنيع . فمن الضرورى القضاء على جزء من السلطات التقليدية التى يتمتع بها الشيوخ من ذوى ما يشبه السيادة ، وذلك لتحرير العدد اللازم من العمال لمشاريع التصنيع الضخمة ويسود الميل فى الجماعات الضخمة من الناس الى اضعاف أساس التجمعات القبلية والشيوخ ، أما فى الجماعات الاصغر ، فان الميل يتجه الى تحويل هذه الجماعات الى تجمعات أصغر وأقل تأثيرا على شكل نواد وغيرها من الجمعيات . ولما كان قسط كبير من الثقافة فى افريقيا فى الوقت نفسه مترابطا مع التجمعات القبلية ، فان الثقافة سرعان ما تجد نفسها مضطرة الى التمسك بقانون البقاء ، والى ابتكار أنظمة جديدة تضم بعض النواحى الاكثر قدما . والتي تتضمنها الثقافة في طياتها ولا ريب فى أن هذا الوضع هو اختبار للقيم نفسها .

وما زال وجه القيم للثقافة قادرا كل القدرة على فرض عقوبات ومحظورات على الوجهين المادى والتنظيمى للثقافة . ولقد أوضح تمام الايضاح أن لكل مرحلة من مراحل حياة الانسان ، صورتها الخاصة بها، وأن هذه الصورة تحدد ما يجب أن يكون عليه الانسان ، كما تحدد ما يصلح له . وعندما تكون الفكرة عن الانسان الذى نجرى اختبارنا عليه ، هى أن الانسان حيوان اقتصادى لا تعود هناك حاجة أو مبرر ، فى الهبوط بالمصالح الانسانية الاخرى الى مرتبة المصلحة الاقتصادية . ولكن مع هذا ، تظل الرغبة فى التطور ، وفى ارضاء المصلحة الاقتصادية جزءا من وجه القيمة لثقافة الشعب الذى ينتمى اليه هذا الانسان . أما عندما لا ينظر الى الانسان كحيوان اقتصادى قبل كل شىء ، فان هذه الرغبة تصبح جزءا لا يتجزأ من وجه القيمة للثقافة . والمذهب الشائع

فى الغرب اليوم وفى أجزاء كبيرة من الشرق أيضا ، هو أن الانســـان حيوان اقتصادى ، ولكن الغرب والشرق، يقفانموقف التناقضفى أنظمتهما المتنافسة لفلسفة هذا المذهب الاقتصادى الذى يقيم الثقـافة على ضوء ما يفترض أن هذا التعريف ينادى به ويشجعه • وتثمر المشـاهدات العقلية فى الغرب نظريات رأسمالية بينما تثمر فى الشرق نظريات ماركسية • ويقف كل طرف على استعداد للدفاع عن مطابقة مشـــاهدته العقلية للحقيقة ، وعن مذهبه الاقتصـــادى الخاص به ، وعن رأيه فى طريقة تطبيقه بصورة خاصة •

وفى الامكان العثور على هذا الترابط بين الوجوه الثـلاثة للثقافة فى كل مكان • وفى وسع المرء أن يشرح هذا الترابط على النحو التالى : عندما تســتعير احدى الثقـافات بعض ،ساليبهـا فى التطبيق الصـناعى وتنظيماتها من ثقافة أخرى • فان فى وسع المرء أن يتوقع ، أنه بالنسبة الى أهمية هذه الاستعارات والاقتباسات فى قالبهـــا الجديد ، فان فى الامكان السيطرة عليها ومزجها بعناصر ثقافية أخرى • حتى ولو كانت هذه العناصر تحمل شكل الاسرار التى يباح بها على موائد الشاى • وقد يحدث حتما أن تكون هذه السلع المستعارة محاطة فى أماكنها الاصلية بمثل ومواقف ووشائج وأعراف انسانية ، تتمثل فى تصـــاميم العمارة والبناء ، والتعويضات وطرز السيطرة على العمـــال وأســـاليب هذه السيطرة • والعلاقات بين أصحاب الاعمال ومديريها وبين المستخدمين ، ومواقف العمال من العمل ، وأن تتكرر كل هذه فى الوضع الجديد : وحتى لو صح هذا تماما ، فان المستعمرين يحسون أيضا بالألم الجدى من رؤية أنظمتهم وطرائقهم قد زالت لتحل محلها هذه الانظمة والطرائق الجديدة • وقد يعزى هذا أحيانا الى الرأى الخـــاطىء رغم طبيعته بأن الانظمة الجديدة لا تستطيع أن تحقق نفس الاهداف التى كتب عنهـــا الكثير ، أو لان مستعيريها لاتحفزهم اليها نفس الدوافع والمثل العقائدية • ولكن على الرغم مما فى هذا الرأى من خطل وخطأ أحيانا ، فان الفرصة فى الصحة متـــاحة له من الحقيقة المجردة ، وهى أنه رأى طبيعى • ولا ريب فى أن بروز هذا الاحتمـــال ، هو ثمرة للتأثير التفجرى الهدام الذى تتركه الثقافة المادية على وجه القيم فى الثقافة وقد يؤدى أيضـــا احتمال تشبع بعض النظم والطرائق المعنية بالعناصر الثقافية التى تمت الى الشعب الذى أستعيرت منه واقتبست ، الى تعذر تأثيرها تأثيرا كافيا فى عملية نقل بسيطة مجردة ، لزرع هذه النظم والطرائق المقتبسة من أرض أخرى ، وقد يصبح من الضرورى فى بعض الحالات ، القيام بعملية على شكل تطعيم كامل وتعتمد السهولة التى تتم فيها عملية التطعيم فى ثقافة

جديدة على مدى غرابة الثقافة هذه عن الثقافة التي تقل الطعم منها وذلك على صعيد نواحي القيم فيها .

واجد نفسي قادرا بعد رسم هذه الصورة السريعة للقوى الاندماجية الموجودة في الشعب ، على العودة الى الشعلين المختلفين في النظرة الى الانسان فعلى الرغم من وجود معبرين من أمثال سارتر في الغرب فان النظرة السائدة فيه ، والتي تلقى قبولا اكبر اليوم ، هي النظرة العلميه وهي التي تقضي بأن كل ما يعمله الانسان من الناحية النظرية لا يمكن أن يثير الدهشه أو الاستغراب ، اذ أن في الامكان توقعه على اسس علميه صحيحة ، وتظهر هذه النظرة بوضوح في معالجة بعض الافكار ، كالفكرة القائلة بأن الديموقراطية ظاهرة اجتماعية مجردة ، وهي الفكرة التي عالجها كتاب حديث عنوانه « الرجل السياسي » لمؤلفه مارتن ليبسيت . وقد سبق لي أن أشرت في هذا الكتاب الى أن التحليل العلمي للانسان يعرض صورا مختلفة وبديلة للتركيب الانساني ، تتعرض فيه كل صورة من هذه الصور لسيطرة مصلحة متسلطة معينة . والشيء الوحيد الذي لا يستطيع التحليل العلمي أن يجاريه ، هو الطاقة الظاهرة التي يملكها الخيار أو القرار على الرغبات الكامنة ، وتسير كل صورة من صور التركيب جنبا الى جنب مع ثقافة تناسبها وتعتبر جزءا متمما لها . فالتركيب القائم على أساس الافتراض بأن الانسان حيوان اقتصادي ، يسير جنبا الى جنب مع الثقافة التي تملك نزعات ملحوظة نحو الاستهلاك ونحو النظرة المادية الى الامور. ولعل هذه الحقيقة تضع الشرق والغرب في صف واحد ، على الرغم من الهمهمات الضعيفة أو المحمومة التي تصدر عن الغرب في غالب الاحايين عن وجود الله والروح ، دون ان تحمل هذه الهمهمات الا نادرا طابع الجد في القول . ولقد قيل ان الغرب يقضي أوقاته في حمى التحليل المجنونة ، دون أن يقطع شوطا بعيدا في اعادة تركيب العناصر التي يتألف منها الانسان . واذا ما قورن هذا التركيب المقبول كلية للانسان بالدولة الفردوسية التي صورت بريطانيا العهد الفيكتوري فيها ، فان الاعمال الراهنة التي يغرق الرجل الاقتصادي نفسه فيها تعكس تصميما على التمتع بالطيبات الموجودة في هذا العالم . مع انتظار ما تأتي به الآخرة من طيبات أخرى ، ويختلف الشرق عن الغرب تمام الاختلاف في نظرته الى الفردوس . وقد تكون صورة هذا الفردوس متشابهة عند الفريقين ، لكن الخلاف يتمثل في أن الشرق يرى أنه يقيم الآن صورة طبق الاصل عن هذا الفردوس . في بلاده لارضاء شعوبه .

ولكن ترى ماذا يتحتم على افريقيا التي لا تنتمي الى الغرب ولا الى الشرق أن تفعل ؟ فقد يكون من الجنون المطبق على أقل تقدير ، ومن

التراخي الى حد كبير أن تكتفي بتقليد الشرق أو الغرب تقليدا أعمى ، وأن تغدو مجرد نقطة على البوصلة تتجه الى الشمس في عبادتها واتباع سيرها ، في طرق ودروب ، لا تدع الثقافات الافريقية على حالها ، ودون أن تهتم بما هو غالب على هاتين الثقافتين الاجنبيتين من صور ، أو دون أن تكلف نفسها عناء تفهم ما في هاتين الثقافتين من حيل وخفايا ومن أسس عقلية أيضا . ولا يؤدى هذا الوضع الا الى حالات من التقيؤ العنيف والمتقطع ، كما حدث في سنغافورة تماما حيث غدت الحكومة فريسة سهلة المنال لمخالب الحملات الصليبية الخلقية الرجعية والداعية الى التزمت في التطهر (البيورتيانية) . وهنا تمثل معضلة من معضلات السياسة .

فلقد جرت فترة ضياع الاستقلال في افريقيا المستقلة حديثا في ذيلها اجراءات معينة لاعادة تثقيف الشعوب الافريقية . كان من حسن طالع هذه الشعوب أنها لم تكمل ولم تستوف أغراضها . وكانت هذه الفترة نفسها عهد تجمد في الاثر والفعالية للثقافات الافريقية . بل عهد تفتيت ثقافي ، وانعدام في الهدف لان المصادر الجديدة المرئية للسلطات، ومنابع البت والقرار ، باتت مبتوتة الصلة بالثقافات المحلية . وقد عنى هذا الوضع في المناطق التي لم تكن فيها القوى الجديدة قريبة من الثقافات المحلية ، شيئا من العداء الخفي لها ، وباتت الهوة بين حياة المدن وحياة الارياف كبيرة كاملة ، وكان وجود هذه الهوة عاملا كافيا في منع عملية اعادة التثقيف من الانتشار والتوسع . ولكن يجب أن نضيف الى هذا حقيقة أخرى ، وهي أن عملية اعادة التثقيف لم تكن تهدف الى خير افريقيا . وانما كانت موجهة لتحقيق أهداف أوروبا وحاجاتها . فالمثقفون الافريقيون الذين نجحوا في حياتهم نجاحا شخصيا ، كانوا موجهين توجيها كاملا الى الحد الذى ربطوا فيه أنفسهم بالثقافة الجديدة والغريبة عنهم . وكثيرا ما يعثر المرء على جمعيات نسوية أشبه ما تكون بأعشاش الغربان تحظر لوائحها الداخلية وأنظمتها على السيدات الافريقيات التحدث بلغاتهن الافريقية وارتداء الملابس الافريقية التقليدية . وكانت النظرة الى الخلاص والى الرقى تتمثل في جهد دائب وان لم يكتمل لنشر العادات والازياء الاوربية بين الافريقيين ، وكان هذا كله ثمره القرب من الثقافة الاوروبية الجديدة . وكان هذا أقل غرابة على أى حال وأقل ضررا وأذى ، في أماكن كشمال نيجيريا حيث عملت العقائد الاسلامية العميقة على الابقاء على الظواهر الارستقراطية المتميزة . وهو

موقف فهمه المستعمرون البريطانيون فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر . واستساغوا وجوده (١)

ومن الاهمية بمكان كبير هنا أن تؤكد الطبيعة التقليدية لافريقيا . ومن واجبنا أن نحسب أن تسعين فى المائة من افريقيا المستقلة . تعيش على تقاليدها ولم تشترك هذه الاغلبية الكبيرة فى فترة ضياع الاستقلال ، فى ثقافة تحمل مكانة ايجابية بنســاءة فى تخطيط السياسات أو فى تطبيقها . ولهذا فقد عجزت هذه الاغلبية الكبيرة عن الشعور بأنها مشتركة فيما يدور حولها من أحداث . ولهذا فعندما تحولت الزعامة الى الافارقة كان من السهل على ما يحسون به من مشاعر عميقة من الضياع ومن خيبة الامل ، أن تطفو على السطح ، وأن تظهر بارزة للعيان . وبات من الطبيعى أن تتوالى الاسئلة عن هذا الرجل الابيض الذى «يرشدنا عما يجب أن نفعله، وما يجب ألا نفعله ، ومن أن نخدمه أو لا نخدمه ، وعمـــا هو خير لنا أو شر لنا » ترى هل هذا الابيض واحد منا ؟ وقد جاء هذا الطراز من التساؤله فى فترات من القلق الاجتمــاعى والســياسى المنقطع ، حتى فى وقت مبكر . أى منذ مستهل القرن التاسع عشر ولقـــد طغى الشعور القومى على أفريقيـــا فى الوقت الذى عمت فيه المشـــاعر القومية أوروبا . لم تكن الحركة القومية فى افريقيا ، كما يتوهم الكثيرون من الاوروبيين حتى الآن ، هبة مســـتحدثة من الهبـــات التى أنعم القرن العشرون عليها بها . ولا ريب فى أن هـــذا الطراز من التفكير أو من الوهم . ليس الا نتيجة الفشل فى ادراك حقيقة ما حدث ، أو فى تمييز الانسان لمن وجه الضربة اليه . فقد نقبل القـــول بأن المرء قد لا يرى الضربة توجه اليه . أما الفشل فى تمييز موجهها ، حتى بعد أن يتلقى الانسان الضربة نفسها ، فأمر يفضح وجود نقص فى التقدير الصحيح عند المضروب . وظهرت استعادة الاســـــتقلال السياسى بسرعة كشرط أساسى من شروط اعادة توطيد اقدام الثقـافة الواضحة فى مفاهيمها ، والتى نشأ الافارقة على تعلمها ورؤيتها مطبقة . وما الثقـافة الا أداة ذلك الانـدماج المشطور الذى يعتبر أساسا فى التدرج القومى ، وكانت الظاهرة الطبيعية الكبرى التى طبعت القرن العشرين بطابعهـــا فى آفريقيا هى ظهور عدد كبير من الاحزاب السياسية العظيمة حقا . ولعل ظهور حزب مؤتمر الشعب وهو الحزب الحـاكم فى غانا ، وهو أول تعبير قوى صـادق

---

(١) أعتقد ان الحقيقة قد جانبت المؤلف تماما هنا لكل متعمق في دراسة الاسلام يدرك بعين الادراك انه دين ديموقراطى . لا ارستقراطى كما يقول المؤلف فلا فضل لانسان على آخر الا بالتقوى ، ولا سلطان لأحد وانما الامر شورى . واذا كانت بعض مظاهر الطبقية قد دخلت ، فانما كان دخولها ثمرة العادات والتقاليد ولاشأن لاصول الاسـلام بها . ـ المعرب ـ

من اعتبار الحفاظ على الاستقلال السياسى شرطا أساسيا لا غنى عنه لاكتشاف الوجود نفسه ، وبلورة ثقافة الشعب الذاتية لتتلاءم مع عمليات التحول القومى . ويكون التشابه فى الانماط الثقافية ، العروة الوثقى التى توحد الشعب ، حتى عندما يسير التآخى السياسى على خطوط من الاصول العريقة البشرية ، أو الاصول شبه العريقة فعندما تتوحد الجماعات المتشابهة عرقيا ، أو المتقاربة أصلا . فى تنظيم سياسى مشترك ، يصبح تشابه الاهداف قوة تدعو الى التماسك ، وان لم يصبح قوة حاسمة تمام الحسم . وكثيرا ما يسمع المرء بين الفينة والفينة أن الكفاح ضد السيطرة الاجنبية هو وحده الذى يوحد بين الحركات الوطنية والقومية فى افريقيا . وان هذه الوحدة تبعا لذلك ، موقوتة محدودة . ويؤدى هذا القول بتفرد الدور الذى يؤديه الكفاح ضد الحكم الاجنبى ، بالمرء الى توقع نشوب المنازعات بين الاحزاب السياسية الافريقية حالما يتحقق الاستقلال . ولكن هذا التوقع ، لم يقع فعلا وبصورة عامة فلم تتحطم الوحدة فى الاحزاب الوطنية الصادقة فى أفريقيا . ولم تتهشم كما لم تتحطم فى الهند بعد حصولها على الاستقلال وعلى المرء أن يستدير باهتمامه الى العناصر المجزأة التى تقوم فى الثقافات المتلاصقة فى وجودها . ففى الكونغو مثلا ، حيث يملك أفراد قبيلة البالوبا فلسفة واضحة جلية ، قادرة على أن تحفظ ثقافتهم قوية متماسكة فى وجه الجماعات التى تحيط بهم؛أدت هذه القبيلة دورا يعتبر على الرغم من انفصاليته بالنسبة الى الكونغو ، وحدويا بالنسبة الى القبيلة نفسها . وهناك رباط واضح بين المناطق ذات الثقافات الاقليمية وبين الحكومات المحلية أو الاقليمية .

وأود هنا أن أصور الثقافة على أنها البنيان الساحر الآخذ بمجامع القلوب الذى يروج للاهداف السياسية ؛ وانى لأشك فى أن هذه الصورة كانت من اكتشافات حزب المحافظين فى بريطانيا ، ومن المحتمل أن تكون الاداة الرئيسية التى استخدمها هذا الحزب فى كبح جماح حزب العمال ومنعه من الانتشار . ويملك حزب العمال هذا على صعيد النسبة العددية للسكان فى بريطانيا اليوم ؛ أكبر التأييد عند جماهير الشعب ، ويبدو ان شطرا كبيرا من هذا التأييد يصطدم بهذه الصورة نفسها بينما يتولى المحافظون مقود الحكم والسلطان ، ويستخدمونه كمصدر من مصادر زحفهم الاقتصادى . اذ فى وسع كل انسان أن يحدد سلفا المكان الذى تقف الى جانبه عواطف حزب العمال المعارض فى أى نزاع صناعى فى البلاد . ويجد حزب العمال نفسه مصورا على شكل عقائدية جماعية ، ترسمها الحملات الضخمة على الثقافة المادية التى تشنها الصحافة والتلفزة والوكالات الاعلانية بشىء من الحرية والانطلاق على الحزب بتشجيع

من المحافظين • وفي وسع حوافز عناية حزب العمال بالثقافة اليوم ، أن نحون محاولة اضفاء توجيه أو لون جديد على الاغراق الراهن فى الثقافة الجماهيرية ، بحيث لا ينظر الى منجزات الثقافة على أنها مجرد الاقتراع لايصال حزب المحافظين الى الحكم ومحاولة استخلاص الثمار من حكومته •

ولما كانت غالبية السكان فى بلادنا الأفريقية لا تزال تقليدية فى أوضاعها وحياتها فان ساستنا ورجال دولتنا يجدون أمامهم سبيلا واضحا للخيار بين طريقين • اما أن يظلوا غرباء عن شعوبهم تماما كما كانت الحكومة الاستعمارية السابقة غريبة عن هذه الشعوب ، وأن يكملوا عملية اعادة التثقيف التى شرع الاستعمار فيها ، وأن يستعيضوا عن الثقافات الافريقية التقليدية بثقافة فعالة جديدة لا تملك لها جذورا فى قارتنا ، أو أن يعرضوا المشاكل ، ويحددوا المثل والأهداف القومية تحديدا مفهوما على ضوء الثقافات الافريقية ومعاييرها • وهى الثقافات التى كانت ولاتزال سائدة بصورة فعالة وقوية •

وتكون البلاد المستقلة حديثا من الناحية الثقافية • مترعة بالغايات المهشمة وفى أمس الحاجة الى رتق الخيوط الثقافية المقطعة • وقد تكون المشاكل الكامنة فى عملية رتق هذه الخيوط واحدة بالنسبة الى جميع الدول التى استقلت حديثا • ولكن تحديد العملية تحديدا خاصا بالنسبة الى كل بلد من هذه البلاد يجب أن يتجاوب مع الميول والنزعات الثقافية • ومن الواجب وفاء بأغراض الحماسة فى عمليات اعادة البناء النابعة عن التصميم والارادة تعميق بعض الصور الثقافية المعنية ونشرها وستعتمد أساليب التعليم الثقافى نفسه ، بما فى ضمنها طريقة المناقشة الحرة ، وعلى المستوى والمدى اللذين يصل اليهما وعى هذه الثقافة التى استلت من غمدها لتنتشر وتعم •

وقد أقر ساسة أفريقيا ورجال الحكم فيها ، فى خطبهم العلنية وتصريحاتهم بالصلة القائمة بين الثقافات الأفريقية وعمليات اعادة البناء • وهم يبدون فى انصرافهم الى ابراز الشخصية الأفريقية وكأنهم يعتنقون الرأى القائل بأن المبادىء الموجهة لمستقبل أفريقيا ستكون تلك التى أثبتت تجارب أفريقيا وثقافتها صحتها • وهم ينظرون الى التقدم وأهدافه والى بعض طرائقه وسيلة أيضا ، على صعيد الصورة التى يرسمونها للشخصية الأفريقية ، ومن هنا يتضح أن ثقافات الشعوب الأفريقية نفسها ، هى التى ستقرر أيا من أوجه الحضارتين الغربية والشرق أوسطية ، هى التى سيحافظ عليها ، وأيا منها سيتعرض للتعديل والتبلور ، وأيا منها سيهمل ويطرح جانبا • ولا تكون هذه المجالات الاختيارية عرضية الطابع أو مفتقرة الى المبرر والمسبب ، بل انها تكون حتما وبوضوح مرتكزة ارتكازا صريحا الى تلك التبلورات الصامتة التى تقوم شرايين وجودها فى

راث الشعب نفسه . ويتطلب الاعتراف بصحة الشخصية الأفريقية تلك المجموعة المركبه من الأفكار والمواقف التي تملك خاصية التشابه والبروز حتى في الثقافات الأفريقيه المختلفة في كل ما عداها من أوجه ، العثور فورا على الجسم الصالح من هذه الأفكار والمواقف المتشابهة والبارزة لايواء ما نقترحه من هذه الحضارات الغربية عنا ، وأن نجد عن طريق التشخيص والمواجهة بوضوح ما بعده وضـــوح ، ما نحن في حاجة الى اقتراضه واقتباسه وامكان دمج ما نقتبسه في ثقافتنا وكذلك أن نعثر حقا على ما قد لا يضيرنا لو نبذناه من أجزاء ثقافاتنا الخاصة .

ولا يرغب المرء في الوقت نفسه ، أن تكون ثقافات افريقية التقليديه متزمتة وضيقة في آفاقها بحيث تفرض القيود على مستقبلنا . ولعل ابر ما يضفي الأهمية على ثقافاتنا التقليدية هي الحقيقة الواقعـــة . وهي ان ثقافاتنا عصرية الطابع أيضا . ولكن الى جانب هذه الثقافات تقوم الان بعض العناصر الغربية الثقافية التي هضمناها . وبعض العناصر التي لـ نهضمها ، وكذلك بعض العناصر الثقافية الشرق أوسطية ، المترابطة مع الدين الاسلامي، الذى وجد في القارة الأفريقية أرضا خصبة كل الخصوبة . والنقطة المهمة في الثقافة ، التي جعلتها محور حديثي حتى الآن هو أنها منبع التضلعن ، ومصدر التوحيد بين المذاهب الميكانيكية المعقدة ، وبين الرموز والشعارات وعقائد التكامل الاجتماعى ، والمله المشترك لشيء واحد، أو بكلمة أخرى ، هي الوجود الحي للأمة نفسها . وتتطلب عمليات البناء القومي ألا تقف مشاعر الولاء الشـــديدة الضـــيق ، كالولاءات القبلية مثلا ، موقفا عدائيا شديدا من هذه العمليات والعناصر الثقافية التي سبق لي ذكرها قائمة في جميع البلاد الأفريقية ، ويجب أن يحسب حسابهـــا في أية عملية تركيب جديدة . واذا كان الله هو الذى خلق الانسان فانه لم يخلق معه وفي نفس الوقت الثقافة الخاصة به . فالثقافة ليست خاصة عضوية حياتية تولد مع الانسان . وانما هي من خلق الانسان نفسه . وتعتمد محتوياتها على جميع الصعدان وفي جميع الأوقات على الميول العقليه وغيرها من الأوضاع السائدة .

وقد جرت المحاولات منذ أمد ما لتصوير افريقيا على أنها أرض خام، أو لوحة بيضاء صالحة لانطباع أية ثقافات عليهـــا . ويقال ان جميع الشعوب السوداء ، مدينة بتنظيماتها الادارية وأديانها والكثير من ثقافتها المادية الى مصادر لا زنجية ، وغالبا ما تكون مصادر مصرية قديمة ، وقد بدأ بعض علماء الأجناس البشرية دراساتهم من هذه الفرضية على اعتبار انها مقدمة في الوقت الذى يجب أن تعتبر نتيجة لا مقدمة ، ولهـــذا فقد وجدوا كل ما يبرر لهم انهماكهم في دراسة التاريخ الافريقي . ويبدو أن هذا الانهماك يرتكز على رأيين يحملهما بعضهم . وأول هذين الرأيين

انه في الوقت الذي قامت فيه القارات الأخرى بصناعة التاريخ وبلورته ، كانت افريقيا لا تزال مغلقة في شكل من أشكال الحماة التي لا تاريخ لها ، وانها لم تدخل التاريخ الا منذ عهد قريب . ولقد أقحم عليها تاريخها اقحاما ، أما الرأى الثانى فهو ان افريقيا الأصلية ، افريقيا التى يعيش فيها رجل الغاب ، قريبة للغاية من الطبيعة المجردة حتى ان الانسان يرى فى افريقية الانسانية فى طفولتها ، ويطلق علماء الأجناس البشرية الآن على هـذا النظام الذى يضعـونه اسم العـلم ، مع أن فرص التجـربة غير متوافرة لهم مطلقـا . أما اذا افترض المرء أن ثمة تاريخا مشتركا للآراء التى يعيش فيها بنى الانسان قاطبة فانه فى وضعه القارة الافريقية أمام الشعوب الأخرى التى ارتقت عاليا شجرة تاريخ الفكر والآراء،يجدبديلا مقبـولا عن التجـربة ، أو نوعا من السمن النبـاتى « المرجرين » بدلا من الزبدة . وقد لا تكون ثمة ضرورة للقول بأن علماء الأجناس الاكثر دقة وتمحيصا لا يرضون بهذا الوضع ولا يسهمون فيه ويعتبر علم الأجناس مهما للغاية عند الشعوب التى لا تملك تراثا من التاريخ المكتوب ، الا أنه يعيد بناء تاريخ ما قبل الـكتابة ويكشف عن خباياه . أما ما يقوم به علم الأجناس الاجتماعى فهو أن يحلل الثقافة ويضع عناصرها الى جانب بعضها بطريقة تبدو فيها العناصر المهمة ، على درجة من الأهمية حقا . ويستطيع هذا الطراز من العناية والاهتمام أن يوضح التبدلات الداخلية التى تطرأ على المجتمع ، ولكنه لا يستطيع أن يضمن نتيجة تاريخية بالنسبة الى أصـول الثقافة المعنية نفسها . فالنتائج التـاريخية بحاجة الى الأدلة التاريخية لاثباتها واقامة الدليل عليها .

واذا ما ضرب المرء مثلا بمؤلف السيدة مايروفيتش عن قبائل الآكان فى غانا يتضح له على الفور ، انها لم تجد ضرورة للاتيان بأية أدلة تاريخية واضحة ، وحتى لو اعتبر المرء مؤلفها ضربا من ضروب التاريخ الخيـالى التكهنى ، فان شعوره بالسخط على هذا المؤلف يستمر ويبقى .

فلقد قارنت المؤلفة بين أفكار الآكان عن حق الملوك الالهى وأنظمتهم الدينية والسياسية والاجتماعية التى يربطونها بتلك الافكار وبين النواحى المماثلة لها فى عهود مصر القديمة المختلفة ، وتذرعت بهذه المقارنة ، ثم مضت تقول أن الآكانيين يرجعون بأفكارهم وأنظمتهم ، وحتى تنظيماتهم السياسية والكثير من ثقافتهم المادية الى المصريين القدماء . وقد تكون هذه النسبة مؤثرة وطريفة ، ولكنها تفتقر الى كل ما يهم الدليـل على صحتها من البراهين التاريخية . وهى لا تحاول محاولة جدية أن تقيم الدليل بصورة خاصة على أن الآكانيين القدامى ، قد عاشوا فى يوم ما فى مصر القديمة ، أو فى مناطق عرف بصورة ثابتة ، أنها كانت فى الماضى واقعة تحت سيطرة المصريين القدامى . واذا ما أخذ المرء مؤلفها على صعيد التاريخ

الخيالي التكهني فانه يرى أن ما انطوى عليه من حديث عن الأفكار والأنظمة هو من قبيل الثمار الفكرية لا من قبيل الحدس والتخمين . ولا ريب في أن هذه الافكار كانت مهمة لقدامى المصريين بقدر أهميتها لسياسة البونوتكيميين ونظام حكمهم • وقد لا تكون من المعلومات العامة للمصريين القدامى بقدر أكثر مما كانت للآكانيين • فلقد دفنت هذه الأفكار والأنظمة فى الحقيقة فى أسرار الكتابات الهيروغليفية التى كان الكهنة يتولون حراستها والحفاظ عليها • وليس ثمة من شك فى أن أى شعب تمكن من الوصول الى هذه الأفكار المخبوءة بكل ما فيها من تفصيل ، على النحو الذى ذكرته المؤلفة ، لابد وأن يكون قد اقتبس أيضا فن الكتابة ، اذا لم يكن قد توصل اليه من قبل • ومن هنا يجوز لنا ابداء الاسف لأن المؤلفة لم تحاول أبدا ايضاح السبب فى جهل الآكانيين لنظام الكتابة وطريقتها • ويمكن مقارنة الاقتباس المزعومة هنا بما يشعر به الغربيون من دين الحضارة القديمة واضحا فى اللغات الغربية ، واقتبس الغرب أيضا الدينية والنظريات الاجتماعية والسياسية والتنظيم • ولكن فى وسع المرء أن يلاحظ بأن الغرب لم يعجز عن اقتباس كل ما يرافق تلك المفاهيم من قضايا أخرى • فلقد اقتبس طريقة الكتابة ، ويبدو الاثر اللغوى لتلك الحضارة القديمة واضحا فى اللغات الغربية ، واقتبس الغرب أيضا المفاهيم الفنية وطرق التنفيذ الفنى كما اقتبس التقويم أيضا • ويجد المرء فى افريقيا اليوم ، حيث تقل طبيعة الافتراض والاقتباس فى أوروبا عن طبيعة المقتبسات التى ذكرتها السيدة مايروفيتش ، بالنسبة الى الآكانيين والمصريين القدامى ان هذه المقتبسات وقد وقعت بما يسمى « بسلام بريطانيا » أو « بسلام غاليسيا » ، وتسير الافكار الدينية والفن جنبا الى جنب اذ يتحتم على المرء أن يصور معبد البانثيون ، وأن يضع مخططا للطقوس الدينية التى تجرى فيه • وليست هذه القضايا من النوع الذى لا صلة له بأية قضايا أخرى • ولهذا فعندما تقول المؤلفة بصدد التقويم أنها لا تضع كتابها لتتحدث عن تأثير قدامى المصريين بصورة عامة ، وعندما تقول عن الفن ، بأنها تتفق مع الرأى القائل بأن الفن الآكانى يملك صفاته الخاصة المميزة فان المرء ليشعر بأشد الدهشة من الرأى الذى سبق لها أن توصلت اليه(١) •

---

(١) لم استطع التثبت من المصادر التى رجعت اليها من الموقف الذى يجب أن نقفه من هذا النقاش بين مؤلف هذا الكتاب وبين كتاب مايروفيتش أو كتاب هومبرغر ، ولكن الشيء الواضح هو أن المؤلف يتهم المؤلفتين المذكورتين بالخروج على الحقيقة التاريخية دون أن يحاول هو بدوره اثبات اتهامه بالادلة العلمية التاريخية وبالطريقة العلمية أيضا ، وانى لاترك تقرير هـــذه الحقيقة الى علماء التاريخ ، وان كانت بعض الحقائق التاريخية تؤكد أن آثار حضارة المصريين القدامى قد انتشرت فى جميع مايحيط بها من بلاد فى الشرق والغرب والجنوب وقد ثبت أيضا بصورة تاريخية قاطعة أن القوافل=

واذا صح أن ثقافة الآكانيين مقتبسة تمام الاقتباس من ثقافة المصريين القدامى فان فى وسع المرء أن يتوقع تبعا لذلك العثور على عدد كبير من الكلمات المصرية القديمة فى لغة الآكان · وهنا نجد أن السيدة المؤلفة « قد استندت بقوة الى آل هومبرغر من أن جميع اللغات الافريقية الزنجية مستمدة بناء على عناصر مشتركة كثيرة ، من أصل مصرى قديم ، ولكن الصفات أو العناصر التى تشترك فيها اللغات الزنجية الافريقية قليلة للغاية · والحديث عن العناصر الكثيرة المشتركة بين هذه اللغات وبينها وبين اللغة المصرية القديمة أشبه مايكون بتحطيم أضعف قوانين الخيال وبنات الافكار، ولكن السيدة هومبرغر على الرغم من اعتبارها حجة عند مايروفيتش، تكتب بشكل أقل نباهة وحرصا من تلميذتها · وبينما حاولت التلميذة فى الواقع أن تضع فرضية توصلت اليها بعد الكثير من الاطناب والشرح العميقين · ونسبتها الى جميع الشعوب السوداء ، نرى أن الأخرى التى اعتبرتها حجة فى هذا الموضوع ميالة الى الخلط والمزج : فلقد تأثرت بنوع « الفولة » من الماشية المحدودبة الظهر ، وخلصت دون أى تعب أو ضجة الى القول بأنها تمت الى أصل «درافيدى» ولاحظت تكرر العقد المزمارية فى هذا الحيوان وقالت أنه لابد وان يكون قد أتى من السند فى الشمال الغربى للهند · ولم تكترث قيد أنملة بالتبدلات الصوتية التى تعتبر دائما عقدا فى كل تصنيف لغوى ·

وكان ما فعله جان ـ هانيز جاهن فى كتابه « مونتو » هو عكس ما فعلته مايروفيتش فى كتابها تماما · ولكن بينما يستطيع المرء أن يقول ان مؤلفها يفتقر الى الوعى الكامل ، فان فى وسعه أن يقول ان مؤلف هذا الكتاب لا يتجاوب مطلقا مع البحث العميق ، ولعل خير مايمكن اطلاقه عليه ، هو انه كتاب صحفى · ولعل رأيه فى الثقافة الافريقية هو مزيج من دماثة سنيغور(١) الغربية ومن أى شىء يمكن للساسة الافريقيين وغيرهم من أرباب النفوذ ، أن يؤثروا الايمان به بالنسبة الى ماضيهم ، اذ أن جاهن يقول ، ان ما يؤمنون به مؤثر وفعال ، ولذا يجب أن يكون صادقا وصحيحا ، وهو يقول هذا دون أن يحاول اقامة الدليل على صحته، مكتفيا بأن مجرد ايمانهم به يكسبه صفة الصدق ، واذا شئنا الصراحة

= كانت تنتشر من مصر باتجاه الشرق والجنوب وان هجرات واسعة قد حدثت من وادى النيل الى افريقيا الغربية وان هذه الهجرات قد حملت قبائل عربية الاصل الى تلك البقاع كما حملت الابل من الشرق الى الصحارى الافريقية ويتبين من هذا ان المؤلف كان مغاليا فى محاولته انكار كل صلة بين حضارة المصريين القدامى وبين قبائل الآكان فى غانا .
« المعرب »

(١) سنيغور هو رئيس جمهورية السنغال وهو من أرق الشعراء فى اللغة الفرنسية ويتمتع بثقافة ممتازة . ـ المعرب ـ

قلنا ان مؤلف جاهن يحمل طابع العطف والتأييد الظاهرين ، لكنه أكثر هذين المؤلفين خبثا وضررا . فهو يعرض عندما يتحدث عن الأدب الافريقي ازدراءه لواقع الثقافة الافريقية التقليدية كحقيقة تاريخية ، وهو يحشد نماذج من الشعر يجمع فيها بين الغث والسمين ، دون أن يعلق عليها ، ودون أن يقيم أى دليل على وجود الأدب الافريقي .

وأعتقد أن هناك طرازا من الثقـــافة الافريقية وأن هذا الطراز « جوهرى » في ايحائه والهامه . وتجد النظرة الجوهرية للانســـان التى تكمن وراء هذا الطراز التعبير عن نفسها فى الفن ، وفى قواعد السلوك والاخلاق ، والتقاليد الدينية والادبية ، وكذلك فى تقاليد الشـــعب الاجتماعية . والمجتمع الافريقى عقلانى من هذه الناحية، فالمبادىء الموجهة للعثور على حلول المشاكل الانسانية متوافرة دائما بكل ما فيها من وضوح وجرأة . وليس اهتمامنا بثقافاتنا بمنحصر فى النواحى التاريخية أو الأثرية . وانما هو متجه نحو الغد والمستقبل ، فهو يعيننا على حل المشكلة التى تواجهنا ، لا فى كيف كان الافريقيون ؟ بل فى كيف يمكن لنا أن نستغل مواردنا الانسانية الراهنة بأحسن السبل ؟ وهى موارد تقليدية الى حد كبير ، ويوفر هذا التوكيد لتطوير التعليم الثقـــافى الافريقى ، النتائج الطيبة لا من الناحيـة النظـرية فقط بل ومن الناحيـة العملية ايضا .

ويتطلب تطوير التعـليم الثقـافى على أى حال جهـدا هائلا وواسـع الانتشار ولا ريب فى أن هذا الجهد سـيوجه الى بلورة ثقافتنا فى شكل فصيح وبطريقة بليغة نستطيع أن نواجه فيها تحديات العالم الحديث .

وقد هبط الانجذاب الثقافى الذى حتم التركيز على ثقافتنا حتى الى مستوى مدارسنا الأولية . فالأساطير الشعبية التى كانت تتلى على مسامع أطفالنا مأخوذة من أساطير الشعوب الأخرى لا من شعوبنا ، ولا يمكننا قط أن ندعى أن مستويات السلوك المقبول والمثل الممكنة والمطامع التى تعرضها هذه الاساطير ، هو مما يخصنا وحدنا دون غيرنا .

ولقد أوضحت فى السابق أن الثقافات مرتبطة بنظرة جوهرية أو علمية للطبيعة الانســانية ، وانى لأعتقد أن ثقافتنا مرتبطة بالنظرة الجوهرية ، وسبق لى أن بينت أن الاحداث ذات الاهمية الضخمة تقع ضمن اطار ثقافة معينة وتستمد اهميتها من الثقافة التى تجد نفسها فيها ، ويبدو وجه القيمة من الثقافة وكأنه الوجه المسيطر ، اذ ان التقدم الثقافى يتطلب الانتقاء والرفض ، وهذان يعنيان الخضوع للقيم ، وعندما يقتبس شعب من شعب آخر ، تغـدو الثقافة شيئا صحيحا ثابتا ، اذ أن الانسان

كثيرا ما يقتبس بعض التوافه ، مع ما هو فى حاجة حقيقية اليه ، ولقد حاولت أيضا ان اؤكد العمل الادماجى للثقافة ولا ريب فى ان هذا الوجه من الثقافة كاف لاثارة اهتمام الافريقيين بثقافاتهم ، ولكن يجب التأكيد على أية حال . بأن هـذا الاهتمام ليس تاريخيا أو أثريا فقط ، مع أنه يتعلق بالناحيتين أيضا ، ومن الواجب توجيهه على أية حال نحو المستقبل، اذ انه يساعد فى حل المشكلة المتعلقة بخير السبل التى نتبعها للافادة من مواردنا الانسانية الراهنة ، لا المتعلقة بما كنا عليه قبل عدة قرون .

ولا ريب فى أن هذا التوكيد لا يضمن توفير النتائج الطيبة لتطوير التعليم الثقافى الافريقى من النـــاحية النظرية فحسب بل ومن الناحية العملية ايضا .

نموذج المجتمع الافريقي

« أوجه الشبه بين الثقافات ــ طراز الثقافة الافريقية ــ ناحيتها الفلسفية ــ ناحيتها الغيبية ــ نظرتها الى الانسان والمجتمع ــ نظريتها في الحكم ــ جهازها القضائي ــ تنظيمها العسكرى ــ أدبها ــ سننها الاخلاقية ــ خوارقها ــ النظم والنظريات » .

تمر الثقافات على الرغم من استمرارها على حالها ، عبر مراحل وصور متعددة ومتلاحقة . ولكل ثقافة منها نواحي أساسية عدة ، تملك كل ناحية منها الطاقة على أن تصبح متغلبة على الثقافة نفسها . ويقرر التوكيد الذى يضفى فى أى وقت من الأوقات بشدة على ناحية من نواحى هذه الثقافة ، الصورة التى تظهر فيها ، بينما تظل النواحى الاخرى فى حالة من الكبت المحث الرقيق . ولعل الطاقة عند الثقافات على البقاء على ما هى عليه رغم مرورها فى عدة مراحل أو صور ، هى التى تمكن الباحث من البحث بشكل ما فى وجود هذه الثقافة نفسها . ويكون هذا البحث صحيحا بطريقته الخاصة وان كان لا يعكس مطلقا أية مرحلة معينة من الثقافة . وتتمثل الطاقة على عرض هذه الثقافة بهذه الطريقة فى القدرة على عرض تركيبها ، وعرض المدى الذى تستطيع كل صورة من صورها أن تظهر فيها . وكثيرا ما تهمد المعارك التى تدور عن الثقافة فى الحقيقة لتتحول الى مجرد مناقشات لتأييد هذه الصورة أو تلك من صورها . وهكذا يصبح فى وسع الانسان أن يقول ان أف . أر . ليفز (F.R. Leavis) ، يود لو ساد الخط المتطهر (البيوريتانى) على الثقافة البريطانية فى هذا الوقت ليصبح بحثا من بحوثها . ولو أصبح العنصر المتطهر هو الغالب على الثقافة البريطانية . لبات فى مكنة الانسان أن يقول عنها أنها دخلت فى المرحلة المتطهرة أو أنها تحمل صورتها ووفرة الخطوط التى تحدد فى امكان تحقيق المراحل والصور ، موجودة فى كل آن وحين وهناك احتمال صريح دائم ، فى أن يتحول أى خط من هذه الخطوط الى صورة غالبة ، والى بحث منهجى عن الثقافة نفسها . وتشبه هذه الخطوط أرجل الحشرة المتعددة الارجل موجودة دائما هناك . ولكن الامساك بالحشرة ، يتم دائما عن طريق رجل غير الرجل التى أمسكت بها المرة السابقة .

وسأحاول فى هذا الفصل أن أعرض ما أعتقد أنه المدى النموذجى

للثقافة الافريقية · والظاهرة الأساسية فى الطراز الذى تمت اليه الثقافة الافريقية هى النظرة العالمية · التى يمكن أن تنسب اليهـا جميع المفاهيم الاخرى وبينها بالطبع المفـاهيم اللاهوتيـة والخلقية والدينيـة والتنظيم الاجتماعى · ولهذا فأنا أعتزم شرح هذه النظرة العالمية ، وايضاح الطريقة التى تنبثق منها جميع الصور الرئيسية الاخرى للمجتمع الافريقىالتقليدى ولتحقيق هـذه الغـاية أوثر اختيـار مجتمع أفريقى واحد ليـكون مثـالا للمجتمعات الاخرى · وهو مجتمع الآكان فى غانا ·

يمثل الآكان فى غانا ثلثى سكان البلاد البالغ تعدادهم ستة ملايين ونصف المليون من الناس · ويقيم معظمهم فى منطقـة « الاشانتى » والى الجنوب منهـــا وفى « اكسيم » والى الغرب من أكرا · وهم يتحدثون بمجموعة من اللغات التى تمت إلى أسرة واحدة للتشابه الماثل بينها · وان كانت لا تعتبر لهجات متعددة فى لغة واحدة ·

وفى تقديمى لفكرة هذا المثال أو النموذج لا اعتزم مطلقا الايحاء بأن الثقافات الافريقية كلها أو حتى معظمها ، تشترك فى مجموعة متشابهة من المبادىء أوحتى فى مجموعة متشابهة من التفاصيل· فلكل ثقافة منالثقافات شواهدها الخاصة بها وهذه الشواهد أوالأدلة هىالتى توضحأيامنالبيانات التقيمية العامة الموجودة فى الثقـافة نفسها معقول ، وأيهـا غير معقول · وتؤثر مثل هـذه البيانات التقيمية العامة على القـانون وقواعد الاخـلاق والتنظيم الاجتماعى · وينظر اليها عادة وبصورة شائعة ، وكأنها عاجزةعن اقامة الدليل غيرالذائعوغيرالمنتشر، ويصلالمرء ضمن اطارالقواعد التى دعا اليها كانت (Kant) والتى تقوم فيها المبادىء القياسية أو المعيارية على أساس أحكام العقل ان عاجلا وان آجلا الى مبادىء عملية يفترض أن العقل هو الذى يفرضها على نفسه · أما فى المجالات الاخرى فان هـذه البيانات التقيمية العامة ، لا تصبح معقولة أو صـــحيحة الا من ناحية علاقاتها بالثقافات الفردية ·

ومن السهل بالطبع على أى ثقافتين أن تشتركا فى نفس القيم العامة ولكن على الرغم من هذا الاشتراك فان النظم التى تعبر عن هذه القيم تظل مختلفة بين مكان وآخر · وتظل كل من الثقافتين محتفظة بعدد من الظواهر الثقافية التى لا ترتبط ارتباطا مباشرا بأى من القيم العامة · ويصح لنـا أن نطلق على هذا القطاع الثقـافى الذى يضم الظواهر اللامرتبطة بأية قيم عامة معينة اسم «الاسلوبيات الثقافية» · ومن هنا يقال ان «الاسلوبيات» قد تظل مختلفة بين ثقافتين تشتركان فى نفس الايحاء والالهام · ويتضح من هذا أيضا أن « الاسلوبيات » تشمل تلك الامور التى تخضـع للذوق والاحساس ولا ريب فى أن المثل الواهى الشائع بأنه «لا خلاف على الذوق»

يمكن أن يعتبر أيضا دليلا على أن الأذواق من حيث أنها أسلوبيات للثقافة لا ترتبط ارتباطا مباشرا مع قيمها العامة السامية • ومع ذلك فان الاذواق تعبر نفسها لتستخدم كطرائق اضافية لتأييد أية صورة أو مرحلة من صور الثقافة ومراحلها •

ولقد سبق لي أن أوضحت أن الامثلة على الطرز المتشابهة من الثقافة قد تختلف • ولكن المرء يتوقع أيضا وجود أوجه شبه بينها • ولكن هذه الاوجه ليست على أي حال من النوع الذي ينتظر الانسان أن يلقاه بين الجمل التي تعبر في اللغات المختلفة عن نفس الفكرة • وفي وسع الثقافات التي تمت الى نفس الطراز أن تكون في صور أو في أوساط ومراحل مختلفة . فقد تختلف اسلوبياتها، وتختلف تبعا، وعلى نحو أوضح انظمتها، ومن هنا يكون التفكير بأوجه الشبه بين الثقافات التي تنتمي الى نفس الطراز على صعيد أوجه الشبه العائلية • فهنا يمكن للثقافة الواحدة أن تتشابه بشكل ملحوظ مع عدد من الثقافات المختلفة التي تنتمي الى نفس الطراز ، وأن يكون هذا الشبه بطرق مختلفة ، تماما كما تقوم أوجه شبه بين أفراد الاسرة الواحدة المختلفين تمام الاختلاف •

ولعل هذا هو الذي يبرر الطريقة الجوهرية في معالجة ثقافة واحدة تعامل على أساس أنها انموذج للطراز الذي تنتمي اليه تلك الثقافات وأعتقد أن من غير المستحب أن نحاول عرض « خطة » الطراز كلها •

وقد فكر الاكاني كثيرا بالعالم لا العالم الذي يعيش هو في وسطه ، بل العالم الذي يؤلف هو جزءا منه • ولم يتخذ الاكاني قط موقف « الظاهرية » من العالم فالعالم بالنسبة اليه شيء غيبي ولا علمي • ولفهم هذا الرأي تمام الفهم من الضروري أن نفكر بأن « العصرية » تتألف من اغتيال الافكار ومن تضييق المجالات التي يستطيع فيها مفهوم العلاقات بين الافكار ، تقرير طبيعة العالم ومحتواه • وقد اعتبر هذا ممكنا الآن في أوروبا في حقل الفكر والعمل ليس غير • أما في الحقول الأخرى ، فلا يعتبر العالم في أوروبا أكثر من شيء ادراكي ، ولعل من أسس البحث العلمي مثلا القول بأن الذي خلق العالم لم يكن « فيلسوفا عقلانيا » •

لكن العالم يعتبر من وجهة النظر العينية للاكاني فكرة فلسفية عقلانية وتتخذ العلاقات بين الافكار لحمتها وسداها من العلاقات بين معطيات الطبيعة ومركباتها• وتقضي هذه النظرية وعلى هذا النحو بأن تكون الغيبيات الحقة نظاما استقرائيا • ومن هنا تكون الاخلاق والسياسات والطب كلها أمور تنبثق من الغيبيات • ومن هنا يغدو العلم بما فيه من تجريبيات شكلا زائغا من أشكال البلادة •

وأدى تقدم العلم والتقنية فى أوروبا الى ذبول مجالات الاخلاق كاحدى معطيات الغيبية وانحطاطها وبات المرء يشهد الاخلاق وقد تبلورت لتذعن للطب ويرى العلاقة بين الفكر والعمل وقد انسحبت لتخلي مكانها للعلاقة بين المسبب والنتيجة ، عن طريق الحوافز ، والمقدمات الكامنة من أيام الطفولة • وبات الاثمون والخطاة يتنكرون سخرية منهم فى أشكال المرضى وذوى العاهات ، أما بالنسبة الى الاناني فلم يكن هناك تقريبا أى فرق بين الخطأ والخطيئة ، أو بين الخطأ والاثم ، اذ أنهما يحملان اسما واحدا هو ايبون (Ebon) ويلقى هذا الاسم نفس الصورة النائمة على المعنيين وهى صورة الشر التى تشمل الاخطاء والخطايا، ويقابل الخطيئة فى العمل الانسانى اسم التناقض فى الفكر الانسانى ولما كانت المخالفة أو التناقض تشل الفكر ، يصبح من اللامعقول • أن تقابل الخطايا أو الآثام بالعقاب الشديد ولما كانت الغيبيات هى التى تلفظ الاخلاق والسياسات والطب ونظريات التنظيم الاجتماعى وغير ذلك ، فان نتائج أى خطأ تعتبر فى عرف الغيبيات خطيرة أيضا ولعل هذا المفهوم هو الذى يشرح صرامة العقوبات التى فرضتها شريعة الاكانيين • والتى ظهرت بمظهر الوحشية والبربرية وكل ما يفعله تقدم العلم هو انسنة الاخلاق والسياسات • وتصبح الاخلاق مرتكزة على ذلك انتركيب الذى يوائم الناس فى أوضاعهم الراهنة ، أو على اجماع الرأى العام الانسانى • وهنا لا بد وأن ينشأ شيء من الجماعية ومن النظرية الطبيعية ، لقواعد الاخلاق فى المجتمع • أما السياسات فتصبح مؤكدة للانظمة دون أية اشارة الا بقدر ضئيل ونادر الى المثل التى تقوم عليها هذه الانظمة • وتظهر هذه الحقائق فى المناقشات الراهنة التى تدور بين الاوروبيين والامريكيين حول الاخلاقيات والسياسات • فمن المعروف من الناحية الاولى أن القول بطيبة شيء يعنى امتداحه حقا والتوصية به فعلا وأن هناك وصفا طبيعيا ومقصودا قد تولد لاضفاء نعت « الطيبة » عليه • ويقال من الناحية الأخرى أيضا أن جميع المثل السامية يمكن تحقيقها ، تضم أنظمة محدودة معينة تهدف الى تحقيق تلك المثل بطريقة مقبولة وطيبة • وتحدد آنذاك قضية تطبيق هذه المثل عن طريق ربطها بقضية تقبلها وما فيها من جودة وجدارة بالنسبة الى الأنظمة التى تحددها • ويؤدى تحديد هاتين القضيتين الى الكثير من الخلاف والمشاكل ، اذ أن صلاح هذه الخطوة هو موضع الشك والتساؤل حقا • وحتى الخلافات فى الدين والادب والفلسفة هى فى النهاية والى حد ما ، واحدة اذ أنها تماثل فى مظاهرها الاساسية ، الفرق بين الطبيعة وما وراء الطبيعة• وفى وسعنا أن نرى فى الفلسفة علمنة أو دنونة (نسبة الى الدنيا) لهذا الفرق • وهذا يعنى أن الفلسفة تبحث فى هذا الفرق بدون أية اشارة الى تلك الصارية من التوصيات التى ترفعها المثل

العليا وتدعو اليها ويغدو الفرق على هذا الاساس جامدا بل ووحشيا ويصل الخلاف في الفلسفة مرحلته الحاسمة عندما يصبح الفن متطابقا مع الواقع، وعندما يغدو ماوراء الطبيعة متطابقا مع الطبيعة نفسها ، والمثل مع الحقائق المجردة ، والأساطير مع التاريخ ويعمم هذا التوشيح في أي سرد يزعم أن ما يوصف بالشيء الموضوعي ليس الا التوفيق أو التطابق بين مجموعة من الآراء الذاتية أو العاطفية أو في ذلك السرد الواقعي الذي يصف الامور على النحو الذي تظهر به أو تبدو فيه الاوضاع العادية المألوفة ، وهنا يقوم التواشج بافراط بين المظهر والمخبر أو الواقع • ويتحول الواقع الى مظهر يبدو في أحسن حالاته أما التاريخ فيتحول الى طراز من الاساطير بالقدر الذي يسمح فيه للمخيلات الخلاقة أن تلعب دورا فيه• وهذا هو الرأي الذي نادى به تريفوز ـ تروبر • أما الاساطير في الميتولوجيا المقارنة فتعالج على أنها تاريخ في جوهرها • وتتحول المثل الى حقائق ، تحتاج الى النظر اليها بعناية ، أما الذين لا يشتركون في هذه المثل فيسمون عميانا أو منحرفين ضالين • ويتحول الفن الى واقع عميق ، ويصبح الفنان من طراز العلماء الذين يستخدمون أجهزة عدة ويتحدثون بلغات مختلفة • وتصبح الفنون والاساطير والمثل كلها صادقة ، وكذلك الحال بالنسبة الى الحقائق والتاريخ والعلم • أما بالنسبة الى الاخلاقيات ، والى ما يود الناس قوله، فان تمثيل صوت الشعب بأنه من صوت الله عن طريق الفلسفة القائلة بأن «الضد يبرز حسنه الضد» ينقلب الى القول بأن صوت الله هو من صوت الشعب • وهنا يعود الله واحدا من الناس • وكل هذا ثمرة فرعية من ثمار العلم والتقنية•

وعلى الرغم من أن العقل الآكاني كان ينظر الى العالم كشيء غيبي أو ما وراء الطبيعة ، فانه لم يكن يقبل حل المشاكل حلا غيبيا ، أو حلا يقوم وراء الطبيعة ومن هنا يصبح من الخطل القول بأن الآكاني كان يفتقر الى العلم والتقنية • لكن قولي هذا يجب ألا يفهم على أنه محاولة طموحة للقول بأن الآكاني كان يجمع بين الناحيتين أي الغيبية والعلمية • فلقد كانت للاكاني مشاريع في الحديد والصلب وقد اكتشف الادوات الحديدية والفولاذية كما دلت بعض الاكتشافات الاثرية على وجود بعض مواقع أفران الحديد والصلب• وكانت لديهم بعض الادوات النحاسية التي يبدو أن بعضها مستورد على أي حال• وقد عرفوا كذلك بعض أدوات الزينة المصنوعة من الاحجار الكريمة كما أن فنهم وحذقهم في صياغة الذهب والمجوهرات اثارا اعجاب زائريهم من قدامى الاوروبيين • واذا ما استثنينا على سبيل الاحتمال الطب الوقائي ، فان الطب لم يكن أيضا بالنسبة اليهم قضية تحليل للمفاهيم • ولم يكن عمل الغيبيات هنا يبدو في شكل التشخيص أو التحليل أو وضع الوصفات الطبية فكل هذه الامور كانت تتم بأساليب وطرق طبيعية • وتطورت المعالجة بالعقاقير النباتية

(الاعشاب) الى درجة عالية جدا من الكفاية . وما زال هـذا الطراز من العلاج حتى يومنا هذا الوسيلة الممكنة بالنسبة الى قسم كبير من السكان. وعندما تم حل مشاكل التشخيص والتحليل ووضع الوصفات الطبيـة . ظلت هنـاك مشكلة قائمة اعترف بهـا ، وهى مشكلة الصـلة المحددة بين الظروف ، وهى الصلة التى تؤلف بالنسـبة الى المريض المعين ، مرضـه وعلته . وقد تعقدت هذه الحالة الى درجة الاشكال عن طريق اعتبارها حالة فريدة من نوعهـا ، أى عن طريق التفكير بأن الفرد المصـاب ، عنصر دائم لا متغير بالنسبة الى وضع المرض نفسه . وعندما يصبح الفرد ، وتصبح الظروف المتصلة به ، متغيرة لا ثابتة بالنسبة الى وضع المرض نفسـه ، يغدو هنـاك كل ما يبرر التجربة من الناحيـة النظرية ، وتكتسب الحالة الفردية قيمة علمية من قيم حب المعرفة، بدلا من العناية القدسية ، ويصبح المسرح ممهدا لظهور نظرية طبيعية عن المرض . ولا يغدو للقرابين فى هذه الحالة كرمز عن العرفان بالجميل أية ضرورة . وعلى الرغم من أن الاكانيين كانوا يوصون تقليديا بتجنب الربط بين الظروف التى تؤلف الحالة المرضية وعلى الرغم من الاجراءات الوقائية الخاصة والعامة ، ومن التغذية والشرب المنظمين اللذين تشير بهما نصائح الحذر والحيطة ، فان تفردية المريض ، التى تعرضها وجهة النظر الغيبيـة خلقت فيهم احساسا باحتمال التدخل السماوى . ومن هنـا كان من الضرورى للمصـلحة الانسـانية أن تقـدم القرابين وأن تقام الصلوات طلبا لاستمرار الحالة الصحية السليمة أو استعادتها .

ولهذا الرأى وجهة نظر واحدة وهى التحديد الذى تنطوى عليه عملية مفهوم الاحداث العارضة ولم يكن ثمة تكران لامكان تكرر هـذه الاحداث العارضة . ويعترف العالم بالاحداث العارضـة كشىء علمى وكشىء غيبى أيضا . فهى فى التجسيد العلمى لها تنطوى على ارتباطات ووشائج ، لم يعرف بعد أى قانون ينظمهـا . أما فى التجسيد الغيبى ، فانهـا تتضمن ارتباطات ووشائج تعتبر مفاهيم عناصرها غير مترابطة أو متصلة ببعضها. وعلى الرغم من أن الترابط فى الرأى الاول يمكن أن يثبت عن طريق الادلة الاختبارية وأحيانا الاحصائية ، فانه فى الرأى الثانى لا يمكن أن يثبت الا عن طريق تحليل المفاهيم .

ولم تكن الآلهة فى مفهوم الاكانيين شيئا من اختراع الكهنة أو الكاهنات ومن الخطأ البالغ أن يظن المرء هنا أن الطبيعة قد نزعت الى الروحانيات فليس للطبيعة هنا أية أهمية كبيرة فى حكم الواقع . ولا شك فى أن التعبير عن النظرة الغيبية على صعيد نزوع الطبيعة الى الروحانيات ، هو تشويه كلى للنظرة نفسها ، اذ أنها محاولة للتعبير عنهـا على صعيد وضع يقف موقف

التعارض الجذرى معها ، وذلك لأن الطبيعة كانت فى رأى الاكانيين ـ وان شئت قسمها ما وراء الطبيعة ـ أمرا روحيا قبل كل شيء آخر .

وتحتل الروح فى غيبيات الاكانيين المنزلة الاولى . وتقوم الارواح فى طبقات متسلسلة اذ أن المزايا التى يطلق عليها اسم المزايا الاخلاقية ، كالادراك والشجاعة والفضائل وهلم جرا ، هى الصفات الأولية للأرواح. وهناك بالطبع فرق بين الصفات والمزايا ، فالاولى كامنة وقريبة من الوصف بينما الثانية نزوعية الطابع وقريبة من التمجيد والتقدير . وكثيرا ما يقال بأن الصفات طبيعيـة ، وأن المزايا خلقية ، لـكن التمييزليس فى الحقيقة والواقع ألا تمييز قائم على التحليل لا نتيجة الوجود أو الفطرة اذ أن بعض الصور المتعلقة بشيء ما قد تكون صفات فى وقت من الاوقات ، وقد تغدو مزايا فى وقت آخر . فوجود الهدف مثلا كاف فى غالب الاحايين لتحويل الصفات الى مزايا ، وهكذا تغدو صفات الفولاذ مزايا له ، اذا كانت تخدم غرضا معينا بالذات . فالهدف يجعل الصفات أو الخصال، خاضعة لعمليات التقييم المبنية على الصـلاح والمناسبة ، وبذلك يحولهـا الى مزايا . وقد لا يوجد هذا التمييز الا فى اللغات التى يكون فيها معنى الوجود الطبيعى قويا كل القوة . وتختلف اجرائية التمييز وطاقته على التنفيذ فى وجهـة النظر الغيبية اختلافا عكسيا مع سيطرة الغيبيات وتغلبها . لكن هناك على أى حال فى وجهة النظر هذه ، صفات وخصالا ، لم تتحول الى مزايا . أى صفات تحمل طابع الصفات لا بالنسبة الى هدف محدود معين ، أو غاية متحولة بل بالنسبة الى حقيقتها اذا شئنا الدقة ، اما كفايات فى حدذاتها، أو بالنسبة الى صلاحها صلاحا كاملا لغـايات ثابتة وغير متحولة . واذا شئنا الاختصار قلنـا ان كل صفة قد تصبح ميزة أو مزية ، ولـكن هناك مزايا لم تكن فى يوم من الايام صفات أو خصالا ونصل من كل هـذا الى نقطة واحدة وهى أن فى غيبيات الاكانيين ، ذاتيات معينة تتحول صفاتها الى مزايا وان هـذه الذاتيات تقدم على الفور تسلسلا طبقيا من المخلوقات وتقرر كذلك أوضاع الامور فى هذا التسلسل الطبقى ، وفق ما تملكه من صفات ومن مزايا وتنتمى اللا أحياء الى الطبقات الدنيا من هذا التسلسل أما الكائنات المتعلقة بالارواح ، وبينها الجسم الانسانى بالطبع فتنتمى الى الفئات الوسطى لكن الارواح وبينها بالطبع أرواح الناس فتمت الى الطبقات العليا . ويعرض هذا التجاور فى التنظيم الذى تحتل فيه المخلوقات الحية مكانة فى التسلسل الطبقى ، مشاكل فورية بالنسبة الى الدين وفى وسعنة الآن أن ننتقل الى بحث هذه الناحية .

الناحية الغيبية :

كانت دولة الاكانيين دولة مقدسة من حيث أن النظرة اليها تقوم في وجودها في عالم يسكنه الاحياء ، كما تسكنه الارواح والالهة التي يدين لها الناس بفروض محددة ، تؤدى وفق طقوس مناسبة ، ويكون الناس معها في حالات من التعامل المستمر على أساس القرابة والنسب • وكانت «القرابة الروحية» هى العصب الحساس في أواصر القربى بين الاكانيين ، وفي الامكان استخدامها لايضاح ارتباطاتهم التزاوجية أيضا • فالانسان بالنسبة اليهم روح غير مغلقة ، وليس بالجسد الحي ، كما يقول سفر الخليقة في العهد القديم ، وكانت مستلزمات القرابة الروحية تتفوق عندهم على مستلزمات القرابة الحياتية وواجباتها ، ولم يكن التسلسل التناسلي عندهم الا تعبيرا عن هذا التسلسل في القرابة ، مع ما يصاحبه من واجبات والتزامات • أما طريقة هذا التعبير فسأوضحها ايضاحا كافيا عندما أصل بحديثي الى البحث في الاسرة الاكانية •

وكانوا يرون أن الأحياء هم في جوهرهم من الأرواح حتى وان كانت مغلقة في أجساد من اللحم والعظم فترة من الزمن • وتنطوى هذه النظرة على بعض النتائج بالنسبة الى الدين • فقد يقال عن الدولة نفسها أنها دينية لانها مؤلفة على الغالب من الناس أى من الارواح ، أو لان عبادة الناس تغدو محدودة لانهم هم أنفسهم من الارواح • ولا تتاح أحسن فرص الوجود للعبادة الا عندما ينظر الى الانسان نفسه على أنه فصيلة مادية من الكائنات لا الارواح • أما عندما ينظر الى الرجل كشريك في طبيعة الشيء الذى يعبده، فان الدرجة الفعلية لعبادته هو أن تكون أقل شأنا منها عندما ينظر اليه نظرة مخالفة لذلك تماما • واذا أمكننا حقاً أن نجد بونا بين عبارتي «العبادة» « والخدمة » ، فان في وسعنا أن نقول ، ان الاكانيين لم يعرفوا معنى العبادة أبدا - فالعبادة مفهوم لم يكن له وجود قط في فكر الاكانيين • وكان غيابها عند الاكانيين أكثر كمالا من غيابها حتى عند قدماء الاغريق الذين عبدوا طبيعة « الوقوف بانتصاب » وذلك لان الارقاء وحدهم هم الذين كانوا يحنون ظهورهم • يضاف الى هذا أن نظرية الاكانيين عن القدر ، كانت أكثر شمولا من نظريتهم في جوهر عبادة الانسان المشوشة • فكل انسان روح من الارواح أوفدت الى العالم الطبيعي والمنظور ، لاداء رسالة معينة• ولم تكن وجهة النظر هذه ناتجة عن التفكير في الفروق اللامتكافئة بين الناس ، مع أن في وسع المرء أن يقول وأن يناقش بأن عدم التكافؤ بين الناس قد غدا مدهشا الى الحد الذى بات يوحي فيه بالقدرية ، لكن نظرة الاكان الى القضاء والقدر تنسجم كل الانسجام مع فكرتهم في المجتمع المتماسك والكلي الاندماج ، الذى يعيش فيه الناس كاجزاء من آلة لا يمكن

فصلهم عنها • فلكل منهم مكانه المخصص له في هـذه الآلة ، حيث يؤدي عمـله لتحقيق الانسجام الشـامل والخدمة المصلحة العـامة • ولعـل من الاقرب للصحة بالنسبة الى الاكانيين أن تنعت الدولة نفسـها بأنها شيء ديني • ولم يكن هؤلاء الناس يفكرون في العالم على أساس افتراض ثغرة لا يمكن سدها بين عالمين : العالم الزمني ، والعالم اللازمني ، وعلى أساس افتراض أن العالم الثاني خير من الاول وأكثر أهمية ، أو على صـعيد تلك الفكرة التي تقول بشيء من الوجود خارج نطاق المتعبـدين الذين يهدفون اليـه ، والتي تنبت طرازا معينا من الاحساس يشـمل الشعور بالاجلال وازدراء الذات وهما خاصتان تتضمنهما مواقف العبادة • ولما كنـا جميعا من مواد العبادة ، فليس ثمة من ظاهرية أو عمق كافيين لاستثارة العبادة والدين على هذا الصعيد • فنحن كبشر ، أي كظواهر عارضـة ، مدينون بوجودنا الى الله ، لـكننا كالارواح ، أي في جوهرنا غير مخلوقين ولهـذا السبب وحده ، كان يقال عنـا ، اننا حتى كبشر ، لسنا خلقـا لله وانما رسلا له •

وقد احتل الله نفسه محلا بارزا في تفكير الآكان • وقد تمتع ذاك بعدد كبير من الاسماء ، لا ريب في أن أحدها وهو « اونيامي Onyame » يمثل الاسم الاكثر أهمية • ولم يحاول الا قلة من الكتاب ، بينهم بالطبع ويسترمان وراتري وأخيرا مايبروفيتش أن يصوروا« اونيامي » أو «نيامي» كما يسمونه أحيانا على أنه من الهة السماء وذلك بسبب اشتقاقات لغوية مزعومة • فلقد خيـل اليهم أن اسم « نيامي » مشتق من اسم « نيام » أو « أونيام » وهناك حقا فعل « نيام » في لغـة الاكان ، ويستعمل عادة مع الساحرات • وهو يستخدم على هذا النحو ليشير الى حركاتهن السريعة والواقعة هنا وهنالك ، أثناء أدائهن أعمالهن السحرية • لـكن هذا الفعل لا يمكن أن يكون الكلمة التي اشتق منها اسم الكائن الاعظم • وهناك أيضا اسم وصفة تنتمي الى نفس الأصـل • وهي كلمة «أونيام» التي تعني الهيبة والجلال والمجد • لكن هذه المعـاني ليست الا كنايات من المعروف أنها تستعمل في اللاهوت الاكاني ، عن الله • ولـكن من الجور كل الجور ، الاصرار على أنها تستمد أصلها من الشمس • وليس اله المسيحيين أو اله المسلمين بأحق من اله الاكانيين في أن يكون من آلهة السماء ، اذ أن نفس هذه الكنايات تستعمل لتمجيدها • وقد شجع الفقيه اللغوي كريستولر في معجمه الانكليزي ــ الاكاني العظيم فكرة نعت اله الاكانيين بأنه من الهـة السماء وذلك عند بحثه في كلمة « اونيام » فهو يخمن هنا بأن « اونيام » هي الكلمة الاكانية التي تعني السماء • وهو يلجأ الى عقد مقارنة بين كلمة « نيام » وبين الـكلمة الاصلية « ديو » في اللغات السنسكريتية • وهنـا يسمح لنفسه بأن تضلله اللغات السنسكريتية التي يفترض أنهـا تشبه

الى حد كبير دون أن يجد سببا يبرر به منطقه ، لغة الآكان المختلفة عنها كل الاختلاف في اشتقاقاتها لكلمة الله . وكل ما يفعله والحالة هذه ، في عين الواقع هو أن يعثر على اسم لمستقر الله وداره دون أن يجد اسما لله اذ أن كريستولر نفسه يسمح بأن تكون اسماء الله الأخرى ذات أصل مشتق من « أونيام » واخيرا لاتعني كلمة « أونيام » نفسها السماء مطلقا ، وانما تستعمل مجازا للتكنية عن السماء ، كما أن كلمة «السماء»الانكليزية نفسها (Heaven) تستعمل احيانا للتكنية بها عن الله دون ان تعنيه فعلا . ولم يستخدم كريستولر نفسه في ترجمته للكتاب المقدس الى لغة الآكان ، مرة واحدة كلمة « أونيام» ليعني بها السماء وانما يستخدم دائما الكلمة الاكانية الصحيحة التي تعنيها وهي اوسور أما في (Osor) معجمة فيستعمل الكلمة الاكانية الصحيحة والدقيقة للسماء وهي «ايويم» Ewim ، التي تعني مناطق الشمس .

وأنا لا أصدق أيضا في الحقيقة أن أونيام تعني « الشيء المشرق » . فلو عنت « الشيء المشرق » حقا لكان ما تعنيه هو الشمس طبعا . وبذلك يتحتم الربط بين الله وبين تجليات زمانية موقوتة ، أو الوصل ، وهذا هو الهدف الأبعد بينه وبين مستقر مشرق . لكن أيا من هذه الافتراضات لا وجود له عند الاكانيين اذ أنهم يرون من الناحية الأولى ، ان ما تعنيه « اونيام » شيء غير منظور ولذا لا يمكن أن تكون له تجليات وليس أدل على صحة هذا من أن الاكانيين لا يقيمون لهذا الشيء صورا أو تماثيل أو أضرحة . يضاف الى هذا أنهم لا ينظرون الى الله كشيء محدد له اسمه يعيش في السماء ، وانما يكتفون بالايمان المجرد بأنه هناك في العلا ، في مكان ما . وهناك أسطورة آكانية عن موقع الملكوت الأعلى لا ريب في أنها تربطه وان لم تحدده تماما بالسماء فهم ينظرون الى السماء ، كشيء أو كمادة ،ويرون فيها انها سقف العالم ، أو على الأصح ارضي الملكوت الأعلى . وتقول هذه الاسطورة ، انه في وقت ما ، في غابر الازمنة ، وكان أسلافنا فيه لا يزالون صغارا للغاية ، عاش الله ،على مقربة منا . ولكن امرأة عجوزا ، راحت في يوم ما وكانت تدق الموز لتعد وجبة طعام لها بالمدق والهاون ، تصيب الملكوت الأعلى بمدقها . وهنا انفجر الاله قائلا لها « لم فعلت ذلك معي ؟ انني اعتزم الرحيل الى العلا بسبب ما فعلت » وصدق الله وعده ، كما يفعل دائما وارتقى بنفسه الى العلا . وتمضي الاسطورة فتعرض على مسامعنا قصة تشبه الى حد كبير قصة « برج بابل » ، وان اختلفت عنها في نهايتها الاكثر فجيعة . فلقد ندمت العجوز على ما فعلته ؛ وحزنت على ان الله ، قد نأى بنفسه عن الناس فطلبت الى جميع أولادها ، أن يجمعوا كل ما يمكن جمعه من « هاونات » وان يضعوها بعضها فوق بعض ليصلوا الى الله في اعاليه . ونفذ الاولاد وصية أمهم تنفيذا صادقا ولكنهم وجدوا في

النهاية ان « هاونا » واحدا ينقصهم لتحقيق الوصية وفكرت العجـوز طويلا • ويبدو أنها كانت الان قد اصيبت بمس من الجنون فعادت تقول لأولادها •••• « حسنا ياأولاد ، ارفعوا الهاون الادنى من مكانه وضعوه فوق الجميع • لتصلوا الى الله أخيرا » • واطاع الاولاد أمر أمهم ثانيـة وفعلوا ماطلبته • ولكن الهاونات كلها انهارت الآن متدحرجة على الأرض• فقتلت جميع الأولاد ، حقا انها قصة رائعة ، ولكنها لاتحدد بأى حال من الاحوال أن مستقر الله قائم فى السماء ، وان كانت تربط بين السماء وهذا المستقر •

ولو كانت كلمة « اونيام » هى حقا الاسم الرئيسى لله ، لتحتم عليها أن تعبر عن معنى لا هوتى بارز ، فمن تعضية (نمو الاعضاء على التتالى) ، الآلهة الكثيرة الصغرى التى يزعم الاكانيون انها الدرب الموصل الى جود الله وكرمه ، ورعايته السخية ، أرى نفسى ميالا الى الاعتقاد ،بأن الاشتقاق الصحيح والأصلح لكلمة « اونيام » أو « نيام » هو من كلمة « نيا » التى تعنى العطاء أو « أونيا » التى تعنى الحيازة السعيدة الطالع و « مى » التى تعنى القناعة والرضى • ويؤيد صحة هـذا الاشتقاق كما يبدو اكثار الاكانيين واصرارهم على التوسل الى الآلهة الصغرى طلبا لجميع اشكال العون والنصرة ، لا سيما وانهم يرون فى هذه الالهة الصغرى جنودا أو مساعدين للكائن الاعظم بل وتعبير عن عظيم قدرته وجلال شأنه •

وقد ضل بعض الكتاب الذين تأثروا ودهشوا من مفهوم الاكان عن الكائن الأعظم وعن تمثيله الاله الصحيح لهم الطريق ، فزعموا أن هـذا المفهوم مستورد من أوروبا • ولكن « راترى » الاريب رفض فى كتاباته هذه الفكرة رفضـا قاطعا • فاسـم « أونيام » يحتل مكانا كبيرا فى أحاديث الاكانيين وتفكيرهم ، وهو يظهر بوضوح فى الخطب التى تلقى منذ الأزل على جماهير الاكانيين فى احتفالات دق الطبول التقليدية ، كما أنه معروف تمام المعرفة فى أعماق الغابات والأدغال التى لم تطأها قط أقـدام المبشرين الاوروبيين • ولو كان هذا المفهوم مستوردا أوروبيا لكـان مدى الذيوع والانتشار المفترض وجوده لتفسير هذا التسلط لكلمة «أونيام» على أقوال الاكانيين وتفكيرهم،أقرب الى الخيال منه إلى الحقيقة التى لاتصدق، يضاف الى هذا أن الاكانيين يؤمنون حقا بأن علم الله فورى وايحائى وفطرى ويظهر هذا الايمان بوضوح فى الحكمة التى تتردد على ألسنتهم دائمـا « ليس فى وسع أحد أن يعلم الاله حتى ولو كان طفلا » •

وقد أبرزت صفات الله ابرازا كاملا ، فى الأسماء الفرعية الأخرى التى تطلق عليه ، والتى يحتل اسم « أونيان كوبون » أو « نيان كوبون » مقدمتها ويقال ان هذه الكلمة تعنى عادة الرجل الذى « يحمل أعباءالآخرين دون أن يطأطىء ظهره » • والفكرة هى أن هذه الكلمة مشتقة من « ليا »

التى تعنى « واحدا » و « نكو » التى تعنى وحده و « مبون » التى تعنى «لا ينحنى» لكن راترى يقول ان هذه الكلمة كانت معروفة عند «الأكيميين» وهم أفراد جماعة متفرعة عن « الاكانيين » ، وانها كانت تلفظ على هـذا النحو « أوتيامى ــ نكو بون » وتعنى الاله العظيم الواحد · وهناك رواية ثالثة تنطوى على شيء من الغرابة · وهى تقول ان الاشتقاق الصحيح لهذه الكلمة نابع من كلمات « أونيان » وتعنى الاشراق « وكورد » وتعنى المدنية و « بون » وتعنى العظيمة وبذلك يصبح معناها «المدنية السماوية العظيمة» · ولا ريب فى أن طريقة التعليم وهى طريقة شفوية تبدو وكأنها تضفى على شيوع كلمة « أونيامى ــ نكو ــ بون » الكثير من الأهمية · وتوحى هذه الطريقة بأن هذه الكلمة ، هى الأصل الذى اشتقت منه كلمة « أونيان كوبون » · ولا يكون المعنى المقصود على هذا النحو ، من الكلمة الأخيرة ، هو عين المعنى الذى تحمله الكلمة الأولى · وهناك اسم آخر من أسماء الله الثـانوية وهو « توبريدوامبون Twereduampon أو « توبريامبون » المعروف عند الفانتيس ، وهم جماعة أخرى ساحلية متفرعة عن الاكان ، ويؤيد هذا الاسم فى انتشاره ، المذهب الذى ذهبنا اليه قبل قليل · ويقال ان هذه الكلمة مشتقة من ثلاث كلمات وهى « توير » وتعنى لا تعتمد و « درا » وتعنى الشجرة » و « امبتون » وتعنى لا تنحنى · ومن هـذا يبدو أن فكرة الله الذى يستطيع الانسان الاتكال عليه بأمان واطمئنان واضحة وصريحة فى هذا الاسم الثانوى من أسمائه · وهنا أيضا يكون الشكل الأكثر صراحة ووضوحا ، هى المعنى القديم للكلمات التى اشتق منها الاسم · واذا صح الآن ، ان هذا الاسم ، أكثر وضوحا فى نعت الله، بالكائن الذى يعتمد عليه ويركن اليه ، فان من غير المعقول بالنسبة الى الاشتقاقات المتعددة والمختلفة التى نسبت الى كلمة « نيان كوبون » ان يكون هذا الاسم أيضا معبرا عن نفس الصفة · وانى لأجد نفسى منجذبا الى معنى « الاله العظيم الفرد » ويطلق عليه أيضا اسم « أوتمفو » التى تعنى الأقوى حقا وحقيقة « واسم أودومانكوما » ويعنى « الخالق المبتكر » و « أونيان كوبون قوامى » ويعنى « أونيان كوبون » صاحب يوم السبت و « بوريبور » ويعنى « صانع كل شيء » · والله عند الاكانيين غيرمنظور، ولكنه موجود فى كل مكان ويمكن الوصول اليه مباشرة · ويقول الأكانيون انك اذا أردت البوح بشيء الى الله أو التحدث اليه، فعليك أن تحمل الرياح الرسالة ·

ولقد قيل دائما على لسان الكتاب الأوروبيين ان الاكانيين يعتقدون أن « نيامى » أو الله ، لا يهتم بالأخلاق مطلقا · وانى لأرى أن هذه الفكرة لاتنبعث الا عن جهـل الأوربيين المطبق · فالاكـانيون يرون أن الله « أونيامى » جم الاهتمام بالعدالة ، ولذا اطلقوا اسمين مختلفين على شيئين

مختلفين ، حرصا منهم على ألا يكون هناك أى اجحاف · فالله عندهم رمز الحب ، وهم يرون أنه يغدق النعم على العجزة والضعفاء · وفى وسعنا مقارنة هذا القول بأن الله يعنى بالحيوانات التى لا ذنب لها · وهو على أى حال وفى الوقت نفسه ثابت سرمدى لا يتغير ، وان كان يخضع للقوانين التى وضعها بنفسه · وهو القضاء والقدر ، وهناك موقف الاكانيين من الله ، باقتباس القول المأثور عندهم بأن الأرض واسعة فسيحة ، ولكن الله هو رئيسها ، وهو الذى يواصل عملية خلقه باستمرار وأزلية ·

وفكرة التعضية عند الآلهة (نمو الأعضاء بالتتالى) ، وهى الفكرة الشائعة عند الاكانيين هى فى الحقيقة ، فكرةوسواسية بالنسبة الىالاكانيين أنفسهم وليست الآلهة الصغرى ، الا وسائل مضطنعة يعبر بها « أونيام » الكائن الأعظم عن جوده وكرمه ويقيم الكهنة من هذه الآلهة وسيطا بين الانسان والله على اعتبار انهم يؤلفون جزءا من فضائل الله وسلطانه ، يعث بهم الى الناس ليضمن لهم السرعة فى نعمته عليهم عن طريق الوساطة الخالصة التى يؤديها الكهنة الذين يؤدون فى الوقت نفسه دور السدنة · ولو عاد المرء بفكره الى قديس المسيحية ورجال الدين فيها قليلا لاستطاع تكوين فكرة سريعة عن الدور الاصطناعى الزائفالذى تمثله الآلهةالصغيرة عند الاكانيين · فالشفاعة التى يقوم بها القديسون عند المسيحيين هى عين الشفاعة فى معناها التى تقوم بها الآلهة المعبودة الصغيرة · وقد عقد أرثور راموس (Arthur Ramos) وباستايد (Bastide) هذه المقارنة بالفعل عند مناقشتهما موضوع الوساطة الدينية فى أمريكا الجنوبية · وليس لاله النصارى يوم راحة أو يوم عيد الا يوم « أحد الثالوث المقدس » على الغالب · وليس لاونيام ، اله الآكان أيضا « أى يوم عيد » · أما الأعياد فهى من نصيب صغار الآلهة وتكون الآلهة فى الطقوس الدينية ذليلة مستعبدة ، اذ عندما يتم اداء الطقس على النحو الصحيح ، لا يبقى أمام متلقى الطقس الا مجال ضيق للاختيار · وليست الطقوس الا مجموعة من التمرينات القريبة من السحر · وهكذا يبدو اقامة عدد من الآلهة الصغيرة ، مجرد محاولة للوثوق من نجدة الله وغوثه ،وكذلك للتأثيرعلى هذا الغوث ولهذا السبب وحده ليست هناك أية طقوس لعبادة « نيامى » ، وقد يكون من الكفر أو الالحاد ، أن يجعل المرء من نفسه كاهلا له ، وهو الرجل الذى يدعى لنفسه صفة الاتصال الشخصى به ، والذى يعرف كل طقوسه السحرية الخاصة · ولهذا السبب وحده أيضا ، ليس ثمة لنيامى مذبح أو هيكل ، ولذا فان الاتصال به لكل راغب يكون عن طريق التحدث الى الرياح ·

وقد تمكن الكهنة عن طريق ادعائهم الاتصال الشخصى بالآلهة الصغيرة وعن طريقها بصورة لا مباشرة مع الله « الكائن الأعظم » من

التحول الى العرافة والتكهن بالغيب ومن هنا اتسع نفوذ الكهنة من محيط الدين المجرد ، الى المحيط الاجتماعى أيضا . ولم تكن صفة العلميــة لكل شيء ، شاملة كل الشمول للناس فى كل حين ولهذا بات الناس يلجئون الى الكهنة لاستشارتهم على اعتبارهم مصدرا لا ينضب ولا يخيب ، من مصادر المعرفة .وراح الناس يلجئون اليهم كما يلجأ المرء الى الموسوعات أو الى دوائر التحقيق الجنائى . ودائرة التحقيق الجنائى هذه منظمة علمانية دنيوية ، وتتضح علمانيتها من أسلوبها الواضح والمعروف فى العمل . أما قداسة الكاهن فتتضح أيضا فى طريقته المعروفة فى العمل وهى الادلاء بدلوه فى بئر المعرفة الشاملة أو العلمية بكل شيء التى هى صفة من صفات الله أو دوما نكوما . لكن طريقة العمل الدنيوية الحقة التى يمارسها الكاهن على أى حال لا تقل علمانية ان لم تقل اثمارا عن طريقة دائرة التحقيق الجنائى . فهو ينظم كشافين يتسقطون له الاخبار ويتلقفون الشائعات ، ويقومون بالتحريات اللازمة . كما يحتفظ فعلا بملفات ضخمة كاملة .

وكانت صغار الآلهة دائما مرتبطة ببؤرة ، يمكن استدعاؤها اليه دائما عند الحاجة واستجابة للرغبة ويقول الكهنة أن الاله الكائن الأعظم هو الذى يوفدها فى سرعة كلمح البرق . ويستطيع الكاهن اذا كان دقيق الانتباه الى حد كاف ، ان يمسك بهذه اللمحة من لمح العظمة الالهية ، وان يعتقلها فى قمقم الى أن يجهز لها البؤرة المناسبة لها . والتى تكون فى الغالب اما فى الحجر أو الخشب . شريطة أن تكون مقبولة لديها . وبعد أن تتم هذه العملية يصبح الاله الصغير وسيطا بين الانسان والله . ولاتحمل هذه البؤرة فى حد ذاتها صفة القداسة ، ولكنها تغدو كذلك فى الفترات التى ينفذ الى داخلها فيها الاله الصغير سواء أكان مستدعى للدخول اليها أم غير مستدعى . ويزعم الكاهن بالطبع انه قادر على استدعائه الى بؤرته ويعلن المعبود الصغير عن وصوله اليها عن طريق جسد الكاهن الذى يصاب بنوبة من نوبات الرجفة . ويكون الكاهن عادة من النساء وان كان هناك كهان من الرجال . وتستغرق عملية التدريب قبل السيامة فترة تتراوح بين السنتين والثلاث سنوات .

ويبدو مافى هذه الطقوس من افساد خرافى ووساوس للعلاقة بين الانسان والله بوضوح كاف من علم اللاهوت المتعلق بالله نفســه . فالقول بأن الكاهن هو الانســـان الناطق لله (أونيـــان كوبون كيامى) كفر صارخ ولايضاح هذه النقطة أرى أن من واجب المرء أن يدرس ما يعنيه القول الاكانى المأثور وهو أن طرق الناس وسبلهم مختلفة لا يحتل الواحد منها مكان الآخر ويرتبط هذا القول بوجهات نظر الاكانيين فى القضـاء

والقدر . فالسائد على الاعتقاد هو ان هناك ناحية فى الانسان تدعى «أوكرا» وتعنى حرفيا « الرسالة » وان هذه الناحية تمثل القدر الذى رسمه الله له . وتقدم كل روح انسانية عند وفاة صاحبها الحساب الى نيامى ، وقد يسمح لها بالعودة ثانية الى عالم الأجساد الفانية ، أو تحبس فى « سامانادزى » حيث تظل أرواح الموتى حائمة هائمة ، وهناك دليل آخر يقوم على صحة القول بأن العلاقة بين كل انسان وربه مباشرة وخاصة ، وهذا الدليل هو المثل السائر القائل ، بأن لا شهود هناك عندما تطلب روح الانسان السماح من الله ، لتتحول الى انسان من لحم ودم ، وكذلك القوله المشهور بعدم وجود مفر أو دروب جانبية من قضاء الله وقدره ، أو القول بان الانسان العاقل لا يحاول مطلقا تحوير الكلمات التى قالها له الله من قبل أو القول بأنه اذا لم يكن الله قد حدد موعد موت الانسان ، وحاول انسان آخر ان يقتله ، فان ذلك الرجل لا يموت أو بمعنى « لا يموت المرء الا اذا جاء أجله » وكذلك القول بأن الله اذا ملأ كأس انسان بالخمر ، وجاء انسان فان آخر فتعثر بها وصب محتوياتها على الأرض فان الله يعود فيملؤها لصاحبها مرة ثانية ولا ريب فى أن هذه الأقوال كلها توضح تمام الايضاح مافى الحياة من قدرية ووحشة . ويبدو اللجوء الى الكهنة ، والى معبوداتهم الصغيرة كمحاولة للتفريج عما تبعثه هذه القدرية والوحشة فى الحياة فى النفوس من غم وكآبة ولا ريب فى أن هذا التفتيت الروحى يقف موقف التباين المباشر مع التنظيم الاجتماعى للاكانيين . وسأتناول شرح هذا فى المكان المخصص له فى هذا الكتاب .

وقد تعرض الله لنوعين من محاولات الافادة والنفع . ففى الامكان بالطبع توجيه الابتهالات مباشرة اليه . وكان الناس يرون فى استجابته لهذه الابتهالات ما يرضيهم ارضاء كاملا . ولكل بيت من البيوت عمود ذو فرعين على شكل الشوكة يسمى « نيامى دوا » . وعلى الشوكة يقام قدر أو حفنة تضم رأس فأس من الحجر لا يستعمل أبدا كفأس ، وانما يسود الاعتقاد بأن البرق هو الذى زرعها فى الأرض وتضم الحفنة بعض الماء الذى يحيط بأعشاب معينة وترش قاعة الدار كما يرش الناس أنفسهم بهذا الماء كل صباح كفرض من فروض الصلاة طلبا لحماية الله ورعايته . وتعتبر هذه الحفنة رمزا على الاقرار بالركون الى الله . وبالاضافة الى دور الله فى القضاء والقدر فقد استخدمه الاكانيون أيضا لتفسير المواهب الخارقة والطاقات الخاصة ولهذا فهناك قول مأثور بأن المرء لا يستطيع أن يلقن ابن الحداد طريقة السكب والصياغة ولكن الله يستطيع أن يلقنه ذلك . وهم يقولون أيضا أن الله اذا كان لم يمنح الطائر الخطاف شيئا فقد حباه على الأقل بالسرعة فى الحركة والالتفاف . وهناك حالات عدة ومختلفة يلجأ

فيها الاكانيون لله - ولكنهم يناشدونه دائما العون والمساعدة فى حفلات تنصيب الزعماء القبليين وفى الاستهلالات التقليدية فى احتفالات قرع الطبول الرسمية ٠

نظريتهم في الانسان والمجتمع :

قد يرغب المرء فى أن يعرض سؤالين هنا، أولهما : ما اذا كانت اجراءات علم النفس العامة مطبقة فى افريقيا. وثانيهما : ماذا كانت النتائج التى توصل اليها علماء النفس الذين درسوا المجتمعات الأوربية تستطيع الصمود فى أفريقيا دون أن تتعرض لكبح جديد ، أو أن يعرض سؤالا آخر وهو هل تكون النفس الافريقية مختلفة تمام الاختلاف، ولا تنطبق عليها اكتشافات علماء النفس الأوربيين الذين بنوها على دراساتهم فى أوروبا ؟ وقد يرغب المرء في أن يعرض سؤالا آخر بالطبع ، وهو ماذا كان للافريقيين نظريات تحليلية خاصة بنفسيتهم ٠ فالمعروف أنه لابد للطريقة التى يحلل فيها أى شعب من الشعوب نفسيته الى صور ، من أن تؤثر على التفسيرات التى يعطيها هذا الشعب للسلوك البشرى ٠ ولابد لهذا التحليل وذلك التفسير معا من أن يؤثر على الطريقة التى يبنى فيها المجتمع ويساس ٠ ففرويد مثلا مسئول الى حد كبير عن الميل المتزايد الى النظر الى بعض الجانحين والخطاة على أنهم مرضى ، عن طريق وصفه للنفس البشرية ٠

ولم يخل الاكانيون بدورهم من مثل هذا الوصف ٠ فلقد كانوا يميزون فى الكائن البشرى شيئا آخر بالاضافة الى جسده يطلقون عليه اسم «أوكرا Okra » وهذا الشيء هو الروح الموجهة للانسان ، وهى التى تحمل قضاءه وقدره وتنفذهما ، وهى الروح التى تستأذن قبل خليقة الانسان من الله ، فى أن تحل فيه ٠ وهذه الروح هى التى يؤدى فراقها للجسم الى موت الانسان ، مسجلة بذلك استكمال قدره والوصول الى نهايته ٠ وتعود هذه الروح الى الله ، لتبرر له وجودها الأرضى ٠ وتحتل هذه الفكرة مكانة بارزة عند الاكانيين حتى ان هناك قولا مأثورا عندهم يعنى أن جميع الناس هم عيال الله وان ليس هناك من انسان هو ابن الأرض التى يوجد عليها ٠ والانسان وحده هو الذى يملك مثل هذه الروح ، القادرة على الظهور على الأرض مرة اثر أخرى في أجساد مختلفة ، وهى بدورها العامل الفعال فى رسم الهوية الشخصية للانسان ٠ ولعل هذه النظرية هى التى تشجع الاكانيين على الحديث عن النفس الحقيقية للانسان ٠

وتعبر الروح بوصفها القضاء والقدر ، اسمها لاشارات حسن الطالع ونذر سوء الطالع ٠ وهى اشارات ونذر يعتقد ان الانسان يستحقها وانها تمثل شيئا محتوما لا مناص منه ، ومناسبا تمام المناسبة ٠ وعندما ينزل

حسن الطالع أو سوءه بالانسان • يقال عنه أن روحه الموجهة هي التي أنزلت به ما يستحقه • وفي الغالب على الاعتقاد ان روح الانسان الموجهة يمكن أن تستجوب على أيدي الكهنة ، حتى قبل ولادة الانسان أي وهو في رحم أمه • ولا ريب في أن هذا القول أيضا محاولة الحادية لتقصي وربما لتحويل ما أقره الله من قبل • ولا ريب في ان باطنية الاكان يجب أن يحكم عليها في النهاية على أنها شيء من الخرافات •

وقد أبرز الاكانيون أيضا بالاضافة الى الروح الموجهة ، شيئا آخر في الانسان اطلقوا عليه اسم « سانسوم » • ولقد اعتبروا الروح شيئا « آليا » في أعماله ، حتى وهو يوجه النصائح عما هو خير وعما هو شر • ولا تنبعث نصائحه أو تنشأ من اهتمام خاص بل من الكشف الحتمي عن القضاء والقدر المعين له • وفي وسع هذه الروح أمام الخطر والحالة هذه أن تكون الوسيلة في خلاص صاحبها لمنع الموت من الوقوع مبكرا • أما القول بان الانسان يموت في الوقت المحدد له ، فيغدو على ضوء ذلك واذا شئنا الدقة شيئا لا معنى له في مفاهيم الاكان •

ويطلق الاكانيون على قضاء الانسان وقدره اسم تكرابيا Nkrabea وكان القضاء كثيرا مايبدو للانسان على شكل حمل ثقيل ، اذ على الرغم من أن القضاء كان الأساس في هويته الشخصية فان الانسان الحي لم يكن يربط نفسه بقدره • وكان يقال على الانسان الذى لا يأتي له قضاؤه بحسن الطالع ان له « أوكرابيري » أو قضاء اسود ، وكان يقال أيضا أن الرجل صاحب الطالع القرمزي ، يأكل دائما التوت والثمار الطيبة ويرتدي الملابس المطرزة • أما اذا كان قضاء الانسان اسود على سبيل المقارنة فان هذا يعني المقت والكراهية • ولم يكن في وسعه أن يستأنف أو يستدعي لتحسين قضائه ، اذ أن المشاكل تلاحقه وتتابعه بحثا عنه •

ويبدو أن « السانسوم Sunsum كانت مادة روحية تعتبر مسئولة عن « السوبان » التي تعني الشخصية والعبقرية والمزاج والكيف وتكون « السانسوم » معنوية في عملها لا آلية ، كما أنها قابلة للتهذيب والتثقيف • وبينما تكون الروح « الاكرا » هي العامل الذى يمكن الانسان من التنفس وتكون بالتالي مصدر حياته فان « السانسوم » ليست كذلك وكان يظن بأنها تستطيع أن تغادر الجسم أثناء نومه • وهي تمثل الشخص الثاني الذى يتراءى في الاحلام كشخصية مسرحية • فالسانسوم بالنسبة الى الانسان هو الروح التي يمكن للسحر أن يهاجمها ويوصف كأساس للخلق أو الشخصية ، بأنه قوي أو شرير ، أو طيب • ويمكن للمرء عن طريقه أن يصبح ساحرا ، أو ساحرة اذا كان المرء انثى •

وابرز الاكانيون أيضا عبارة « نتورو Ntoro ويكون هـذا المسمى

وراثيا ، بينما لاتكون الروح « اوكرا » أو « السانسوم » كذلك • ولا يخرج هذا الشيء من جسم الانسان عند موته كما تفعل الروح ، بل ينتقل منه الى اطفاله فان لم يستطع انتقل منه عن طريق آخيه الى أولاده أوبناته.
ويحل «نتورو» الوالد محل «نتورو» الوالد حتى سن البلوغ أو الرشد.
وليس للبلوغ عند الاكانيين سن معين ولكنه يعرف ويميز بظهور الشعر في الوجه مع غزارته ويبدأ « سانسوم » الطفل عمله عند البلوغ • ولكن «نتورو» الأب لا يتوقف كلية عن العمل لهذا السبب . وينسب الاكانيون في ايضاحهم الخصائص الموروثة كل شيء الى « نتورو » الوالد ، كما ينظرون اليه على انه مجموعة من الخصائص بل طراز فرد قائم بذاته من الشخصية • وهم يرون أيضا أن تعاون « نتورو » الوالد مع دم الأم على شكل قرابة • هو الذى يشكل الجنين ثم يصوغه على شكل انسان •

وأبرز الكانيون أخيرا « الموجيا » Mogya وهو طراز من العوامل الروحية وبات أساسا للعشيرة أو ما يسمونها « ابوسوا Abusua والاناث وحدهن هن اللائى يمنحن هذا الشيء والموجيا هذه هى التى تتحول عند موت الانسان الى شبحه « سامان Saman ويحتفظ الشبح بهيكله البدنى • وقد تتاح له فرصة التجسيد • على الرغم من أن هذه الفرصة لايمكن أن تتاح الا عن طريق امرأة من نفس العشيرة ولا يستطيع حتى التجسيد نفسه ، تمكين الانسان من تغيير العشيرة التى ينتمى اليها •

ويبدو من نظرية الاكانيين عن الانسان ان الشخصية والخلق الانسانيين كانا يعتبران مرتكزين على مجموعة من العوامل والتأثيرات ومنها الروح الموجهة « أوكرا » التى لاتصلح للتهذيب أوالتثقيف والتى لاتنحرف عن جادة الحق « والسانسوم » القابلة للتهذيب عن طريق الشرائع والسنين الادبية وعن طريق نظام العقاب والثواب التى تؤلف قاعدة المسئولية الشخصية والمعنوية « النتورو » التى يرثها الولد عن أبيه والتى تتصل الى حد كبير بوصف عدد من الاجراءات المعينة وتجنب اجراءات أخرى ، مبلورة الخلق عن طريق عمليات التحريم الدينية ، وأخيرا « الموجا » التى تضمن أن يكون الانسان مسئولا عن عقله وأن يكون انسانا حقا ولكن العوامل الروحية كانت تحتل فى نظرية الاكان عن الانسان دورا أساسيا •

وكان يظن أن الانسان بعد موته يظل قائما فى شكل الروح التى تعود الى مملكة الأرواح ، وفى شكل « الموجيا » التى تتحول الى شبح « سامان » يحمل نفس المعالم البدنية التى كانت فى الرجل المتوفى • ولا ريب فى أن هذه « الموجيا » المتحولة الى « شبح » هى المعنية فيما يسمى خطأ بعبادة الاسلاف .

وابرز آكانيون ايضا ثلاثة أنواع مما يسمونه « نسامانفو Nsamanfo

فهناك أولا الساماتيا Samanpa أو الشبح الطيب • وكانت صفة الطيبة تطلق على الشبح اذا لم تتل وفاة الانسان صاحبه سلسلة من النكبات العامة المشيرة الى سوء الطالع كوقوع وفيات أخرى في أسرته أو في المجتمع الذى كان يعيش فيه أو اذا توقفت بعد الوفاة سلسلة سابقة من نائبات الموت كانت تحل بالاسرة قبلها وتكون هذه الاشباح عادة حيية وتختفى وراء الزوايا ، عندما ترى انسانا حيا •

وكان هناك أيضا « السامان ـ توين ـ توين Saman-Twen-Twen وهو الشبح الذى لا يمكن دفعه أبدا • وكان مثل هذا الشبح يظهر عادة على فترات ويراه الاحياء حول الاماكن التى كان يؤمها صاحبه . وتعجز هذه الأشباح عن الذهاب الى عالم الأرواح التى تنتمى اليه • وتظل تحوم حول الزوايا المعتمة أو فى الباحات الخلفية للمنازل • وتستمر هذه الأشباح فى الهيمان حول الأرض كعقاب موقوت أو ازلى لها • وهى لاتملك قدرة على عمل الشر ، وتكتفى باحداث الخدوش ليس الا •

واخيرا كان هناك « التوفو Tofo » وهو شبح الانسان الذى لقى حتفه على نحو عنيف ومات ميتة قاسية . ونظرا لسوء طالع هذا الانسان فان طقوسا خاصة تحمل طابع الاستنكار ، تجرى له عند دفنه • ولا تستطيع هذه الأشباح ان تظل على وفاق مع الاشباح الطيبة ، ولذا تظل هائمة على وجهها وقد صبغت نفسها بالطين الابيض وارتدت ثيابا بيضاء • وهى على النقيض من الاشباح الطيبة كثيرة الجراة واستفزازية فى تصرفاتها •

وكان ينسب الى الأرواح انها تحمل رائحة معينة يقال انها تشبه رائحة النونوم Nonom وهو نبات يحمل رائحة عطرية معينة تشبه رائحة العبير ويكون الشبح ، عندما يرى ، مرتديا حللا بيضاء دائما وهو لايحمل مطلقا طابع الود والصداقة ، ولذا يحذر المرء دائما من أنه اذا لقى شبحا ومد اليه هذا الشبح يده لمصافحته فان عليه أن يسحب يده بعيدا فورا عن يد الشبح • لكن الشبح الطيب ينهاله عادة بالدعوات الصالحات لليتيم الذى خلفه صاحب الشبح • وللاشباح نظائر ماللناس من حواس وعواطف ، وبينها الجوع والظمأ والغضب وكثيرا ما تتطفل بشىء من عدم الكياسة على الموائد فتأكل غير مدعوة ؛ ويظهر أثر ذلك على المائدة اذ تختفى عنها صحاف الطعام بسرعة هائلة مما يدل على نشاطها فى الأكل وفى الشرب أيضا • ويلجأ الناس لمنع الاشباح من التهام طعامهم وشرابهم الى اسقاط كسرة من الخبز على الأرض يطرد سقوطها الأشباح عن المائدة • وترفع المقاعد الخالية أو تقلب رأسا على عقب فى غالب الاحايين لمنع الأشباح الضالة والمنهوكة من القعود عليها، واذا ماحاول انسان الجلوس على مقعد

يحتله احد الاشباح قبل ان ينهض عنه فانه يحس على الفور بالام شديدة في خاصرته ٠

وتسكن الأشباح الى حد كبير في عالم الأرواح ويقف الاكانيون من هذا العالم موقفا يجمع بين الاجلال وبين التطور ٠ ولعل أصدق وصف لهذا الموقف هو قولهم : انه لو لم يكن في عالم الارواح من سوء سوى الاسم الذى يحمله لكفاه هذا سوءا وعلى الانسان ان يذهب بنفسه الى ذلك العالم، اذ أن الرسائل لا تقبل ولا تحمل منه ٠ ولا يستطيع المرء أن يذهب اليه أيضا أنى شاء وأن يعود منه متى أراد ولو كان «أورفيوس Orpheus (١)» اكانيا ، لما عرف طريقا آخر له الى العالم السفلى سوى الموت ٠ وهناك نظام اجتماعي كامل بشيوخه ورعاياه يسود عالم الأرواح ٠ ولكن لا يعرف على وجه التحقيق اين يوجد هذا العالم . يقول بعضهم انه يقوم تحت الارض ويقول البعض الآخر انه هناك عاليا في السماء ٠ ولكن سواء كان هنا أو هناك ، فان هناك طريقا بينه وبين القبر ، انى كان هذا القبر ٠ وهذا العالم فسيح الأرجاء ويضطر المسافر اليه ، الى ارتقاء الجبال صعداً فيها أو هبوط الوهاد وتكون الطريق الى عالم الارواح بالنسبة الى الرجل الذى يموت ميتة طبيعية هادئة » مظلمة وقاتمة . أما الرجل الذى يموت ميتة عنيفة فانه يسقط بعض الصلصال الابيض منه على الطريق التى يسير فيها ٠ وهذا هو السبب الذى يجعل الطريق اللبنية (المجرة) فى السماء بيضاء اللون . وهناك فى الوقت نفسه اتصال بين الارواح والناس . والصعوبة الكبرى فى الذهاب الى عالم أرواح ليست ملاحية ، وانما تتعلق بالحلول وتناسخ الأرواح ٠ اذ لما كانت السماء تحيط بنا ، فان التحدث الى الله يتم عن طريق التحدث الى الرياح وتكون أرواح الجدود والاسلاف فى عين الطريقة في متناول الدعوة فى كل حين ٠ وفى الامكان استدعاؤها حسب الحاجة عن طريق طقوس من الابتهالات الخافتة التى لا يرتفع الصوت فيهـــا ٠

---

(١) اورفيوس : من أبطال الاساطير الاغريقية واشهر شعراء اليونان الغنائيين في عصر ماقبل هومر . عاش في ترافيا . قدم اليه الاله ابولو قيثارا . عزف عليه أعـــذب الالحان التى لم يطرب لها الناس وحدهم بل طربت لها الانهار والصخور التى أطاعت أوامره . بنى بعروس من عرائس الاحراش تدعى يوريديس التى ماتت متأثرة من عضة ثعبان ، وهم اورفيوس باعادتها من العالم السفلى الذى مضت اليه بعد موتها فهبط الى ذلك العالم حيث أخذ يعزف على قيثـارته مستجديا عطف الاله بلوتو الذى سمح له بالدخول وحمل زوجته على كتفه دون أن ينظر اليها حتى يصل الى العالم العلوى ، ولما خالف الشرط ونظر خلفه ، اختفت يوريديس أمام ناظريه وراح يهيم في الغابات مزدريا حب نساء ترايا اللائى صبون له فقطعنه اربا اربا ثأرا لقلوبهن الجريحة ولكن عرائس الشعر والموسيقى جمعن هذه الاربا ودفنها عنـد سفح الاولب بينما نقل كبير الالهة « زيوس » قيثارته الى النجوم ٠ — المعرب —

ويستدعى الاسراف فيما يسمى بعبادة الاسلاف ليقدموا النجدة والعون الى ذراريهم ، الذين يلقونهم بكل مظاهر التجلة والاحترام فى هذه المناسبات . وأساس هذا الاجلال مزدوج ، فالشق الاول منه هو أن هؤلاء الجدود هم اسلافنا او الكبار منا وهم على الاساس يستحقون اجلالنا والثانى انهم فى وضعهم الروحى أكثر تبصرة منا ، اذ انهم على اتصال دائم بجواهر الامور وأصولها ويكون الاحتفال بعبادة الاسلاف أيضا فرصة لتذكرهم ، وشكلا من أشكال التلاحم العائلى . ولا يمكن للاسرة الاكانية الا أن تنمو ، ولا تستطيع أن تتقلص أو تصغر . وذلك لان الاسلاف يؤلفون جزءا دائما منها . ولكن لما كانوا لم يعودوا يمتون الى نسق الاقانيم الثلاثة للاحياء فمن الواجب العثور على دروب للتشاور ، معهم والوصول اليهم . وتخلق هذه الضرورة الحاجة الى الطقوس . وليست طقوس عبادة الجدود أو الأسلاف طقوسا دينية للعبادة ، وانما هى مجرد أساليب مبتكرة للاتصال . وليس ثمة من احساس بالصفة الذاتية أو سلبية الذات عند الاحياء اثناء ادائهم هذه الطقوس . ولا تكون السلالات التى ينتمى اليها هؤلاء الاسلاف مبتكرات سياسية وان كان هؤلاء الاسلاف يعدون انفسهم للاستعمال فى صياغة المطالب السياسية وتبويبها . وهم فى حد ذاتهم مقدمات للترتيبات السياسية . ولعل هذا هو السبب حقا فى امكان ادراجهم فى البرهنة على هذه المطالب والادعاءات ودوام التسلسل العائلى هو فى حد ذاته أيضا أسلوب للحفاظ على الوثائق العائلية .

وتكون السلالة مجموعة متعاقبة شكلية ورسمية كل الرسمية ، وهى كاملة كل الكمال فى اعرافها ومحظوراتها ، ورموزها وشخصيتها. وترمز الشخصية الى درجة رفيعة من الاندماج والتكامل والتنظيم . ويوجد الدليل على هذه الحقيقة فى البيانات التى تقول ان هذا أو ذاك ليس من الخلق أو الشخصية لا جزئيا ولا كليا . ولا تكون للأمة أية شخصية الا اذا كانت هذه الشخصية منظمة تنظيما عاليا فى مواقفها وفى استجاباتها . ولما كانت السلالة بالنسبة الى هذه الاهداف نظاما مغلقا ، فانها تكون صاحبة شخصية ، يمكن أن يطلق عليها فى الحقيقة اسم « شخصية مجموعة » وقد لا تكون فكرة الشخصية المجموعة بعيدة عن المتناول وقد يرجع شأنها بسرعة الى الجنان أو الجحيم وذلك بسبب التنسيق القائم فى مفاهيمها . لكن الطبيعة الوراثية « للنتورو » والموجيا تضفى على أى حال وحدة اضافية على السلالات القائمة عن طريق الامهات ، وتعزز الشخصية المجموعة أيضا . وتضفى العلاقات المترابطة لعدد من السلالات فى المجتمع بطريقة معينة شيئا من التشكيل الرسمى على المجتمع الاوسع أيضا وتخلق الأساس لشخصية المجتمع وشخصية المجتمع هذه زبدة نظرية الاكانيين فى شئون الدولة . فهم يجسمون الدولة تجسيما كاملا . ويعطونها الأولوية على كل

فرد . ويصدق هذا أيضا بالنسبة الى العشيرة أو ما يسمونها « ابوسوا Abusua » وتتفوق الدولة « أومان Oman » في معرض المقارنة على العشيرة . وتفرض القرابة التي يخلقها التنظيم العشيرى أولا وقبل كل شيء واجبات على أعضائها . وبهذه الصورة يصبح المجتمع الاكانى قائما على الواجبات لا على الحقوق . أما الواجبات فطقوسية وبشرية في آن واحد . وتثبت اقدامها على الصعيد الانسانى . ولا يقصد من مسئولية العضو في العشيرة تجاه سعادة الأعضاء الآخرين وخيرهم ، تشجيع الكسالى والحمقى من الآخرين ولا تعنى هذه المسئولية ، مطلقا أن يخرج المرء على اجماع العشيرة وان يهرع الى مساعدة المحتاجين ، الحمقى . وهناك مجموعة من الأقوال المأثورة التي تؤكد هذه النقطة . فعندما يكون المرء في حاجة فانه يلتقط الجوز أو اللوز من كومة النذورات هذا ما يقوله أحد هذه الأقوال وهو لا يفيد كبير فائدة في استخلاص صورة عن ابناء العشيرة . وهم بينها لون بجودهم على شخص واحد . وهناك أقوال أخرى تسير على هذا المنوال ..

عندما تكون في حاجة ، فانك تأكل جلد الماعز ......

: تحيل الحاجة الاشراف الى عبيد أذلاء .

: الفقر يشبه الجنون .

وتتخذ مسئولية عشيرتك شكلا فعالا ، عندما تغدو غريبا في قرية من القرى ، أو عندما تغدو معدما ذا خصاصة ، أو تتراكم عليك الديون .. دون جريرة منك ، فتصبح قريبا من لحدك . وهناك قول يؤكد الحاجة الى التضامن والدوام عندما يعلن أن العشيرة أشبه ما تكون بشجيرة مزهوة تمثل ابناءها في مجموعات وعناقيد ، وهناك قول آخر بأن شجرة العائلة لايمكن تشذيبها أو قطعها .

وعلى الرغم من أن العشائر ، هى أساس الدولة فانها لم تكن متساوية من ناحية الأهمية . فهناك عشيرة واحدة أو فئة خاصة من العشائر ، يختار منها الحكام دائما ، هذا اذا افترضنا التكافؤ في سائر الامور الاخرى . ويقول الاكانيون أن جميع العشائر متساوية ، وأن هذا التساوى يسعدنا . ولكننا نتطلع على أى حال الى الجوازات التى تخرج انزيت . ولا ريب في أن اقامة سلم طبقى عشائرى يعد ابتكارا تماسكيا في بناء الدولة اذ أن هذا السلم أقام الأساس للقيادة أو السلطة للحكم فأضعف بذلك من احتمالات الصراع على السلطان من النوع الذى يهدد بالتجزئة ، بينما حافظ في الوقت نفسه على طرز من ديمقراطية القيادة عن طريق الانتخابات .

واتجه تعليم الشباب كله اتجاها جماعيا . فالدولة تجسد في

هذا التعليم على أنها تضم عددا من الاسلاف المبجلين . وعكست فى تجسيد منظور بنيان العالم الروحي ، الذى تظل على اتصـــال دائم به . ومن هنا كانت الدولة والحالة هذه بناء دينيا . وقد وجه تعليم الشباب توجيها يضمن العناية بهذا البنيان الدينى ويشد من ازره . وهناك قول من الوعظ والتحذير ينص على انه عندما تشرع الدولة فى الانهيار ففى الامكان العثور على سبب هذا الانهيار فى البيت . وهناك قول آخر يؤكد وجوب استكمال امتصاص الفرد فى الدولة وينص على انه عندما تشرع الدولة والشعب فى الشجار ، ويشج الواحد منهمـــا رأس الآخر ، فان آثار هذا الشـــج تظل فى مكانها لا تمحى ، ولا ريب فى أن هذا القول يضمن اطلاقية حق الدولة فى طاعة الافراد . لـكن حق الدولة هـــذا لايحمل طابعا استبداديا أو طوعيا وانما يقوم على التفكير ، وعلى الاقرار العام بأهميتها . مع الميل كل الميل الى تحقيق الخير العام .

وكثيرا مايجهر بالرأى القائل بأن الانسجام بين المجتمعات الافريقية يعرض حدودا ضيقة على حرية الفرد وحوافزه وانه قد يؤدى ايضـــا الى الكثير من الخور وضعف العزيمة ، لكن فى هذا القول فهما خاطئا ، ولا ريب ، فمن الواجب فى كل دولة خلق الاجهزة اللازمة للحفاظ على الأمن العام وتوطيد دعائم الانسجام العام والحيوية والكفاية . وهناك فى الدولة الحديثة منظمات قانونية للحفاظ على الامن والاستقرار ، كما ان هناك مجموعات من المنظمات المهنية وشبه المهنية تقوم بوضع قواعد اضافية للسلوك . كمنظمات الصحفيين والمحامين والاطباء ولاعبى كرة المضرب (التنس) وهلم جرا . وهنـــاك ايضـــا نواد ورأى عام يقران سلسلة من الاجراءات التى تضمن الانسجام عن طريق الافكار المتعلقة بما يجب ألا يفعله الناس ، وما يحق لهم أن يفعلوه . أما فى المجتمعات التى لاتكون منظمة على هذا النحو فان الاهداف التى تسعى اليها هذه الهيئات ، وما تزال مشروعة ومرغوبا فيها . ويغدو التطوير الواســـع النطاق لروح الجماعة ، الطريق الأفضل لتحقيق هذه الاهداف . وقد نمت هذه الروح فعـــلا فى مجتمع الاكانيين عن طريق التعليم والراى العام . وعندما تظهر تلك الهيئات والنوادى التى أشرنا اليها الى حيز الوجود فان الافراد يغدون متحررين من الالتزامات المباشرة الصالحة تجاه مجتمعهم . ويعبرون عن التزاماتهم هذه بصورة مباشرة عن طريق الولاء لهذه الهيئات والنوادى . فالالتزامات مازالت على حالها ، وكل ماتغير فيها هو منظرها . ولكن لما كانت هذه الالتزامات قد غدت الآن أضيق تركيزا ، فان الفرد يحصل على شعور من التحرر ومن المبادرة والقدرة على الخلق ، ولقد كان تقسيم دولة الاكان الى عشـــائر فى

الحقيقة ، طريقة أيضـا لتخفيف الاعبـاء التى تفرضـها الدولة على الافراد . وفى وسع الافراد أن يركزوا عنايتهم على العشيرة بدلا من الشعور بمسئوليتهم المباشرة عن العالم . وكانت العشيرة وسيلة لاخفاء صفة الفعالية على روح الجماعة .

وكانت هذه الفائدة من العشيرة قد مالت بصورة حتمية لانهـا احالت التزامات الافراد نحـوها الى التزامات روحيـة ومعنوية الى تحديد حرية الفرد فى التعبير والعمل ، فى أكثر من مجرد ولاء اجتماعى الى ناد أو ولاء مهنى الى منظمة . وكانت العقوبات التى تفرض بالنسبة الى اظهار عدم الولاء ، صارمة كما هو منتظر تماما . وكان ينظر الى عدم الولاء فى البنيان المجتمعى ، كخطر يهـدد تركيب المجتمع الذى يشمل أرواح الموتى من الاسلاف . وهكذا كان عدم الولاء للعشـيرة يعتبر فى بعض الحـالات المعينة وكأنه يحمـل طابع انتهـاك حـرمة المقدسات . اما عدم الولاء للنادى أو للمؤسسة المهنية ، فلا يعـرض مقترفه بسبب التحـديد فى التوجيـه الى أكثر من عقـوبة الطرد أو المطالبة بالاعتذار . فالمجتمع هنا لايمكن الفرد من الشعور بالتهـديد المباشر كما يشعر المجتمع هنا بمثل هذا التهديد من جراء عدم الولاء للعشيرة .

ولكن اذا كانت العشيرة قد حددت حرية التعبير والعمل ،وحددت كذلك تنوع الأحاسيس عند أعضائها ، فعلينـا ألا نستنتج من ذلك أن الفكر كان فاشلا أو معرضا للحصر والاختناق . ولم يعمل الحظر الذى فرض على التعبير عن بعض الآراء الخطرة والملحدة ، عمله الا بحضـور كبراء العشيرة واسلافها وقد تذمر أساتذة المدارس من الصعوبة التى واجهوها فى حمل الاطفال الافريقيين على التعبير عن آراء معينـة فى خطبهم . ولا يرجع السبب فى هذا الى أى افتقار فى الافكار المحدودة والحية والاصلية والخلاقة وانمـا الى العجز عن طريق التنشئة عن اشراك المسنين ، وهم يمثلون هنا الاساتذة معهم فى أعمالهم . ولا تقف فروض الانشاء التى يكتبها الأطفال انفسهم موقف التوازن والتطابق مع الخطب التى يلقونها ، ويمتد هـذا الموقف من المـدارس الاولية الى الجامعات . وهناك قول مشهور عند الاكانيين يضع كلمات المسنين فى منزلة التعاويذ والرقى . فالمسنون هم مستودع الحكمة الشعبية ، ولا يمكن تكذيبهم أو مخالفتهم بسهولة . ويقوم تبرير هذا الموقف فى الحقيقة الواقعة وهى أن حكمة افريقيا كانت دائما من الطراز العملى . وقد يكون الخلاف العملى بين من يتعلمون وبين من يعرفون ، فى المسائل النظرية حيث لا يـكون للاخطاء من نتـائج جذرية أكثر من تلك التى تنبثق عن اضاعة الوقت والجهد خلافا لا منطقيا وتافها ، ولكنه يكون

فى الوقت نفسه تمرينا نافعا ، وعندما يكون المسنون محتلين مراكز عالية فى السلم الاجتماعى ، لايمكن للخلافات العامة مع الناس الاقل سنا والاخفض مكانة الا أن تؤدى الى خسارة فى الهابة وفى ماتحمله مراكزهم من قدرة على التأثير . وقد تكون الحكمة التى مثلوها كافية لمطالب العشيرة واحتياجاتها ومطالب الدولة واحتياجاتها فى الوقت الذى عاشوه فى الماضى ولكنها لم تعد كافية اليوم . ولذا فقد بات الخلاف معهم فى هذا العصر الجديد من البحث والاستقصاء أمرا معقولا .

وكانت القيود على العمل ، لا تفرض عادة الا فى حالتين : حالة اختيار الزوجة ، وحالة اختيار الطريق الذى سيسلكه المرء فى حياته لتأمين معاشه . ففى حالات الزواج ، تبرز جميع الافكار والاعراف المتعلقة بالتسلسل العشيرى ، وتتخذ صفة العمل . ويكون الزواج عند العشائر من الاباعد الا بالنسبة الى الملوك الذين يستثنون من هذه القاعدة لاسباب معينة ومن الطريف أن السبب فى الاستثناء هو عين السبب الذى أدى الى وضع القاعدة العامة . أما بالنسبةالى ما كان يفرض من قيود على حرية اختيار العمل الحياتى . فهذا شىء متوقع فى مجتمع لاتتوافر فيه وبشكل بارز الفوائض فى السلع والثراء . وكان اقتصاد المجتمع الاكانى مجرد اقتصاد قوتى . لا فائض فيه الا القليل . وفى مثل هذه المجتمعات كالمجتمع الاكانى . تكون الفرص قليلة ونادرة وكان أرباب الفكر الذين لا عمل آخر لهم يجدون أنفسهم مرغمين على الاعتماد كلية على رعاية الملوك والكبراء ولما كانت طوالع الفرد مرتبطة كل الارتباط ، مع طوالع أسرته فان اختيار الفرد للعمل الذىيعتاش منه . يغدو أمرا مندمجا مع كيان الاسرة اذ لما كان ثراء الفرد يعتبر مصدر عون مادى للاسرة فى أوقات الشدة ، ولما كان عوزه يفرض التزامات الغوث على الاسرة ، فان اختيار مصدر الرزق بالنسبةللفرد يغدو مرتبطا باراء الاسرة ومشاعرها .ولم يكن هذا الاختيار يتطلع الى الاكتفاء الذاتى فحسب .بل كان يهدف أيضا الى الوفاء بالالتزامات العائلية . ومع تزايد الفرص واتساعها ، أصبح فى وسع عدد أكبر من افراد الاسرة أن يكدوا ويكدحوا لا لخيرهم فحسب بل ولخير أسرهم أيضا . وكلما ازداد عدد هؤلاء القادرين ، كلما قل خطر دعوتهم الى مد يد العون ، وكلما زادت فرصهم فى التحرر والانعتاق .

واعتمدت قواعد التقبلية فى الفن والادب والتقنية أكثر ما اعتمدت على الفهم الفردى ، لا على الحاجة الاجتماعية .

والسبب الذى يشرح ظاهرة الزواج من الاباعد عند العشيرة وظاهرة الزواج من الاقارب عند الشيوخ ، هو عين السبب الذىيفسر

الحق فى الوراثة والتسلسل . ولا يمكن فهم حق الوراثة دون فهم نظرية الملكية فلقد عرف الاكانيون نظامى الملكية الفردية والملكية العامة واقروا بهما . وكان ادراكهم فى الحقيقة لآثار الملكية الفردية ونتائجها كبيرا . وكانت الارض هى الشىء المهم الذى يمتلك مشاعيا أو بصورة عامة . فهى ملك مشترك للعشيرة كلها بصورة مستديمة من احيائها وأمواتها ، ولا يمكن خروجها من هذه الملكية لا ككل ولا على أجزاء . ولم يكن نظام الملكية القائم على المزارعة ، يتضمن أى حرية فى التصرف بالارض وليس فى انكلترا أى شكل من أشكال الملكيةالمطلقة للارض ، اذ أن المالك النهائى لها هو الملك ممثلا الدولة . ولعل أقوى أشكال الملكية المتاح فى انكلترا لرعايا الملكة ، هو حق الحيازة المطلق المستند الى الايجارة الاسمية . واذا مانظرنا الى هذا الحق نظرة عمليةبالنسبة الى أهدافه العملية ، تبين لنا أنه لايعدو أن يكون ملكية مطلقة . أما عند الاكانيين فكان التطبيق العملى ، معادلا للنظرية فى انكلترا. فالارض فى عهدة العرش أو عهدة مقعد الشيخ القبلى . وهما يقومان علىرعايتها وصاية عن الشعب ، ولم يكن حتى للشيخ نفسه حق التملك المطلق للارض المصنفة فى فئتى « أراضى الادارة » و « أراضى العرش » ويستغل الصنف الثانى من الارض شخصيا من قبل الشيخ الحاكم طيلة الفترة التى يظل فيها شيخا ويقتضى السماح بالتدخل فى هذه الارض موافقة شخصية من الشيخ . أما أراضى الادارة التابعة للعرش أو لمقعد الشيخ ، فهى الملكيات الخاضعة لسلطة الشيخ وصلاحياته وهى فى الوقت نفسه المناطق الارضية التى يملكها رعاياه. وكان النظام السياسى الاكانى يفصل بين الارض والسكان ليقيم على أساس هذا الفصل نظام الحكم فى البلاد ، وتقوم محكمة الشيخ وتحت اشرافها بتوزيع الاراضى الادارية أو أراضى الدولة ، توزيعا متكافئا بقصد المزارعة والتصرف . وكان هذا النظام يعم افريقيا كلها ، ولم يتعرض لبعض التعديلات الا نتيجة لبعض الاحداث التاريخية كما وقع فى اوغندة مثلا ، حيث ادخلت أنظمة تفصيلية مسهبة يمكن ايضاحها على ضوء العناصر الاقطاعية التى أدخلها الغزاة الاجانب .

وأدت ندرة الملكيات الخاصة التى تحول موضوع تعيين الورثة الى قضية شكلية . وكانت الأولويات فى الميراث تصنف على النسق التالى :

١ ـ الاخ الاكبر من الام نفسها .

٢ ـ الابن الاكبر للاخت الكبرى .

٣ ـ الحفيد عن طريق البنت .

٤ ــ فرع آخر من الاسرة نفسها .

٥ ــ العبد « الرقيق » .

وعلى الرغم من أن تسلسل الوراثة كان شكليا ، فان احتياجات الوصاية ، جعلت من اعتبارات المصلحة . أمرا لازما فالوارث كمورثه لا يملك من حقوق الملكية الا التصرف فيها . ولذا ففي الامكان تخطيه دون أية ضجة اذا لم يكن صالحا لهذا التصرف . وكان يطلب أن تتوافر في الوارث مؤهلات شكلية وغير شكلية ، أي الطاقة والقدرة وكانت العاهات أو العيوب البدنية بالاضافة الى العجز ، سببا يدعو الى ايثار الابن الاكبر للاخت الكبرى على الاخ الاكبر من الأم نفسها . وكان الرقيق يفضل أحيانا على الاعضاء الاحياء من الاسرة نفسها . وهناك مبدأ قانوني يطبق في المنازعات على الارث وهو يقول بكلمات عدة . ان أبناء الاخوة والاخوات لا يرثون طالما أن هناك أخوة من أم واحدة .

وهناك بالطبع سبب لهذا الترتيب في الارث فالمرأة في عرف الاكانيين هي مصدر العائلة . ولهذا كان أبناء الاسرة والعشيرة يحددون بالنسبة الى القرابة عن طريق النساء . فالأم هي التي تلد الطفل . وهو أقرب في الظاهر الى أمه من أبيه . فهي التي تحمله في رحمها وهي التي ترضعه من دمها . وهي التي تقضي على ولدها « الموجيا » وهو العامل الروحي الذي يقرر شكل الطفل . وهناك قول مأثور بأن أم طفلك هي قريبتك . وكانت حيازة الملكية وسيلة اقناع لتحديد الوراثة بأولئك الذين يرجعون في ظاهرة « الموجيا » الى مصدر مشترك . وكان التزاوج بالنسبة الى الملوك أو كبار الشيوخ ينحصر في العشيرة نفسها ، للحفاظ على نبالة العشيرة ولتقرير صحة نسب الملك تقريرا كاملا .

ولم يكن خط الوراثة بعيدا عن طراز التنظيم الاجتماعي فعندما يغدو التنظيم وجودا قائما بذاته . أو شيئا في حد ذاته لا يرجع في مشورته الى غيبيات الاولين فان المجتمع يساس على أساس اقتصادي محض . وعندما تغدو المهام الاقتصادية للذكر فعالة الى حد معين فان خط الوراثة يتحول الى ناحية الآباء بدلا من الامهات . أما عندما تكون المرأة هي التي تتولى تصريف هذه المهام ، فسواء أكان المجتمع يعود في أموره الى غيبيات الأسلاف أم لا يعود فانه يظل مرتبطا بأواصر السلالة عن طريق النساء . وفي مجتمع الاكان ذي الطابع التقليدي الصرف . كانت الام هي المسئولة عن آداء الالتزامات الاقتصادية للطفل مسئولية كاملة تقريبا . ولهذا كانت ارتباطات الاطفال بأمهاتهم

تعتبر بدورها ، من النوع الذى لا تفصم عراه ، وهناك قول مأثور بأن على الطفـل اذا ماوقعت أمه فى معرة ألا يحـاول التخلى عنهـا بحثا عن أم جديدة .

وكانت تربية الطفل عملا يقتضى من الام الانهماك كل الانهمـاك والكب على تنشئته . وقد مكنت حكمة الاكانيين وتجاربهم من تأمين رصيد ضخم لهم فى هذا الميدان . وكانوا يغرسون الفضائل فى أطفالهم عن طريق التمرين العملى أكثر من الفهم النظرى .

وهناك كما يتوقع المرء عدة أقوال مأثورة وحكم تنطوى على هذه الفكرة . واود هنا أن ادرج بعض هذه الاقوال :

« لا ينشأ الطفل الذى يريد له أهله النجاح فى حياته ، دائمـا على فراش لين من الورق »

« حد السكين التى لا تأمين لها ، هى التى تنطلق حرة من يدى الطفل » .

« اذا حاول الطفل التمارض وادعى الموت ، فعليك أن تتظاهر بدفنه » .

« اذا اقترف الطفل تسع سيئات ، فان نتائج خمس منها ترتد عليه » .

« اذا أصر الطفل على الامسـاك بالفحم المحترق بيده ، فعليك أن تفسح له المجال ليفعل ذلك . وعندما تحترق يداه ، لا تجد نفسك مضطرا الى تشجيعه على القاء النار من يديه » .

ولنصائح المسنين قوة وتأثير أكثر من الرقى والتعاويذ . وفى وسـع المرء أن يستخلص من هـذه الحكم والأمثال الشعبية السـابقة أن الاكانيين كانوا يؤمنون ايمانا عميقا بانضبـاط الاطفـال ، وكانوا يمنحون لكبير السن الحق كل الحق فى ارشاد الشباب وتوجيههـم . وكانوا يؤثرون الحكمة دائما على السلطة والغرض ، وهذا أمر يظهر بوضوح فى أنظمة الارث عندهم . وكانوا يقولون أن الحكيم العاقل ، يولد قبل أن يولد السيد المطاع . وعلى الرغم من ان الاكانيين شغفوا بالحكمة كل الشغف ، فان موقفهم من الحمقى ، لم يكن قاسـيا أو صلبا ، وانما ينطوى على السخرية والزراية الخفيفة . ونظرتهم الى الحكمة نظرة عملية ، فالأحمق هو الذى يخسر دائمـا فى مجـالات العمل ، ولا يكتفى بالتدليل على عجزه فى ميدان النظريات . وها انا ادرج بعض الامثال والاقوال المأثورة عن الحمقى ..

يقول الاكانيون .. « يقول الاحمق دائما ، ان المعنى صـديقى لا أنا » . وهم يعنون فى قولهم هذا مايتميز به الاحمق من تقلب ، ومن تهرب من المسئولية ، ومن عجز عن الافادة من شيء ، لايدفع الى فمه دفعا . أما الحكيم العاقل ، فينتفع كما يفترض كل انسان ، من كل شيء .

فهم يقولون .. « عندما تتلو مثلا على مسامع أحمق ، فعليك أن تشرح له مايعنيه » .

وهم يقولون أيضا .. « الاحمق فقط هو الذى يحتاج الى من يفسر له المثل » .

ولا ريب فى أن هذا القول .. يعنى تماما ما يعنيه المثل اللاتينى المشهور .. « الحكيم تكفيه الاشارة » .

ويتحدث الاكانيون عن عدم تبصر الاحمق فيقولون .. « عندما يبعثر الاحمق ذهبه .... يكتفى بأن يقول .... ان الخلل أصـاب ميزانه » .

ولما كان الاحمق لا يقوم بأعماله مفتوح الاعين وعن بصيرة ، فهم يقولون .. « الاحمق هو من يبيع له الناس « الطماطم » التى يملكها »

وأعرب الاكانيون عن مقتهم للآراء العلمية الاكاديمية الصرف فى قولهم ...

« الحكمة ليست كالمال ، فهى لا تقيد ولا تخفى »

ويؤدى الافتراض بأن الحكيم ينتفع من كل وضع من الاوضاع الى تفسير حرفى واقعى للحياة . وهم تمهيدا لهذا الاحتمال يقولون بشيء من الفلظة والجفاف ..

« عندما يتعامل حكيمان عاقلان مع بعضهما تختفى العواطف فى تعاملهما » ..

وهم يقولون فى المعنى نفسه ..

« يستخلص الحكيم العاقل ثمانية جنيهات من الاحمق ببنس واحد » .

ولكن هذا الطراز من التعامل لا يطرى كثيرا ، ولذلك فهم يوجهون التحذير التالى ..

« عندما تحتال على أحمق ، يكتفى العاقل بالتفرج عليك » .

وتسهل ألوان الحكمة الاكانية العملية والخيالية ، وهي تعكس صور الحكمة الافريقية عامة على المجتمعات الافريقية بصورة فورية مهمة تعصير هذه المجتمعات واعادة بنائها على اسس حديثة . والحاجة الى الاعمار واعادة البناء ، هي في حد ذاتها مهمة عملية . وتؤلف مشاكلها الموضوع الذي سأطرقه في الفصل الاخير من هذا الكتاب ، وأرى أن اكتفي هنا بالقول ، بأن مواقف الاكانيين المتعلقة بالحياة هي في واقع الامر مواقف عصرية وناضجة كل النضوج . فلقد كانت روح الجماعة قوية كل القوة على الصعدان الخفيضة المعنية من الانماء الاقتصادي، وتوحي طبيعتها السلبية مبدئيا ، بعدم التدخل في شئون هذا الانماء . ويتطلب الاعداد للنهوض بافريقيا اقتصاديا الكثير من الآلام والتضحيات التي تقتضي اعادة النظر في مواقف الافريقيين بصورة عامة من الفقر والثراء . وهنا يجد الإنسان نفسه مضطرا مرة ثانية الى العودة الى الأمثال والاقوال السائرة ، للكشف عن المبادىء التي تنطوي عليهـا هذه المواقف ، وعن الاحكام التي يمكن صدورها في قضايا الاقتصاد المالية . وهنا أدرج بعض الامثال ذات الصلة بالموضوع . اذ يقولون . .

« في حالات المسغبة والعوز الشديد ، يعيش الانسان في الغابات كما تعيش الحيوانات » .

« الخصاصة تدفع المرء الى البحث عن « الجوز » في أكوام القاذورات » .

« تحيل الفاقة الشريف الى عبد »

« الفقر هو الجنون »

ولا ريب في أن هذه الامثال توضح الحدود التي يستطيع الفقر أن يدفع بالانسان اليها . ويظهر تشبيه الفقر بالجنون ، حكمة بالغة واستشفافا مهما لذلك المظهر من مظاهر اللامسئولية التي يخلقهـا الفقر في بعض الأمزجة . لكن الاكانيين لم يكسبوا على أي حال ذلك الانطلاق من الطاقات الخلاقة التي يستطيع الفقر أيضـا دفعهـا واستفزازها . وقد أظهر الاكانيون في اعترافهم بما يصحب هـذه الطاقات من قسـوة ووحشية ، مايتميزون به من انسانية أساسية . ولقد سبق لهم أن قالوا . . « لو لم تعرف أوروبا الفقر لما ترك الرجل الأبيض أهله ليعيش في بلاد الرجـل الأسود » . ويحسر هـذا القول النقاب ، عن أن الروح التي غلبت على بعض الاكانيين في الدفاع عن أنفسهم ضد محاولات الاوروبيين استيطان أراضيهم أو انتزاعهـا لم تكن ناجمة دائما عن التعقيدات الغيبية التي يربطون بها أراضـيهم الى أفكارهم . وهـكذا تحقق لهم بسرعة فهم العـلاقة القائمة بين

الحاجات الاقتصادية والحوافز الى فظائع الاستعمار . وقد اكتشفه وجه الشبه القائم بين الفقر والجنون فى أقوال محدودة ، عن المزاج الذى يسيطر على الرجل الفقير ، كالقول المأثور ..

« ليس للفاقة من أصدقاء »

وتحيل الفاقة الانسان فى المجتمعات الشعبية الصحيحة ، اما الى اله أو الى وحش كاسر .. كما يقول المثل ..

« لا يغضب الرجل الفقير أبدا » ..

ولا ينجم هذا الموقف عن أن الرجل الفقير لا يستفز ، فالفقر وقوة الشخصية ضدان لايجتمعان أبدا .. وقد تواترت امثال عدة اخرى ، عن حطة مكانة الفاقة ، نجتزىء منها مايلى :

« لا يتناقل الناس اقوال الفقراء المأثورة »

« يفصل فى قضية الرجل الفقير فى جلسة قصيرة »

« عندما يرتدى الفقير قلادة من أرق أنواع الحرير ، يقال بأنه يرتدى حجابا من الاحجبة التى تعلق فى رقاب الاغنام » .

.. « انا فى حاجة ، أرجو أن تفعل شيئا لى » .. هذه هى الطريقة التى ينقلب الناس فيها عبيدا » .

ويظهر الاكانيون فى القول الاخير مدى احترامهم للاستقلال الشخصى ، ولا ريب فى أن هذا الاحترام كان مرتبطا بالمسئولية السلبية والاشتراطية التى تحملها العشيرة بالنسبة الى عنايتها بأفرادها وليس ثمة من شك فى أن المجتمع الشعبى الاكانى يشبه الى حد بعيد « دولة الرفاة الاجتماعى »

وكان الاقتصاد الشخصى أمرا مفروضا . وكان يطلق على كل من يفتقر اليه صفة الحمق ، كما سبق وبينت فى المثل الذى أوردته عن الاحمق والمتعلق بموازينه . ويقول الاكانيون ان الفاقة لا تحدد موعدا أو تاريخا لمجيئها .

ولاحظ الاكانيون أيضا العلاقة بين السلطة والمكانة والثراء فقالوا ..

« لايمكن للمرء أن يضايق آخر بفقره »

« الغنى هو رجل السلطة »

« المال أحد مضاء من السيف »

« عندما يأتى المال » ويمضى ، لايخلف وراءه شيئا »

« المال كالخادم ، ان أسأت معاملته ، فر منك ومضى »

« عندما يثمل رجل ثرى ، يقول الناس عنه انه معكر المزاج »

« تختفى دائما الآثام التى يقترفها الغنى »

« الشهرة القائمة على رفعة النسب لا تنتشر ، أما الشهرة القائمة على الثراء ، فيذيع أمرها وتنتشر »

« لايطبخ المرء رفعة نسبه ويأكلها ، لكن الثراء هو كل ما يهم »

ولم تكن الفاقة مرتبطة بحكم الضرورة مع الرق ، عند الاكانيين، وان كانت من ناحية المنزلة الاجتماعية مرتبطة به . وكان فى وسع أى عبـد من العبيد أن يطالب عن طريق الـكفاية » والقـدرة ، بالحق فى الوراثة ، كما كان فى وسعه على سبيل اليقين أن يغدو ثريا غاية الثراء فى كثير من الحالات . وكانت هناك طرق ثلاث متبعة فى تحول الانسان الى عبد من العبيد . فهناك أولا أولئك الذين يتطوعون بوضع أنفسهم تحت تصرف احد السادة ليتولى حمايتهم واطعامهم وايوائهم ، أو حتى ليتناولوا منه أجورهم . وكان هناك ثانيا أولئك الذين يضعهم أقرباؤهم رهينة أو ضمانة لديون يقترضونها ، وحتى يتم تسديدها . وتضم هذه المجموعة اولئك الذين يلقى عليهم القبض ليكونوا رهائن وفاء لدين فى العملية التى يطلقون عليها اسم « بانيارنيبح » . أما الفئة الثـالثة فتضم أولئك الذين يولدون أرقاء من آباء وأمهات من الرقيق . ويعمل افراد هذه الفئة عادة فى حمل الاثقال ، وتقديم العون فى زراعة الأرض .

وكان العبيد يؤلفون جزءا من متاع البيوت ، حتى ولو كانوا من احط الفئات أو أفراد المجتمع ، وعلى الرغم من انه لم يكن لهم خيار فى انتقاء ساداتهم ، الا انهم لم يكونوا يعاملون بقسوة وغلظة ، اذ ان القول المأثور عن الاكانيين ، يؤكد أن جميع الناس هم عباد الله . وان ليس هناك من عيال للارض . وكان السؤال يوجه دائما الى الذين الغوا اساءة معاملة عبيدهم » وفى هذا السؤال الكثير من المنطق والبلاغة ما اذا كان « كوبوبى » سيستطيع حمل الطبل الضخم والكبير لو انه كان بشرا » ولدته امراة . وكان فى وسع العبيد أن يتحرروا من الناحية النظرية اذا آقاموا الدليل على معاملتهم بوحشية . وكان يقال فى الوقت نفسه ان المرء لا يقتنى عبدا ، ليلقى المهانة منه أى من هذا العبـد . وقد سجلت سفاهة بعض العبيد فى القول المأثور » بأن العبد اذا جمع بعض الثروة ، نسب نفسه الى عشـيرة « نسـونا » Nsona ، ذات المركز القيادى . وكان يسمح للعبيد باستغلال الممتلكات التى يحصلون

عليها بالطريقة التى يشاءونها ، وكثيرا ما أصبح بعضهم أكثر ثراء من سادتهم ، وجمعوا حاشية أكبر حواليهم ، وسيطروا على جنود من الاحرار .

ولم تكن هناك فى الوقت نفسه اية مسئولية على العبد من الناحية النظرية ، وعندما يقترف اية أخطاء أو أعمال ، سواء أكان ما يقترفه في خدمة سيده أم لا ، وتنفيذا لأوامره أم لا ، فقد كانت مسئولية هذه الاخطاء تحمل على السيد نفسه . والسيد هو المسئول عن ديون عبده . وعن التعويض على ما يلحقه بالآخرين من أضرار . وولاء العبد وطاعته لسيده المباشر ، ولا يمكن أن يطالب سيد السيد بنقلها اليه . ويرجع الاكانيون فى أصول الرق عندهم الى الايام التى فقد فيها بعض الاشخاص الحائرين والقلقين استقلالهم . وأصبحوا يعتمدون في معيشتهم وأمنهم على غيرهم . ويقول المدافعون عن تجارة الرقيق وهى تجارة لا شأن لها بأوضاع الرق عند الأكانيين انفسهم بشىء من المكر ، ان من حق الغرباء أن يشتروا أطفال الاكانيين ، اذا كان أباؤهم يملكون الحق فى بيعهم وقد كتب رويمر Roemer المؤرخ الدانمركى الذى عاش أمدا طويلا فى ساحل الذهب وبلاد الاشانتى كتابا فى عام ١٧٤٩ نفى فيه هذا الادعاء أشد النفى . وقد بنى الادعاء نفسه على سوء فهم لعبارة « اوبا Oba » الاكانية فقد فهم التجار الاوربيون العبارة الاكانية « مى دزى مى بابى أوبا Me dze meba bi oba على أنها تعنى « لقد جئت بولد معى » بينما تعنى « لقد جئت بغلام ــ أى غلام معى » وهى عبارة يقولها الاكانى عندما يعرض شخصا للبيع.

نظرية الأكانيين فى الحكم

تقضى نظرية الاكانيين السياسية بأن الحاكم يستمد سلطانه كله من الشعب . وأنه يمسك بهذا السلطان وصاية عن الشعب ووكالة له . وقد تضمن النص باقالة الحكام والاسس التى تبنى عليها هذه الاقالة ، هذه النظرية تضمنا واضحا وصريحا .. وعلى الرغم من ان هذا الرأى لم يكن أكثر من نظرية تقييم أسس السيادة فى الشعب . الا أنها لم تكن سلبية كل السلبية فى فحواها وانما كانت تضع أيضا اجماع رأى الشعب وقوته كلها وراء الإعمال التى يقوم بها الحكام . وكثيرا ماوضعت قرارات الحاكم بالفعل على لسان الشعب وباسمه . فلقد قيل على سبيل المثال بأنه اذا قام الناس برسم صورة سخيفة على رأس انسان فانه لا يستطيع أن يمحوها . وكان الخروج على اجماع الرأى ، حتى عند التعبير عن رأى ، بل القيام بعمل ، يعتبر عملا من أعمال الحماقة ينظر اليه بالكثير من عدم الرضا . والوقت الصالح للتعبير عن جنون انسان أو تطرفه ، هو الفترة التى تجرى فيها المشاورات . وكان اصرار الفرد على رأى يخالف ما اتفق عليه الرأى العام واقره ، واعلن عنه بعد الكثير من التشاور يعتبر شرا هداما . فالاكانيون شديدو التعلق بمبدأ الوحدة ، ولهذا فان ترف ما يعرف بتقارير الاقلية . كان غريبا على تفكير الاكانيين وأنظمتهم السياسية .

وقد يكون من التسرع كل التسرع . أن ينظر الى هذا الوضع على أنه حد من حرية التعبير بالنسبة الى الفرد . فمن الواجب السماح بهذا الحد . حتى فى أكثر الانظمة الليبرالية تطرفا ، فاذا كان فى الامكان التفريق بين هذه الحرية وبين الفوضى على أى حال . فان من الواجب أن تكون هناك نقطة فى ممارسة حرية الكلام والخطابة يعتبر تجاوزها اعتداء على حرية المستمعين أنفسهم يجب منعه وعدم السماح به . وتكشف أقوال الاكانيين وأمثالهم عن حقيقتهم وهى أنهم شعب ذو تفكير عملى ، وتتمثل لهم قيمة حرية التعبير فى الناحية الممكنة من الحقيقة التى يمكن أن تكشف عنها هذه الحرية . أما اذا كان لابد من القيام بعمل ، فهناك نقطة يجب ان يتوقف النقاش عندها، لكن وقف النقاش لايؤدى بالطبع الى اغلاق الامكان المنطقى للنقد السليم ، ولكن لما كان العمل يجب أن يتم فى الوقت المحدد له ، فان

مظهر الاجماع يجب أن يحتفظ به فى الآونة التى يتم فيها العمل . أما العمل الذى يحسر النقاب عن عقائد غير مستقرة وعن مواقف متعارضة فيقال انه يستبدل الشك فى الصواب ، بالتأكيد بوقوع الخطأ . وكان الاكانيون ينظرون الى الاصرار على التعبير عن آراء معارضة بعد الوصول الى قرار ما ، ولهم كل الحق فى نظرتهم هذه ، بأنه يمثل موقفا مخربا ومجزئا بل ومضعفا . وكانوا من أجل ذلك يهدرون الشخص الذى يقف مثل هذا الموقف ويجردونه من حماية القانون . ولا ريب فى أن هذا الطراز من الهدر . الذى يؤكد المسئولية الجماعية يقوى شعور الوحدة . اذ ان القرارات العلنية تغدو رابطة للجميع دون استثناء ودون اكتراث بالآراء والمواقف التى عبر عنها أو اتخذت قبل الوصول الى تلك القرارات .

وخوفا من أن يشكل الهدر بالنسبة الى الاصوات المخالفة بعد صدور القرارات والتى تهدد الوحدة أى اجحاف بالنسبة الى أى فريق من الفرقاء ، فان الترتيبات قد اتخذت بالنسبة الى جميع الآراء ووجهات النظر ، لتسمع بحرية وتناقش . وكانت القرارات تتخذ طبعا للغالبية الكبيرة ، وهى على أى حال أقرب معادل عملى للاجماع . وكان الناس فى المجتمعات الصغيرة يدعون الى الاسواق العامة للاشتراك فى المناقشات السياسية . أما فى المجتمعات الكبيرة . فكانت ثمة استحالة عملية فى عقد مثل هذه الاجتماعات . وكانت المناقشات تدور قبل كل شىء بين الشيوخ المنتخبين الممثلين لمختلف العشائر ، الذين يتولون فى الوقت نفسه دور المشير الناصح للرئيس الاعلى . وهناك قول مأثور عند الاكانيين بلغ مرتبة الحكمة السائرة . وهو أن ليس هناك حاكم سيىء . ولكن هناك ناصحين أشرارا .

وينطوى هذا المثل على أمرين هامين . أولهما : الخضوع للدستور المركز فى شخص الرئيس الأعلى . وثانيهما : اشتراك المجموع كله فى قراراته أما مباشرة عن طريق جميع الافراد شخصيا أو لامباشرة عن طريق ممثلى الشعب المنتخبين منه . وهكذا فان التعادل القائم بين شبه الاجماع ، جعل من تأثير القرارات أمرا حتميا . وهناك قول مأثور عندهم يتفق مع هذه الظاهرة وهو يقول : اذا اراد الملك أن يقتل رجلا فمن غير المجدى مطلقا الاقتراع على ذلك . ولم يكن ثمة اى شك فى مدى سلطة الملك . فقد كان يقال ان الملك ، اذا انزل مسغبة بالناس ، ردوا فعله هذا الى الشعب . ويبدو أن الملك كان يمثل لهم شخصا تقف القرارات على شفتيه . وكانت موافقة الملك على القرارات غير لازمة نظريا . وان كان من المفروض فيه أن يضفى عليها قيادته المعنوية . ولم يكن من حق الملك أن يعقد الصلح أو يشن الحرب وحده أو طبقا لرأيه ، كما لم تكن

صلاحياته تخوله الدخول فى مفاوضات أو توقيع معاهدات ذات صلة بمصالح شعبه أو سن القوانين بصورة استقلالية .

وكان الشيخ الاكبر يعتمد بصورة مستمرة فى رفاه حياته وسعادته ، وذلك بسبب صلاحياته الدستورية . على طاقته الشخصية وعلى آراء شعبه ومستشاريه لا سيما وان مكانة الدولة المقدسة كانت تقضى على الميول الذاتية عند هؤلاء وهى الميول التى تبرز عادة ابان المعارك على السلطان . وعندما يموت أحد الملوك تؤول ممتلكات الدولة الى وصاية الملكة الوالدة . وعلى الملك الجديد أن يثبت أولا كفاياته وطاقاته قبل استعادة حقه فى الاشراف على الممتلكات ففى حالة « كوفى كاريكاى » مثلا وهو الملك التاسع عشر من ملوك الاشانتى فى غانا . وقد تميز بالقوة رغم نحوله . وبالكرم والدماثة ، ظلت ممتلكات الدولة بعيدة عن اشرافه طيلة الاعوام الخمسة الاولى من توليه الملك .

وكان مركز الملك يحمل طابع القداسة أكثر من طابع المنصب السياسى ولما كان الملك محاطا بمستشارين تعتبر مراكزهم من المناصب السياسية . ولما كان الملك نفسه يمثل الوحدة الروحية القائمة عند الشعب . فقد كان فى الامكان خلع الملك من منصبه شريطة أن تقدم سلفا قائمة بالاسباب التى تدعو الى الاطاحة به من منصبه .

ويمكن خلع الملك عن عرشه لعدة أسباب تعتبر مزرية بالمركز الذى يشغله . فالملك الذى يصر باستمرار على تقديره الشخصى للامور ، ضاربا عرض الحائط بالرأى المشترك لمستشاريه مجتمعين ، يتعرض للخلع والعزل . وكان يقال ان الشعب لا يستطيع أن يشرب الماء مع مثل هذا الرجل . وفى الامكان أيضا تنحية الملك اذا كان ظالما ، أو كان مستبدا ، أو شريرا ، وينحى الملك اذا ثبتت عليه تهمة الرشوة أو الاهمال لشئون الدولة أو الافتقار الى الشرف فى معاملته للنساء . ويمكن خلع الملك أيضا اذا وقف موقف المشاكسة مع مستشاريه ، أو اذا أصيب بعاهة أو مرض يحولان دون ادائه واجباته وتصريف شئون الملك .

لكن عملية الخلع هذه لا تتم بسهولة ، اذ على الرغم من أنه قد يحاكم دون معرفته أو علمه . فان على مستشاريه أولا ، أن يأخذوا رأى هيئة أخرى وان يحصلوا من هذه الهيئة على موافقتها . بأن هناك تهمة يصح توجيهها الى الملك . واذا لم يكن فى الامكان الحصول على هذه الموافقة . فان محكمة سرية تعقد حيث يدلى الشهود بشاداتهم وحيث تفحص هذه الشهادات فحصا دقيقا ويقدم آنذاك تقرير رسمى الى رأس العشيرة الملكية ، وهو شخص آخر غير الملك طبعا . وعلى الاثر يتولى هذا دعوة الشيوخ الاصغر مقاما ورؤساء العشائر ، ولا

ينحى الملك عن عرشه الا بقرار اجماعى منهم · وكان الملك يغرم أحيانا على الاساءات التى يرتكبها والتى ينحى عن عرشه بسببها . وهناك قول معروف ايضا ، بأن خدم الملك هم الذين يؤمنون للملك هيبته . وكانوا يشبهون اذن الملك بسلة مفتوحة ، عدد فتحاتها أكثر من الف . وكانوا يقولون أيضا أنه يشبه شجرة « الدودوم » لا وجه لها ، ولا مؤخرة . وهذا يعنى ، استحالة التآمر على الملك سرا أو علانية .

وكان الشيوخ الوزراء هم الذين يتولون الادارة السياسية فى دولة الاكان وكانوا ينتخبون ليملأوا بعض المناصب ذات الاختصاص أو حتى بعض الوزارات . وتوزع المناصب على مختلف الشيوخ الذين يغدون مسئولين عن الخطابة والاحتفالات والدعاية والعرش ، والقبور والموسيقى . وادارة العاصمة ، والقصر الملكى ، والحرس والقوات العسكرية .

ويطلب الى رئيس دائرة الخطابة « أن يكون مسئولا عن المحافظة على سجلات الدولة وأوراقها . وكانت هناك أغان تمجد ماقام به الأسلاف من مفاخر وأعمال عظيمة ،والمعارك التى كسبوها ، والشعوب التى اخضعوها ، والخصال المميزة لهذه الشعوب . وكان هذا الرئيس يشرف على الموظفين المدربين تدريبا خاصا على ضبط مثل هذه السجلات والاحتفاظ بها « والذين يتمتعون بمواهب انشائية تنطوى على الذوق الأدبى . وكانت هناك أناشيد مدرسية عديدة « لبعث الروح المعنوية وتشديدها تحفظ وتسلم على مدى الأجيال من منشد الى منشد . وتناقلت هذه الأجيال قطعا أدبية صرفة « يقصد منها متعة الجماهير العقلية ، وكانت التعديلات والزخارف تدخل على هذه الروائع الادبية لجعلها مطابقة لكل وقت من الاوقات فى موضوعها . وتضمن الانتاج الادبى : القصص والروايات القصيرة واللوحات والرسوم والمسرحيات والقصائد والاشعار القصصية . وتم عن هذا الطريق تطوير لغة أدبية لا تستعمل فى لغة الحديث واكمال النواقص فيها . وكانت الاحتفالات هى الفرص التى تعاد فيها تلاوة التاريخ والمدائح . وكان القسم الكبير من هذه التلاوات يصحب عادة بقرع الطبول ، بحضور الملك الحاكم . وكانوا عن هذا الطريق يعرضون على مسامعه ، الاعمال العظيمة التى حققها أسلافه فكان يجد نفسه طائرا معها الى ذرى رفيعة من البطولة والانتصارات . وقد حددت هذه الاناشيد أيضا الاوضاع التى يكون فيها الملك ، والمراسم التى يحاط بها ، فهى تجعل منه مركز الولاء للدولة « كما تحطم أي حماس ثورى عليها . وكانت مجموعة صغيرة من المنشدين تحصر نفسها فى تحديد مستمر ومتواصل

لمركز الملك الحاكم ومهامه . وتكرار الاشارة ... اليه عن طريق الاطراء واطلاق الفاظ المهابة عليه .

أما التاريخ الذى تسرده هذه القرارات فمزخرف وموشى الى حد بعيد وكان يتنكب بحذر وعناية كل اشارة الى الجذور المختلفة لقطاعات الشعب المتعددة حرصا على عدم تجزئتها وضمانا لكى تكون وحدة الشعب دائمة وكاملة · وكانت عقوبة الخطأ أو التمييز فى هذا المجال ، الموت الفورى لمرتكبيه ، فالجلاد يقف منتدبا من السلطات فوق رأس المؤرخ الرسمى . الذى يؤدى قراءته . فقد نمت امبراطورية الاشانتى بصورة خاصة عن طريق الفتح · وعن طريق شىء من النمو بوساطة الاندماج · وقد بذلت الجهود كلها لطمس آثار هذه الحقيقة ، ولطمس التاريخ الصحيح وأصول الشعوب المحتلة التى وقعت فى شباك الاشانتى . وكانوا يجيئون بمؤرخى البلاطات الملكية السابقة عند هذه الشعوب الى بلاط الاشانتى فى كوماسى ، حيث يعملون باصرار واستمرار ، تاريخهم الرسمى الجديد · وكان الاشانتيون يشبهون أنفسهم بحيوان الدلدل أو الشيهم . الذى يحب السلام فى أحوانه العادية اذا لم يستثر غضبه بشىء من العناد ، والا فانه ينقلب الى حيوان أحمق ، تسيطر عليه نزوات من الغضب . وتتوحد كلمته مع نظائره من هذه الفصيلة حول هدف واحد ، ومركز مشترك . وهكذا كان ملوك الاشانتى ، أكثر ملوك الآكان قوة وتألقا فى التاريخ .

وكان الاكياميهيون (Akyeamehene) كبير الناطقين بلسان الملك . اذ أن الملك قد لا يتحدث مباشرة الى شعبه . وكان رئيس حملة صولجان الملك ومساعدوه مسئولين عن حمل هذا الصولجان والتنقل به من ناحية الى أخرى · وجعله فى متناول الناس فى أى حين أما حفارو قبور الملك فمسئولين عن الحفرة التى تعلق فوقها جثث الملوك الموتى مدة ثمانين يوما بقصد تجفيفها قبل نقلها نهائيا الى المدافن الملكية · ويرأس الحرس الملكى أحد أبناء الملك أو أحفاده . وذلك باجراء أمن وقائى . وقد لا يؤدى قتل رأس الاسرة أو الخلاص منه الى التأثير على ورثته . وهم يثقون من ان هؤلاء الورثاء سيستجيبون الى تبدل الاوضاع فيكيفون أنفسهم وفقا لها · وكانت دولة الآكان منظمة ومستقرة كل الاستقرار ، فهى لا تعرف تقريبا الفتن والاضطرابات اذ أن الاجراءات السياسية فيها حبية وودية ، وكان العصيان أمرا متروكا بحكم الطبيعة الى الشعوب التابعة الخاضعة ولا ريب فى أن مرد الكثير من الامن المدنى ، والرضا عن الاوضاع ، يقوم فى تفريق الآكان الفريد فى نوعه بين الرتبة والعشيرة وبين السلطان . ولم يكن السلطان ظالما لأية طبقة من

الطبقات . وفى الامكان آن يكون السلم الطبقى فى العشيرة أو فى الرتبة مختلفا كل الاختلاف عن السلم الطبقى فى السلطان . وأخيرا أرى أن المجتمع الآكانى فى حاجة الى الايضاح على صعيد ما فيه من مساواة روحية .

النظام القضائى :

لم يقسم الآكانيون أعمال الادارة والقضاء على عدد كبير ومختلف من الافراد والهيئات . وكانت الهيئات نفسها من رأس الاسرة الى الملك فى مجلس مستشاريه هى التى تتولى هذه الشئون . وكانت الفكرة أن الهيئات التى تتولى وضع القوانين هى أدرى الناس بأهميتها . وأنها والحالة هذه خير هيئة تتولى الفصل والوساطة بين الهيئات المتنازعة . وكان فى الامكان الجمع بين السلطات على هذا النحو بالطبع ، عندما كانت مهام القضاء بسيطة ، وخالية من التعقيد الذى لا لزوم له . وكان خطيب الملك هو الذى يتولى عمليا دور خبيره القضائى أيضا .

ولم يكن الفرق كبيرا بين المخالفات المدنية والجنح الجنائية وكانت هناك طريقة بسيطة ،وهى أن يقسم المرء اليمين ضد خصمه ، ليحيل القضية من جنحة الى مخالفة مدنية . وكانت نتيجة هذا الاجراء أن العقوبات لا تفرض بالنسبة الى خطورة الجنحة المرتكبة ظاهريا ، بل بالنسبة الى الاصرار فى ملاحقة القضية ومتابعتها ولم تكن هناك سجون أو عقوبة بالحبس ، فالعقوبات لا تعدو الموت والغرامات .

وتعقد المحكمة جلستها عندما يرغم المدعى ، المتهم على الظهور امامها ، بعد أن يؤدى الاول اليمين ضد خصمه . وكان كل يمين يحمل مجموعة من العقوبات والغرامات تتناسب مع خطورته . فالموت مثلا هو عقوبة الشخص الذى يقسم خصمه اليمين على رأس الملك . أو الذى تشير تهمته الى كارثة قومية . أما الغرامات المفروضة فتقرر على ضوء خطورة اليمين المؤدى من ناحية وعلى وقائع القضية التى ينظر فيها ، وما فيها من أدلة . وكان من حق القضاة الذين يرأسون المحاكم أن يختاروا أى الفريقين فى القضية يجب أن يؤدى رسم اليمين القانونى . وفى وسع الفريق الذى يعتقد أنه ظلم فى قرار أن يستأنف بأداء اليمن لقاض أكبر ، حتى يصل الى اداء اليمن الملكى . وفى وسع أى انسان عادى أن يؤدى اليمين ضد أى شيخ ، مرغما اياه على الظهور أمام المحكمة والتعرض للمحاكمة .

وكان من الواجب التعويض على حالات الموت التى تنتج عن حوادث عارضة . وكان من حق ورثة المتوفى أن يحددوا مبلغ التعويض وقدره الذى يتفق عليه طبقا لوضع المتوفى ومركزه فى المجتمع .

وكان يسمح للقاتل المدان والمحكوم عليه بالموت . بأن ينفذ الحكم فى نفسه اما عن طريق التفجير أو باطلاق الرصاص على نفسه . وكان يسمح لمثل هذا الشخص بفترة زمانية تنقضى بين صدور الحكم عليه بالاعدام ، وبين تنفيذ هذا الحكم .

وعقوبة السرقة هى الغرامة ، وتكون فى حالات امكان اعادة المسروقات الى أصحابها . وتتولى أسرة السارق نفسه فرض العقوبة البدنية عليه وكانت هناك انحرافات رأسمالية معوجة فى قوانين السرقة . فلو فرضنا تقديم قضية معقولة ، بأن سرقة قد وقعت ، وأن هذه السرقة قد عرضت الشخص المسروق منه الى خسارة ربح كان يتوقع الحصول عليه ، تحتم أن يشمل التعويض دفع قيمة رأس المال الأصلى للسلع المسروقة ، والارباح التى كانت متوقعة أيضا . وكان هذا القانون يطبق فى العادة بالنسبة الى الحيوانات التى تسرق فى المزارع .

وتتم عقود الزواج بدفع مهر للعروس . كثيرا ما ينخفض الى الجنيه الواحد الى اسرة العروس المستقبلة . ولم تكن موافقة العروسين شرطا لازما — اذ لما كانت الاسرة عند الآكانيين كبيرة ومندمجة ومتكاملة . فان مصلحة أكثر من العروسين تتأثر بالزواج المقصود . ولم تكن المشورة التى تقدمها الاسرة فى هذه الحالة ، ظالمة أو استبدادية ، بل كانت ترتكز على اعتبارات يعترف بها كل واحد من الناحية النظرية ، ولم يكن فى وسع الرجل أن يتزوج من بنات عشيرته وكان الراغب فى الزواج ، يتحرى عن أصول الفتاة التى يريد البناء بها وارتباطاتها العائلية ، ويشترط ألا تكون لها قرابة بالقتلة أو المجانين . ولما كانت الاسرة تعتبر قيدا على حرية الفرد فى عقد زواجه . فان الطريقة الصالحة لعرض الموضوع هى القول بأن الزواج كان يحول دون البطولات الشخصية . ولكن يجب أن يعترف من الناحية الأخرى ، وفى الوقت نفسه ، بانه عندما تزال بعض الموانع العائلية فان مدى الممكنات الفردية يتسع ، وهذا يؤدى الى احساس متزايد من الحرية عند الفرد ، وهى حرية صالحة لتطور المجتمع التصنيعى والى الطريقة المدنية فى الحياة .

وكان اكتشاف فقد الفتاة عذريتها قبل الزواج ، يعتبر سببا كافيا للطلاق وكان فى مكنة الزوج فى هذه الحالة أن يستعيد المهر الذى دفعه على اعتبار أن الزوجة تعاقدت على الزواج وفق بيانات كاذبة . أما اذا كان اتهام الزوج لزوجته بفقد عذريتها كاذبا ، فان فى وسع والد العروس ، أن يستدعى العريس الكاذب أمام مجلس قضائى ويقدم الادلة على طهارة فتاته . وأن يطلب من الزوج المدعى دفع التعويض

على الاضرار التى لحقته . وفى قدرة الفتاة اذا رغبت أن تعلن الغاء الزواج فى هذه الحالة .

وكان الزنا يعتبر جنحة بالنسبة الى المرأة المتزوجة ليس الا ويتعرض رفيقها فى الجنحة الى الغرامة . ولقد ظهر شيخ شرير من قبيلة أكواموا « تزوج جميع النساء فى القرى التى احتلها . ثم غاب عنهن نحوا من عام ، ليعود بعدها فيجمع الغرامات الحتمية . وفى وسع الزانى أن يحتفظ برفيقته الزانية كزوجة له ، شريطة أن يدفع تعويضا مناسبا يرضى عنه الزوج الذى أسيء اليه ، وأن يشمل هذا التعويض قيمة المهر « والنفقات التى تحملها عن زوجته حتى موعد الحادث . ولم يكن يسمح للمرأة باتمام الزواج الجديد فى الحال ، وكثيرا ما أوقف الزواج الجديد عن الاكمال ، لان الترتيبات لم تكن الا وسيلة لتغطية عار المرأة الزانية ، واضفاء شكل رسمى على جريرتها . وبالطبع كان الاكانيون يعتبرون جريمة الزنا أساسا كافيا للطلاق .

ولا يمكن اعتبار علاقة الزوج علاقة زنا الا اذا كانت هذه العلاقة مع امرأة متزوجة أخرى . ولا يمكن أن تعتبر علاقته من الزنا اذا كانت مع امرأة عانس لأن الزواج محدد من ناحية تعدد الزوجات .

وكانت القسوة فى المعاملة والاهمال سببين كافيين للانفصال الزوجى كما أن هجر الزوج لامرأته مدة ثلاث سنوات ، يعطى للزوجة الحق فى الزواج ثانيا .

وعلى الرغم من اباحة تعدد الازواج بموجب الاعراف القائمة ، الا أن الرجل لا يستطيع ممارسة هذا الحق دون موافقة زوجه . وهى موافقة لا تعتبر رسمية عرفيا الا عن طريق قبول الزوج ، لغرامة صلح يدفعها زوجها اليها ويقضى العرف بأن تقبل الزوجة هذه الغرامة أو الرسم ، قبل أن يتمكن الزوج من الزواج ثانية ولكن فى استطاعة الرجل ، حتى بدون سماح زوجته ، أن يحتفظ بالمرأة الأخرى كخليلة له .

وكانت مبادىء القانون هذه هادفة الى فكر التنظيم الاجتماعى واقامة النظرية المتعلقة بالانسان . وكان الوسطاء يعتمدون عادة على حكمة الشعب الجماعية وكان فى وسع التطبيق الحاذق لمثل سائر ، أو حكمة مأثورة ومقبولة فى حالات اقرار العدل أن يسوى القضية ويفصل فيها الا اذا ووجه هذا القول أو تلك الحكمة ، بقول مماثل ، أو حكمة مماثلة ، وفيما عدا ذلك تكون للامثال والاقوال المأثورة القوة التى تملكها السوابق .

وكان الطابع الطبقى على كل هذه الامور عرضيا أو اتفاقيا . وفى

وسع المرء أن يتذكر القول المأثور الذى سبق لنا أن نقلناه . وهو أن الانسان لا يستطيع أن يطبخ نبالة الاصل ليأكلها . وأن الثروة هى الامر المهم . فالثرى بالنسبة الى الغرامات هو الذى يدفع مبـــالغ أكبر . ويكون ما يتقاضاه من تعويض أيضا ، أكبر مما يتقاضاه غيره . وبالنسبة الى حالات الزواج . فالرجل الذى يتزوج امرأة تفضله فى المنزلة والرتبة كأن تكون من اخوات الملك مثلا ، يجد نفسه شبه مرغم اذا ماتت زوجتــه قبله ، على أن ينتحر ليلحق بها .

التنظيم العسكرى :

كانت الشئون العسـكرية عنـد الآكانيين تدار عادة تحت اشراف قائد أعلى يكون دائما من المحاربين القدماء ، وهو المسئول عادة عن تقسيم المتطوعين وفرض تأمينهم على رؤساء المقاطعات وشيوخ العشائر . وهو المسئول عن الحفاظ على الجيش فى حالة استعداد كامل . وعن تعيين الضباط ، وتنظيم القوات لتكون دائما على أهبة لخوض المعركة . ويقوم الى جانب القائد العام ، محارب آخر يطلق عليه اســم قائد الخطط العسكرية . وهو الذى يضع الخطط للحملات الحربية ويعمل مشيرا ناصحا لقادة الجيش فى موضوع سير الحرب ونسقها . وكان تجميع القوات فى الميدان وسوقها الى الحرب ، يختلفان ويتنوعان باختلاف المعارك وتنوعها ، ولكن الاشـــانتيين الظافرين كانوا يعدون جنودهم للمعركة على شكل طائرة تقريبا . وكان هذا الترتيب يقوم على النحو التالى : هناك رتل طويل فى الوسط يتقدمه اكتشافون ويتبعهم على الفور حرس القدمة . وتحشد وراء الحرس الامامى ، القوات الرئيسية ، ويأتى بعـد ذلك القائد العـام بمحاربيه ومعاونيه ووراء هؤلاء كلهم تأتى وحدات النقل والوحدات الاضافية المساعدة . يجىء بعد ذلك دور قوات المؤخرة لحمـــاية المؤخرة . ومواجهة أى طارىء من النـــاحية الاخرى . وكان هـذا التشكيل يمثـل قلب الطائرة ، ولها مقـدمان من ناحيتين كل منهما فى اتجاه مضاد للاتجاه الآخر ، أحدهما الى الامام والآخر الى الخلف . وكان الجناحان يؤلفان من عشرة أرتال . خمسة منها فى كل جناح ابتداء من القوة الرئيسية . ومن مركز القائد العام . وكانت هذه الارتال الجناحية تؤلف من مجندين فى المدن الرئيسية . وكان الملك يتخذ موقفـه على مقـربة من الرتل الاخير الواقع فى الجنـاح الشمالى عندما يسير الى الميدان للحرب . ولم يكن الملك قط مسئولا عن الحملة حتى ولو اشترك فعليا فيها . وكانت كل وحدة من الوحدات مسئولة عن تموينها وعن أطباء الميدان .

وكانت هناك مجموعات من العدائين حاضرة للقيام بأعمال المواصلات

وكانوا يؤلفون فئة من حاشية القائد العام . وكان الانضباط صارما كل الصرامة وعقوبة الجبن فى معظم الحالات هى الموت .

وكان فى وسع الاشانتى ، وهم خيرة محاربى الآكان ، أن يدفعوا الى المعركة بنحو من مائة الف رجل فى وقت واحد . وكان الجيش يؤلف منظرا جميلا براقا حتى وهو فى ميدان الوغى . ولكل رتل من الارتال ، علمه الخاص به وعندما يرافق الشيوخ الجيوش ، كانوا يجلسون فى محفاتهم تحت مظلاتهم الكبيرة ولم تكن هذه المظلات الا أشياء مزخرفة منمقة تضم الواحدة منها عدة قطع ملونة من الحرير ، مع خيوط من الفضة والذهب . وفى رأسها خيوط مذهبة من القصب وكان الشيوخ يحملون فى محفاتهم أو فى المقاعد التى تشبه عربات الفيتون (١) . وكانت هذه المقاعد تصنع من الخشب الرقيق أو من السلال المضفورة من أماليد الاغصان . مرصعة بعدد كبير من المسامير النحاسية تغطيها النقوش والزخارف .

وكانت الاسلحة تتألف من البنادق ذات الزناد المسماة ببنادق الديك ومن « القربينات » وكانوا يحملون عتادها فى انطقة جلدية ، وتلحق بهذا العتاد جيوب من الجلد أوالخشب يصب فيها البارود صبا. أما الرصاصات فخرادق من الحديد . وكان الجنود يعلقون علىأكتافهم أكياسا جلدية تضم خيوطا وقشرات من لحاء الاشجار ، ومسامير حديدية وحجارة ومحارات حجرية . وكان مسحوق البارود يقذف فى ماسورة البندقية دون أية أدوات كابسة أو ضاغطة . ويضعون مع البارود حفنة من المحار وقطعا من الحديد . وتطلق هذه القذائف بعد ذلك من مسافة قريبة .

ولو كانت أساليب الاشانتى فى اطلاق النار أفضل مما كانت عليه، لما أصبح ساحل الذهب مستعمرة فى يوم ما . فلقد هزم الاشانتى البريطانيين أربع مرات على الاقل وأسروا عددا من فرقائهم العسكريين. ولقد بعث اش . ام . ستانلى مراسل صحيفة النيويورك هيرالد فى سبعينات القرن الماضى ، برسالة الى صحيفته من افريقيا . قال فيها ان فى وسع ألف جندى من جنود الاشانتى أن يكتسحوا ، شريطة أن يتولى قيادتهم ضابط بريطانى ، جميع المناطق الممتدة بين رأس الرجاء الصالح وبين تمبكتو ، دون عناء . وكذلك المنطقة الممتدة بين ماندينجو وبنيين . اذا شاءوا احتلالها . (٢)

---

(١) طراز من العربات بطل استعماله الآن . — المعرب —

(٢) تمبكتو في مالى في جنوب الصحراء الكبرى ورأس الرجاء في اقصى الطرف الجنوبى من القارة . اما ماندينجو فتقع على الساحل الغربى في السنغال ، بينما تقع

واذا ما خرج الجيش الى الميدان . لم يعد في استطاعته أن يعود الى العاصمة الا بعـــد الحصـــــول على اذن بذلك من الملك في مجلس مستشاريه . وكانت الغاية من هذا النظام ، في منتهى الزكانة وحسن التبصر . فلا يمكن لجماعات كبيرة من الجنود الذين يقودهم ضباطهم أن يدخلوا الى مدينة رئيســية فيها سلطاتها المدنيــة دون أن تتخـذ الاحتياطات اللازمة لما يمكن أن ينجم عن دخولهم وكان القائد اذا ماعاد من حملته ظافرا منتصرا ، يطلب السماح له عادة بدخول المدينة . أما اذا كانت مهمته غير ظــافرة ، فان الاذن لا يمنح له دائمــا على الفور ويحتفل عادة بالانتصارات احتفالات علنية تستغرق يومين أو ثلاثةأيام، كما يخصص يوم آخر للحـداد العام على خســائر الحـرب من القتلى والجرحى . وتدخل وحدات الجيش بعد أربعين يوما من صدور الاذن لها الى العاصمة في شكل عرض عسكري ، وتطلق كل فرقة عند مرورها بالملك الذي يعرضها طلقة واحدة تحية له .

وكانت اللحظات التي يظهر فيها الملك علنـا . من الاوقات التي يبدو فيها الجلال على أكمله ، والأبهة في أعظم حالاتها . وكانت الطبول المتكلمة هي التي تعلن دائما ظهور الملك الى الناس ، والطبول المتكلمـة ظاهرة غريبة من ظـواهر افريقيـا ، فهي ليست وسيلة من وســائل الاشارة فحسب ، بل وطريقة أيضا من طرق الكلام ، فهي تحاول الخروج بصوت ، وهي تحاول التعبير بالالفاظ لا بالاصوات . ولقد قيل ان أنباء احتلال الخرطوم (١) وصلت في اليوم نفسه الى الافارقة في سيراليون عن طريق الطبول . والمفروض أنها انتقلت عن طـريق تناقل الطبـول المتكلمة أنباء سقوطها .

وكانت هذه الطبول تروي قصص السلالات الملكية ، وقصـــص البطولات الشــعبية كما تضمنتها الأمثــال السائرة ، والمدائح وروايات الاطراء ، كما كانت تبعث بالرسائل الى المواد التي تصنع الطبـول منها كالاشجار وآذان الفيلة التي تصنع منهـــا الطبلات ، وأخشاب الاوتاد والنباتات المتسلقة التي تستعمل في ربط الجلد . فالطبول في رسائلها هذه تعتذر الى هذه المواد . وهي تتقدم أيضا بالابتهالات الى الهالتطبيل ولعل هذه هي أول ما تناقلته الطبول من رسائل . وهناك أيضا صلوات

بنيين الى غرب السودان . ويقصد المراسل الامريكي بقوله المناطق الفسيحة الممتدة من الشمال الى الجنوب . ومن الغرب الى الشرق ، وأعتقد انه كان مغاليا في قوله هذا كل المغالاة لوجود قبائل افريقية قوية الشكيمة أيضا غير الاشانتي .

ـ المعرب ـ

(١) اشارة الى احتلال كتشنر للخرطوم في عام ١٨٩٨ بعد انتهاء ثورة المهدي .

ـ المعرب ـ

وابتهالات تنقلها الطبول الى « أونيان كوبون » ، كما تنقل رسائل الانذار والتهديد الى الاعداء والاغراب .

وكان استقبال الملك للسفراء فى الحفلات الرسمية للدولة . وكان الألوف من الناس ، ومعظمهم من المحاربين يقابلون خارج العاصمة ، ويحفون بهم ثم يقودونهم على أنغام الموسيقى النحاسية والوترية والصوتية التى تعزفها الطبول والصاجات والأبواق والجونج جونج . وكانت طلقات الرصاص التى تصاحب هذه الموسيقى تؤمن الايقاع اللازم لها ، بشكل منظم وضخم . ولم تكن ثمة حاجة الى رقصات « الضفدع » أو غيرها من الرقصات الاخرى . وكان القصد من كل هذا الضجيج ، التأثير على السفراء وحملهم على احترام الاشانتى .

وكان قادة الحرب يرتدون قبعات تنبثق منها الى الامام قرون الوعول الموشاة بالذهب . وتنتشر منها الى الجانبين رياش النسور التى تتدلى على الكتفين بينما تثبت القبعات تحت الذقون بربطات من الصدف المسمى بالكورى . وكانوا يرتدون صديريات من القماش ، المزدانة بالحجب والرقى فى بيوتها المصنوعة من الذهب والفضة . كما ترتبط الى الصديريات حقائب جلدية موشاة وملونة . وكانوا يحملون سياطا مصنوعة من اذناب الحيوانات ، كما يحملون المدى أيضا . ويرتدون سراويل قطنية فضفاضة ، ترتفع عند خصورهم الىالصدور. وتثبت فى أعاليها ، الى الأنطقة بخيوط جلدية أو سلاسل . وكانوا يحملون البنادق ، أو الأقواس والأسهم المسمومة . ويحملون كذلك فى أيديهم اليسرى رماحا صغيرة يقذفون بها وقد غطيت رءوسها بقطع من القماش الاحمر اللون . وزخرفت بشراريب من الحرير ولا ريب فى أن زى القائد الاشانتى العسكرى ، كان يكلف كثيرا .

ويسير السفراء ببطء يحف بهم مستقبلوهم ، عبر شوارع العاصمة . وهناك شارع رئيسى متفرع منه عدة شوارع جانبية . وعلى جوانب هذه الشوارع تقوم بيوت كوماسى . والبيوت مربعة الشكل غالبا ، وفى مقدمتها « دكان » مكشوفة تشبه المسارح الصغيرة . وهى على الغالب ذات طبقة واحدة . وتبنى عادة من الصلصال الجاف والخشب ، فى واجهاتها الامامية وفى داخل الباحات . وكان تركيبها فى العادة من النوع المنحرف الزوايا . وكانت البيوت البسيطة تبنى عادة على شكل حرف الراء اليونانية . وكثيرا ما تكون هذه البيوت متتابعة على مختلف المستويات ، ومختلف الزوايا التى تتقاطع مع عرض البيت الذى تجتمع عنده الطبقات . وتجتمع ذيول هذه البيوت لتؤلف شكل الصليب المعقوف ، بينما يقوم التركيب كله فى اطار على شكل التصميم

ذى التويجات الاربعة ، ويسير هذا التصميم كله من قاعدة المنزل الى ارتفاع يبلغ أربعة أقدام . وكانت الابواب مستقيمة كما كانت الاقواس فى العادة محفوظة كنوافذ الطبقة العلوية .

وتحيط الغرف بفنـــاء أو باحة داخلية . وهى فى الوقت نفسه الردهة والمطبخ والساحة التى يلعب فيها الصغار . ويوحى هذا الوصف بالحجم الكبير الذى كانت عليه بيوت الآكان التقليدية القديمة . انها أقرب ما تكون الى الصروح المرتفعة النموذجية .

وتصنع سقوف هذه البيوت من الآجر . أو من الصلصال أو من الحشائش ، أما الحمامات ، وتكون عادة فى الطبقات العليـا ، فتجهز بأنابيب لتصريف المياه وفى وسع المرء أن يرى بعض هذه البيوت حتى يومنا هذا . وقد بنيت من الطوب أو من الآجر المشوى بالنار أو غير المشوى . وتكون العوارض والدعائم من الخشب . وتغطى السقوف الداخلية والجدران بالجص .

وتصنع أدوات الطهى من القدور الفخارية التى توضع على مواقد تتألف من ثلاثة قوالب مخروطية من الصلصـال مفصولة عن بعضهـا بخطوط متسـاوية الزوايا . ويتألف الوقـود من العيدان الجافة . وتستعمل أحيانا مناقل ملأى بالفحم . وتتألف هذه المناقل فى العـادة من سطح علوى مدور يملأ بالفحم الخشبى يقوم فوق شباك من الحديد ، تحته سطح آخـر مغلق من جميع الجهات ، له منفـذ واحد لدخـول الهواء . وتصـنع الملاعق من الخشب ، أما الطعـام فيوضـع للأكل فى صحاف من الزخرف المشوى ــ وكثيرا ما استعملت الاصابع فى تنـاول الطعام . وتوضع الصحاف عادة على الارض أو على حصير ، بينما يجلس المرء على مقاعد صغيرة خفيضة .

وهـذه المقاعد هى الطـراز الرئيسى للأثاث . وكانت تجمـع فى صناعتها بين الشكل الفنى الانيق ، وبين الفائدة العملية . وتتألف من متكىء مقعر علوى يسند القعد ، وتحته قاعدة من الخشب . ويتمثل فن الصناعة على الغالب فى الاجزاء المتداخلة بين المقعد والقاعدة . وتكون هذه الاجزاء عادة منحوتة بشكل رائع . وكانت الفروق بين الاشـكال المختلفة من هذه المقاعد تتمثل فى احجامها وفيما تتميز به هذه المشبكات من عمل فنى .

.. وكانت الزخارف الداخلية فى البيت تتألف فى الغالب من الحاجات النحاسية والقماش الفـاخر . وكان الآكانيون يرتدون أقمشـة مصنوعة من لحاء الاشـجار . وهم يرتدون قمـاش « كنبتى » الرائع كما كان اليونانيون يرتدون أوشحتهم . وهم يقـذفون بأطرافها على أكتـافهم

اليسرى وتمر تحت مرافقهم اليمنى لتعود ثانية الى الاكتاف اليسرى .
وكانت هناك طريقة أخرى بديلة فى ارتداء هذا الزى . وهو أن يستمروا فى لفه حول أعناقهم ليعود ثانية الى الكتف الايمن . أما الأعسرون منهم، أى الذين يستخدمون أيديهم اليسرى ، فيعكسون الصــــورة تماما ـــ وتنقلب الأيدى اليمنى الى أيد يسرى . وهم يصبغون هـذا النوع من القماش بصباغات نباتية . وكانوا يتأثرون بما يعرض عليهم من أزياء . ويحاك قمـاش الـكنبتى من خطوط طويلة وهو اما أن يكون من القطن أو القطن المزوج بالحرير أو الحرير الصافى . وكانوا يحملون الخطوط بأبهى الالوان والخيوط .

وتستعمل المصابيح الغازية فى اضاءة البيوت . ولم يكن هنـاك اى نظام عام للاضاءة .

وكان الملك والشيوخ هم أكثر الشخصيات تألقا ورونقا . وكانت محفاتهم تضم ســتائر وأرائك ووسائد مصــنوعة من قماش (التفتة) القرمزى . وتحاط عادة بحجب وأســتار ثمينة . وتزخرف قـواعد المظلات وتوشى بالذهب فى صور حيوانات أو قباب مجردة . ويحمـل الموظفون ســيوفا من الذهب وصولجانات ذهبيــة أيضا ويضــع الملك والشيوخ عصابات على جباهم واصداغهم ، وترصع هذه العصــــابات بحشيات من الذهب . وهم يضـعون أيضا حول أعنـاقهم قلادات من الذهب تضم عدة سلاسل ثقيلة متقنة الصنع والزخرف ــ تتدلى منها التقاوى والحجب فى أكياس صغيرة مثلثة مزخرفة من الذهب والفضـة. ويرتدون أحيـانا قلادات من خـرز العقيــق ، تتدلى الى صــدورهم ووسطهم . ويلفون ركبهم ورســـوغ اقدامهم بأســــاور من الذهب والخرز . وهم يرتدون صنادل من الجلد الاخضر والاحمـر والابيض برباط على شكل حرف « الفاء » ــ ويمتد من أصبع القدم فوق الراحة الى الجانبين ويضــع الملك على صـدره قرصا من الذهب فى صحـاف متعددة . وكانت أصابع يديه تزدانان بخواتم ذهبية ثقيلة وكان يضــع فى أصابعه أيضا زوجا من الصناجات الذهبية التى يشير بواسـطتهما طالبا الصمت ــ وكانت تحيط به قطع موسيقية عدة مغلفة فى أوراق شفافة مصنوعة من الذهب .

وكان الملك دائما رجـلا ذا شخصـية قوية ، وهو كثـير التكبر والعجرفة ولكن مع تهذيب وسلوك مصقولين . وكان حديث كبير القوم دائما معجزة من معجزات التربية وحسن السلوك . وعندما يســمح للرجل بمقابلة الملك « يصبح عاجزا عن الاســتئذان بانهـــاء المقابلة والانسحاب ، ويصبح لزاما عليه أن ينتظر انتهاء المقابلة .

وترتدى نساء الآكان فى الغالب بعض المجوهرات .

الأدب :

لا ريب في أن قضية الادب الاكاني التقليدى ، قضية مزدوجة . فهناك أولا ـ مشكلة ما يجب اعتبارها من العناصر التي تؤلف الادب . فهذه قضية تناقش الآن ، بالنسبة الى الثقافات الافريقية القديمة . أما المسألة الثانية ، فمنبثقة من الأولى ، وهى تتناول المحتوى الأدبى الممكن للثقافة على ضوء المفاهيم المقبولة والمقررة .

ومن الواجب أن يقال أولا وعلى الفور ، ان هناك نوعين من التعريف أو السرد يمكن أن يكونا مناسبين هنا كل المناسبة . وقد يقال عن تعريف أو سرد بأنهما من الطراز الوصفي ، وانهما يحددان شروطا مسبقة وحدودا لطبيعة الادب نفسه . ويحل مثل هذا السرد المشكلة حلا فذا ، اذا وضع في سلسلة متعاقبة من الالفاظ ، سواء أشكلت هذه الالفاظ ، أدبا أم لم تشكله . وهذا الطراز في السرد ـ هو الذى يلقاه المرء عادة في المعاجم ، وفي كتب النقد التي يغلب عليها طابع الحماس . وهو نفسه الذى يشترط عادة حقوق الوضع العادية ؛ كما يشترط الايضاح في الكتابة ، والاحترام والتقدير لجمال الشكل والاسلوب ؛ والتأثير العاطفي . ومن المفروض أن ينجم هذا التأثير عن التعاون الوثيق بين المادة والاسلوب ، ولا ريب في أن جميع هذه الاشتراطات ، شروط تؤثر تأثيرا مباشرا على شكل الاسلوب والمظهر الذى تظهر فيه القطعة الادبية . والمعتقد أن هذا الإشتراط الأخير هو الذى أدى الى ظهور ذلك الطراز من السرد الاستشفافي ، الذى اضفاه بعض النقاد الكبار كبيلنسكي الناقد الروسي المعروف في القرن التاسع ، على النقد الأدبي . والذى اعتبروا فيه هذا النقد ، ظاهرة متحركة من مظاهر الجمالية . ويمثل الانتاج الأدبي القوى الدافعة المختلفة ، وبينها الدافع الخلاق المجرد وقد أنتج آثارا متنوعة لها جذورها في العواطف المختلفة . ولقد تأثرت الشخصيات والاوضاع ، وطرائق معالجتها ، بمجموعة ضخمة من الدوافع بعضها يستحق التقدير وبعضها لا يستحقه . ولقد تحولت الرغبة في الثأر كما في « دون كيشوت » (١) . الى الرغبة في التهذيب كما في «الحرب والسلام» (٢) ولم يعد من الضروري مطلقا أن يحمل المؤلف في يده ؛ جاروشا ـ يطحن به هذه الشخصيات أو تلك الاوضاع . لكن وجود الحركة الدافعة في وضع اى مؤلف أدبى ، يضبط ضبطا محكما

---

(١) دون كيشوت القصة الرائعة التي وضعها الاديب الاسباني الاشهر سيرفانتيس والتي سخر فيها سخرية مرة من قصص الفروسية .

(٢) الحرب والسلام ـ القصة الخالدة التي وضعها أديب روسيا العظيم الكونت تولستوى في عام ١٨٧٧ .

التأثيرات العاطفية والجمالية التي ينتظر ان يخلقها . وذلك لأن المؤلف نفسه يضبط أسلوبها وصورها .

ويمكن تصنيف الادب من ناحية تأثيراته في مجموعتين : مجموعة الادب العملي — ومجموعة الأدب المجرد . فالمقصود في الادب العملي الذي يشمل كافة الانتاج الاستقرائي والتثقيفي والنقدي ، أن يؤثر على السلوك الانساني ، ولا ريب في أن الشـعر الهجائي ، وقصـص تبكيت الضمير من أمثال قصص ديكنز (Charles Dickens) (١) أو حتى من أمثال القصص الاكثر حداثة والتي تتنـــاول عيوب المجتمع ومساويه ٠ هي نماذج رائعة من الادب العملي . أما الأدب المجرد ، فلا يقصد منالناحية الاخرى مطلقا الى التأثير على السلوك الانساني . ويعتمد الادب العملي في تحقيق أهــدافه ، اعتمادا كليا على علم المعاني . ولعــل الاطلاع على الادب المجـــرد وحده في الماضي ، هــو الذي دعا رجلا مثـــل نيوتن Newton (٢) الى القول بشيء من الصلابة : بأن الشعر « ســـخافة بارعة » ٠ ومن الواضح كل الوضوح بأن هذا التمتع بمتعة الادب عند الرجل ما كان ليكمل حتى ولو كان يجد بعض اللذة في الســـخافات والتفاهات .

ولعل الاصرار على القيمة الفـردية في التأليف ، هو أصلح أنواع الأدب للقصة . ومن الممكن تأمين الجهد التعاوني هنـــا شريطة أن يكون هذا الجهد متزامنا ان أمكن . كما حدث بالنسبة الى الارتباط الذيقام بين ديكنز وبين ويلكي كولينز (Wilkie Collins) (٣) لكن التعقيد الذي يتطوى عليه سير فحوى القصة المتكاملة ، حتى ولو كانت قصة تعرض شطرا من حياة ، يتطلب تنفيذا فرديا ٠ أما القصة التي تنساب انسيابا واعيا فيمكن ان تبنى أو تعدل ، على أيدي فريق من الأدباء . ولكنحتى

---

(١) شارلز ديكنز القصصي الانكليزي المشهور . ولد في بورتسماوث . قضى شبابه في ظروف غريبة . من اشهر قصصه « ديفيد كوبرفيلد » التي تحدث فيهـا عن حيـاته و « صور » و « أوراق » بيكويك و « قصة المدينتين » وكثيرات غيرها .

(٢) السير اسحق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧) عالم انكليزي ورياضي معروف ٠ ولد في لينكولن شاير من اب يعمل في الزراعة . هو صاحب نظرية الجاذبية المعروفة باسمه التي تولدت عن قصة سقوط التفاحة ، وهي القصة المشهورة ٠

(٣) وليام ويلكي كولينز (١٨٢٤ — ١٨٨٩) قصصي انكليزي — قضى حياته فيايطاليا مع والديه . وهذه الفترة اوحت اليه بقصة أنطوانيت التي صدرت عام ١٨٥٠ — بدا حياته يعمل في تجارة الشاي ثم درس القانون ٠ كان صديقا لديكنز — مناشهر قصصه « الاعماق المتجمدة ، لعبة الغابة ، السر الدفين ، بعد الغروب ، المجدلية الجديدة — وعشرات غيرها » ٠

— المعرب —

هذا الطراز من القصص يكون أفضل وأروع ، اذا كان مؤلفها واحدا .
ومن الواضح أنه بالنسبة الى بعض المجموعات الفردية من الشعر
كالقصص الشعرية مثلا ، تستطيع الأجيال المتعاقبة تغيير الأحداث ،
دون المساس بترتيبها للحفاظ على وحدة القصة وروحها . وعلى محلية
أحداثها ، وتخضع بعض الطراز الادبية بسهولة أكبر الى الانتاج
اللامستقر والمعقد من الطرز الاخرى .

ولهذا السبب وحده — يكون تعريف الادب الذى يضع توكيدا
مغاليا على الانتاج الفردى ، تعريفا ضيقا ومحدودا الى درجة كبيرة .
وحتى لو لم نربط بين هذا التعريف وبين الادب المنقول بالتواتر منذ
القدم ، ففى وسعنا ان نناقش وأن نقول ، بأن هذا التعريف الوصفى،
يضع الادب فعلا فى زاوية ضيقة ، ولا يستطيع أن يفهم مطلقا هذه
الناحية المدهشة فى تكرار الانتاج الادبى ، والتى تشبه تماما ، منظر
الطبيعة بعد انحسار الأمطار . ولا يفهم أيضا ما للتحليل من قيمة كبرى
فى الصورة المركبة ، عن طريق تأمين محورها ومنظوريتها بالنسبة الى
المشاكل والقضايا لا سيما وانها — أى الصورة — قد تتعرض تعرضا كليا
للاضطراب والتشويش من جراء اتباع أساليب جديدة فى الاسلوب
والشكل . أو حتى فى مادة الأدب نفسها . ولاريب فى أنها ستغدو عاجزة
عن مجاراة خصائص الحركات الادبية ، ومفتقرة الى كل مقومات انتاج
ما يرمز الى العبقرية .

ولفهم الاسهام المتزايد من عدد متتابع من الافراد فى نفس القطعة
الادبية الواحدة فى الروايات الاكانية المتواترة عن طريق النقل الشفوى،
يجب على المرء أن يتذكر دائما ما يتركه هذا التواتر فى ذلك المجتمع من
أثر ملحوظ وعندما يمر المرء بمثل هذه المواد يستطيع أن يرى عملية
الاصلاح والتحسين فى الادب المكتوب . وهى عملية تنتج حقا فى شكل
مؤلف يدين بعناصره الطيبة أو مزاياه السيئة الى طلاب البحث العلمى.
ولا ريب فى أن مبدأ « صعوبة النقل الحرفى » يؤدى حتما الى ظهور
طبعات غير صحيحة .

وتضمنت الروايات المنقولة عند الاكانيين قطعا أدبية شملت مواضيع
مختلفة . وكان معظمها يتعلق بالحروب والهجرات ، والانسال
والسلالات الملكية وكذلك الوراثات العشيرية . وكانت الفوائد التى تجنى
من مثل هذه المواد مقدسة وقومية وقانونية . وعندما تكون الفوائد
المتوخاة منها مقدسة . فانها تعالج أصل المجموعة البشرية ، وتتحرى
الاسلاف البارزين والمبجلين . والقصد من الافادة منها هنا . هو تجديد
وحدة المجموعة وتضامنها . ويكون اسلوب غرض المادة فيها حماسيا

الى حد كبير ، وكثيرا ما يرجع فيها الى الفاظ الاطراء والتبجيل المفخمة أما عندما يكون القصد من استعمالها قوميا ، فان الذكر يعود الى أسماء اولئك الاسلاف المبجلين خاصة بالنسبة الى فضائلهم . والتى تتضمن جدود تلك الجماعة . مع عرض فضائلهم على الناس ، لتوجيه سلوكهم . وتوجيه تقديرهم للاوضاع . ومن الطبيعى أن تعرض اسماء كبرائهم بصورة مشتركة على الاطفال ، بعيدا عن الاسلوب الشكلى فى التسمية املا بأن تتجدد فضائلهم العظيمة فى هؤلاء الاطفال بالاضافة الى ما كان يظن من تأثيرات هامة ، لاسماء الاطفال المأخوذة من أيام ولادتهم الاسبوعية فى حياتهم الشخصية . اما عندما تستخدم هذه الروايات الشفوية المنقولة ، فى مجالها القانونى فانها تكون على شكل مواد تاريخية ، لحل المشاكل والمنازعات المتعلقة بالحقوق والمصالح المبررة . وكان من المفروض فى رءوس الاسر المختلفة ان يكونوا واسعى الاطلاع على تواريخ أسرهم .

ولم اتطرق حتى هذه اللحظة الى ذكر شىء عما يمكن أن يسمى بالأدب الواضح ، على الرغم من أن العرض الذى أدرجته لطراز المواد المذكورة آنفا ، يتطابق الى حد ما مع المبتكرات الادبية . وكان فى وسع الرواة والقصاصين أن يفيدوا من الافكار الآنفة الذكر . فى المغامرات العسكرية والمدنية على سواء . وحرصا على الا يضيع جدوى التأثير ، فقد استخدمت خصائص اللغة وبينها التهويل والتداعى والايحاء ، وكذلك الصور الاسلوبية الجديدة استخداما ضخما . ولقد ذكر دوبو ان الاشانتيين الفوا اغنية فى عام ١٨٠٧ ، بينوا فيها كعمل مجيد من أمجادهم ، كيف أرغم نهر من أنهر الدم ، الى الانسياب من مياسة العاصمة المبكى عليها لمملكة آسين الى «براه» . وكان يحاط مثل هذا الطراز من التفاضل عادة بعدد ضخم من صور البطولة . ومن روائع الكلم . وكان من حق أى قاص أو معيد ، أن يبدل الصور التى تسلم اليه فى أى عمل انشائى ، وان يحيط روايته بتفاصيل وافية دخيلة . وأن يضمن هذه التفاصيل الكثير من الاشارات النموذجية والمحلية . وكان القاص يعرض براعته فى التأثير الشفوى ، بالطريقة التى يزخرف فيها مادة القصة التى يقصها وهكذا فان السرد الذى يعرضه على ملأ من الناس ومسمع يتأثر دائما بالخلق الادبى ، حتى ولو لم يكن خلقا أدبيا خالصا . وكانت الأفكار والأحاسيس تلتهب حماسة أثناء أى عرض عام للقصة المروية ، وبهذه الوسيلة كانوا يضمنون الاسهام العاطفى فى كل ما يريدونه ، ولا سيما بعد استخدام الألحان الموسيقية التى تصحب عرض القصة . وارغمت الحاجة الى ادخال المساعدات الموسيقية على حوادث القصة دون اخفات صوت العرض الكلامى ، القصاصين على البحث عن الرنين الموسيقى فى العبارات التى يستخدمونها . ومن هذا

يظهر أن الاستغلال كان كاملا للصورة والقيم المعنوية لتحقيق التأثيرات الجمالية. وعندما نجحت هذهالمحاولات أصبحت رنة الكلمة ومشتقاتها، وقواها الاستفزازية غنيـة الى حـد كبير بما يرافقها من مصاحبـات موسيقية . وقد أضفت العملية كلها على الادب التقليدى المنقول صورته من المسرحية الجماعية . لكن هـذه الناحية كانت مصطنعة ليس الا . ولم يكن المهم هو معرفة الجمهور المسبقة بما سيحدث ـ وما ينجم عن ذلك من امتعاض . بل المهم هو ما كان يتميز به القاص الفرد من فضيلة ومن نزاهة فنية . وعلى الرغـم من أن الموضوعات المطروقة وهى حالة المجتمع وموقف الشيخ فيه ، وعلاقة الفرد والأسرة بالمجتمع ، وعلاقة عالم الانسان بعالم الروح ، والعواطف والمواقف الجماعية من الفضائل والاصول والانتصارات العسكرية والمدنية ، يمكن أن تحدث فى مختلف المجالات من لاهوتية واجتماعية ، فان طريقة معالجتها عن طريق كبـار الفنانين قد أحالت جزءا من النتائج عند الآكانيين الى أدب .

ويرى المرء لزاما أن يعترف بأن الادب ينتقل شفويا » وان اشكاله تتأثر تأثرا كبيرا ممـا يدخل عنصر الاستحالة على « التشخيص » التفصيلى والمقول ويؤدى الى انهيار الواقعية بعد تحولها الى اسطورية . ويضعف هيكل القصة ، وتتركز وقائعها فى حـركات بارعـة ، تكثر فى قصص المكر والخداع . وتدور معظم احـداث هـذه القصص حـول حيوانات معينة ، مع أن قصص هذا الخداع سـواء أكانت انسانية أم نصف مقدسة ، كانت تضم ايضا قصص اللصـوص والافاقين المكتظة بها . ولقد انتشرت قصة عن الارنب فى افريقيـا الشرقية ونيجيريا . وأخرى عن السلحفاة فى نيجيريا ما لبثت أن انتقلت الى كوبا ، وقصة اناسى العنكبوت فى غانا ، وليبيريا وسيراليون وقد انتقلت الى جمايكا وغيانا الهولندية . ولا ريب فى أن هذه القصة تشبه قصة «العمة فانسى» فى كارولينا الجنوبية . أما بالنسبة الى قصص المكر الانسانى » ونصف الالهى ، فهناك قصة هانكا نيانا عند الزولو وقصة (بو) عند الداهوميين و« ايشو » واروميلا عند اليوروبا ، والامامفى عند الاكان . وحتى لو تأثر هيكل القصة فان الحوار فيها على أى حال قد لا يتأثر . وهذا هو المجال الذى تتأثر فيه العنـاصر الادبية التقليدية لقصص العيـارين والمحتـالين » وتتعرض الى أعظم تبـدل . وقد بذل رواة القصـة غير الموهوبين غاية جهـودهم لتذكر الحوار ، أما الموهوبون فكانوا يذكرون جواهرها . وكانوا كالعناكب ينسجون حواراتهم مما لديهم من خصوبة ذاتية فى الفن القصصى . أما تصوير الأوضاع فيكون ناحية أخرى من نواحى الأدب اللفظى الذى عانى بصورة واضحة من الارتجاج والتراوح . ويميل طول القصص الى الاختلاف مع طاقة رواتها .

وهكذا أدت حقيقة تعرض الادب غير المكتوب والمنقول ، للتجديد والتبدل وهو تعرض يسير دائما نحو الأفضل ، الى نمو لغات الاكانيين كلغات أدبية وما زالت هذه اللغات حتى يومنا هـذا ذات طابع أدبى . وليس ثمة من سبب يدعو الى هذا . وكان الجنس البشرى يتطور من الفهم الغيبى «المتيافيزيقى» للعالم الى الفهم الطبيعى . ولا ريب فى أن هذا هو الاتجاه الطبيعى التـاريخى وليس العكس ، كما قال تايلور (Tylor) (١) فى أفكاره وآرائه عن أصول فكرة الروح والغيبيات ، اذ تقوم مختلف الادلة على صحته وصدقه ولا ريب فى صحة ما يقـال عن طاليس من أن ثورته قد تمثلت فى اصراره أمام اغريق العهد الذى سبق أرسطو ، بأن شرح الطبيعة وايضاحها ، لا يتطلبان أكثر من رؤيتها . وأن ليس ثمة حاجة مطلقا للعودة الى ما وراء الطبيعة .

وتوضح المزايا الادبية « للغة » مدى حرية خالقى الادب ، اذ أن الحاجة الى التناسق والوحـدة تكون فى أقوى اللغـات الطبيعية غير المتطورة . ولعل الطريقة التى تتبع فى عرض المعلومات العلمية هى خير مثل على ذلك . والادب هو نتاج ما فى اللغة من ثراء ومن خيال رشيق . وقد يكون العكس صحيحا أيضـا الى الحد الذى يستخدم فيه الأدب كمظهر للغة . ولم تكن الارتباطات العائلية تعيق القصاص الاكانى عن المضى فى عمله . ولم تقم أسرته على وجه التأكيد باية محاولة ، لمساعدته فى وضع قصة او حتى فى وضع العناوين لها . ولا ريب فى أن ما عرف عند جميع الاوربيين فى مختلف عهودهم ، بكبير المنشـدين ، هو الذى يشبه تمام الشبه ، الوضع عند الاكان ، أو يقرب منه على الاقل .

ويمكن تصنيف النتاج الادبى الاكانى فى أربع مجموعات اقترحها جى آر نيكيتا . فهناك أولا مجموعة الادب غير المكتوب تمـاما . وهو الذى ألف الاكانيون روايته فقـط دون أنشاده . وكانت تتلى القطعة المتعلقة بالرياسات والمشيخات القبلية فى الحفلات الرسمية ، وكان حاشدا دائما بالاشارات الى الامجاد العسكرية والى الانتصارات الرائعة التى حققها الشـيوخ المعنيون . وكانت تتضمن أيضـا اشـارات الى ما عندهم من عبقريات فى الشئون المدنية ، وطاقات هائلة ، وتتركز على الاشخـاص أكثر من تركزها على الافكار ، ولا تمس الاخيرة الا عنـد معالجة العلاقات المتشابكة بين الناس . أما المجمـوعة الثـانية فتضم

---

(١) السير ادوارد تايلور (١٨٣٢ ــ ١٩١٧) عالم انكليزى فى أصول الانسان . ولد فى لندن وارتحل الى أمـريكا فى عام ١٨٥٥ وزارة المكسيك حيث أصبح شـديد الاهتمام بموضوعه وأخذ يدون ملاحظاته . أصدر عدة كتب أهمها « الثقافة البدائية » « التاريخ المبكر لاصول الانسان » و « أصول الانسـان » .

ـ المعرب ـ

القطع التى تجمع بين التلاوة وبين الانشـــاد . وتضم هـــذه المجمـوعة المراثى . وأغانى الصيادين فى احتفالاتهم . ويمكن القول بأن الاشارات والايماءات فيها ، تلتف حول بضعة موضوعات ، معظمها يتعلق بالجدود والاسلاف . وبعض الاشخاص المعينين وطوالع الأسرة وحظوظها . وتضم المجموعة الثالثة الشعر الغنائى الذى تستخدم فيه الأغنية طريقا للشعر . والقسم الأكبر من شعر الاكانيين من الشـــــعر الغنائى . وتضم هذه المجموعة مواعظ العبادة ، وأناشـيد الاحتفـالات المختلفة والتـلاوات الشعرية الفردية . واذا ما استثنينا الأمثال السائرة والحكم ، والأقوال المأثورة ، فان هذا الشعر كان السبيل الوحيد الآخر المستخدم فى التعبير الاسلوبى الموزون . وفى الاهداف التعليمية الاخـرى . أما المجمـوعة الرابعة والاخيرة فتضم الرســائل التى يبعث بهـا عن طريق الطبـول والابواق ، وهى رسائل ادبية فى طبقاتها الموســيقية ، وطريقة لفظها ، ودقة تعبيرها .

ولم يكن هناك بين القطع الادبية التى تضمها هذه المجموعات الاربع ما يبرر حصر علماء الاجنــاس البشرية اهتمامهم بالامثــال ، وجعلهـا النماذج الوحيدة للأدب الافريقى . فلقد كانت الامثــال حقـا ، أقوالا حكيمة ، تتمتع بالذيوع والانتشار التقليديين ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه صلبة ومفتقرة الى المرونة فى شكلها ولم تكن تخرج فى واقعها عن انها بيانات يقصد منها التعبير عن الحقيقة ، مع الانطواء على بعض العبر المعنوية فى التطبيق . ولقـــد نبعت طرافتها ، واستســاغة وقعها على الآذان ، من قصرها ومن طاقاتها على الايحاء بمختلف التفاسير والمعانى وكان تزمتها وجمودها موضع مفارقة كاملة ، مع ما فى اختراع القصص من حرية ولم يكن الاكانيون يحسبون الامثال جزءا من تراثهم الادبى . كما أنهم ايضا لم يضمنوا هذا التراث أقوالهم السائرة . التى تختلف عن أمثالهم فى أنها أقل منها صلابة وتزمتا . وفى ان الانســان يستطيع التحوير فى تلاوتها ، وفى تغيير صيغة افعالها ، واشخاص ضمائرها . وكانت هناك قصص شعرية جمة أيضا تكون على شكل مقاطع شعرية ثنائية ، يذكر فيها اسم القائل ، ثم يتلى قوله كقصة ما قالته العنكبوت للذبابة ، أو كقول ذكر الماعز ، انه اذا صح ما يقــال من أن النجاح مع الاناث يؤهل الذكر لتسنم العرش ، فانه سيكون والحـــالة هذه ملكا صالحا يجلس على محفة . وكانت هناك ايضا قصص اطولوغية معللة لجميع الظواهر توضح مثلا ، كيف حصـــل الفيل على ذنبه . ولم يكن الاكانيون يعدون هذه القصص من تراثهم الادبى أيضا . ولكن كان هناك موقف غامض على أى حال ، بالنســبة الى الأساطير التى تروى الدروس الاخلاقية . وهى اقرب الى الابتكارات الفوغائية منها الى القطع الادبية .

وكانت هناك أساطير شعبية اخرى تجمع بين الشعر والقصة ولكنها تعتبر عند الاكانيين جزءا من تراثهم الادبى .

أما الاقوال الحكمية السائرة ، فلم تكن بحكم الضرورة قصيرة ومقتضبة بل كان بعضها فى الواقع ، وأحيانا ، طويلا ومسهبا . ويبدو فى شكل قصص اكثر منه فى شكل تلك المركزات التلقائية الحياة المتمثلة فى الامثال الحقيقية الاصيلة ، وتنتشر هذه الاقوال الحكمية فى افريقيا انتشارا واسعا – وتتشابه الموضوعات التى تدور حولها تشابها قويا ، من بلد الى آخر ومن مكان الى مكان ثان ، فعندما يقول « أبناء قبائل اليوروبا » مثلا ، ان العالم وصل الى ضائقة ، تسقط فيها البيضة فى قدر من الفخار ، فينكسر القدر ولا تتكسر البيضة ، فان ابناء الاكان يحسون نفس الاحساس عندما يقولون ان « السعلاة سقطت من أعلى شجرة من أشجار جوز الهند على الارض ، وأخذت تسأل الارض تحتها وهى تحرك رأسها عاليا سافلا ، عما اذا كانت – أى الارض – قد أصيبت بدوار من سقطتها عليها » . وفى وسع المرء أن يفترض أن الانكليز ، كانوا يعنون الشىء نفسه عندما يقولون .. « أن برج الكلب فى السماء هو الذى اختفى أمام الضوء الخافت » ، وفى هذا المجال أيضا تجد الروح العملية مكانها ، كما يتأكد عزل النظم الاجتماعية عن العواطف الشخصية وهكذا فان ابناء اليوروبا قد لاحظوا ، بأن الانسان لا يغدو مجنونا بحيث يرتدى قبعته على عجزه . ولا ريب فى أن الوهم السخيف الذى ينطوى عليه مثل هذا القول ، يعتبر مصدر امتاع واثارة للخيال .

وكانت قصص المحتالين والقصص الخفيفة من النوع الذى يبعث على التسلية ويؤدى الى التثقيف فى الوقت نفسه . ولقد أدرجت قوائم من الحيل المحتملة فى شكل قصص ، كما شرحت الحركات المضادة للتغلب على هذه الحيل . وكانت هذه القصص تستعمل أحيانا للاصرار على تطبيق العدالة ومقاومة الطغيان مع الحفاظ على الرقة والدماثة . وهناك أسلوب بديل لتحقيق الغاية نفسها وهى وضع شروط صعبة ومستحيلة بالنسبة الى طلبات مستحيلة ايضا . فمن أقاصيص «الفاندا» مثلا أن حاكما طلب من شخص أن يصنع له انسانا ، فرد هذا الشخص طالبا توفير المواد الاولية اللازمة له لاتمام عملية الخلق . وقد اشترط ان تكون هذه المواد الف حمل من الفحم المصنوع من الشعر البشرى ، ومائة قدر كبير ملأى بالدموع . وتقول قصة أخرى عند أهل الكاميرون ، انه طلب الى سلحفاة . أن تحمل الماء فى احدى السلال . فردت السلحفاة بثبات مصحوب بالدماثة والرقة أنها تطلب حبلا مصنوعا من الدخان لحمل السلة . وهكذا أمكن عن هذا الطريق ضمان احترام السلطة مع الاحتفاظ للعدالة بكرامتها . ولا ريب فى أن حسنة

هذا الابتكار تقوم فى تجنبه الصراع المجسم المكشوف مع السلطات القائمة . فبدلا من الرفض الخشن للطلب ، وما ينطوى عليه هذا الرفض من عصيان ، رد الشخص المطلوب منه على الطالب باظهار التعاون . مع أن هذا التعاون يمثل فى الحقيقة تحطيما لفكرة الطلب المكلف به . وقد اتبعت أنانسى العنكبوت فى قصص الاكانيين طريقة مماثلة للتعامل مع المحتالين المتميزين بقلة الادب . فلقد عاش هناك طاغية لايستطيع أن يحتمل مناقضة أوامره ومخالفتها. ولذا راح يعدم جميع اولئك الذين استفزهم بطلباته الجنونية وقصصه الطويلة الى نوبات من الكفر . وراحت انانسى العنكبوت تزوره ذات يوم ، وصمتت لجميع استفزازاته ثم عادت الى بيتها لتختفى ، وتعلم أولادها الطريقة التى كلفتهم باتباعها معه .

وقد صمد الطاغية للتجربة فى بداية الامر ، ولكنه ما لبث أن انهار ، وعارض كل شىء ، وتعرض لهجوم عنيف . وكان بين ما قيل له مثلا عندما طلب بعض الماء من وعاء أبرد ، بان القسم الاعلى من الماء والدتهم الغائبة انانسى . وأن القسم الاوسط ، لعمة لهم ، ستغضب أشد الغضب ، اذا ما مس ملؤها ، وأن القسم الاسفل لهم ، ولكنهم لا يستطيعون الوصول اليه دون المساس بالقسمين الآخرين . وعندما سأل الطاغية عن المكان الذى توجد فيه العنكبوت ، رد عليه الأولاد بأنها حاولت أن تقطف ثمرة من الشجرة ، فأصيبت بجراح ، نزف منها الدم البادى على الارض ، ثم مضت بحثا عن العلاجات اللازمة .

وكان القصد من بعض هذه القصص التأكيد على تفوق الذكاء على الجمود . فمثلا كسبت السلحفاة الافريقية سباقها مع الارنب ، لا عن طريق المضى فى السير والجهد طيلة الليل ، بينما الارنب نائم ، وانما عن طريق ، تفريخ السلاحف بين الاعشاب على طول طريق السباق . بحيث قفزت السلحفاة الاخيرة الى الشريط الذى يرمز الى نهاية السباق فى الوقت المناسب ، وليس ثمة من شك ايضا فى أن هذه القصة تبرز وحدة العشيرة من ناحية وقيمة الجهد التعاونى من الناحية الاخرى .

ويتضح وجود شىء من النقد الادبى عند الاكانيين فى حثهم القصاص على المزيد والمزيد من الكمال فى المادة والصورة والالقاء . ولا ريب فى أن اتباع المبدأ القائل بعدم وجود خلاف فى الأذواق بحماس ، يعرض المرء فورا الى تهمة الابتذال والرخص . وقد لا يكون من حسن الفطن بأى حال من الاحوال أن يختلف المرء دائما مع الاذواق المقبولة جماعيا على انها أذواق مهذبة . ويستطيع المرء أن يفترض أن تقديم هذا المبدأ

تمرد ، لا يقل عن غرابة تولستوي عندما وضع شكسبير على قدم المساواة مع وولتر سكوت (١) - ولا تتمرد سورات الذوق الادبي دائما على الانضباط والنظام كل التمرد . ولعل النظام والمشاكسة اللذين تدخلهما مجموعة الافكار النقدية على الادب ، هما اللذان حملا بعض الناس على تسمية النقد بالنشاط المزعج الذي يتحرى عن الاخطاء ليس إلا .

وقد يكون من الممكن الى مدى محدود جدا ، أن يجمع المرء من اللغات نفسها شيئا من السنن والقواعد الادبية . اذ أن كل لغة من اللغات تنطوي في حد ذاتها على قواعد معينة للروعة وجمال التصوير . فقد تكون بعض الآراء التي يعبر عنها بطريقة معينة في لغة من اللغات مثلا ، مثيرة للضحك والسخرية ، بينما تكون غريبة على اكثر تقدير في لغة أخرى — فتشبيه وجه زميل من الزملاء مثلا بالجيب الداخلي لعامل بناء في الجحيم أو الى قطعة نقدية من نقود الجحيم الباهتة اللون، طريقة ناجحة في اثارة الضحك على شفاه الشبان . أما في الانجليزية فان صفة الخيال الواسع والرائع تطلق على صاحب هذا القول ، دون أي اكتراث بما في التعبير الساخر من موهبة حقيقية .

ومن الطبيعي انه قد لا يكون هذا هو المنطق الكامل ، للتقدير الادبي الذي تقترحه اللغة نفسها ، اذ أن هناك الكثير من الامور المفهومة أيضا . كما أن هناك كثيرا من الآراء عن علاقة الفرد بالآخر ، وعن علاقة الفرد بالمجتمع ، وبالروح أيضا . ويجد المرء أن التشخيص وأن اندماج الفرد في المجموع . لم يكونا ظاهرين في ادب الاكانيين التقليدي . ويعثر الانسان على تفسير هذه الظاهرة ، في مفهوم المجتمع نفسه ، وفي مفهوم الفرد أيضا . ولما كانت النظرة الى المجتمع على انه يضم الافراد الذين فرضت عليهم واجبات ومسئوليات مسبقة . فان الفرد المجسم ذا الابعاد الثلاثة وهي الطول والعرض والعمق . والذي يؤكد وجوده تماما كذرة واحدة بينة ، لم يكن له وجود في المجتمع الاكاني . ولهذا فان الادب لم يصور هذا الفرد . ولم يكن العقد الاجتماعي زيفا بالنسبة الى المجتمع الاكاني ، بل كان سخفا ، اذ حتى قبل أن يولد الانسان . كانت عوامله الروحية تمت الى جماعات عرفية . ولهذا كانت النماذج

---

(١) شكسبير الشاعر الانكليزي الاشهر الذي لايحتاج الى أي تعريف - والسير وولتر سكوت (١٧٧١ — ١٨٣٢) من اشهر شعراء انكلترا وقصاصيها ومؤرخيها . ولد في أدنبره واصيب بالعرج في صباه وظل ملازما له طيلة حياته ، درس الحقوق وأصبح محاميا من اشهر مؤلفاته « سيدة البحيرة » و « إيفانهو » و « الدير » و « الراهب » وكثير غيرها .
— المعرب —

الفردية للشخصية فى أدب الاكانيين أكثر طرافة وأهمية من الشخصيات الذاتية فى المجموع . ولعل هـذا التقليد المختلف لتشخيص الطراز أو النمـــوذج ، والذى ساد الادب الافريقى كله أدى الى فشل القصاصين الافريقيين فى رسم الشخصيات المثلثة الابعاد (الشخصيات الواقعية) فى اللغتين الانجليزية والفرنسية فشلا ذريعا . فلقد كانت الشخصيات التى خلقوها سطحية وشـــفافة ولا ريب فى أن موضوع طريقتهم فى التصوير الادبى ، يقوم فى هذه الحقيقة تماما .

ولا ينفذ كل شيء بالطريق الجماعى فى المجتمعات التى تقوم على أساس الجماعية . واذا كان الهـدف فى كثير من الامور التى تنفـذ ، يستوحى خير المجموع كله . ولم يكن الناس جميعا ـ اذا ما استثنينا أصحاب الرءوس القديمة ـ يعملون عملا جديا فى حقل النقد الادبى ، فلقد ترك أمر النقد بصورة عامة الى منتجى الادب انفسهم . وقد اتخذ النقـد شكل تثبيت المفاهيم الادبية ، وايضاحها للمتمرنين على حرفة الادب ، وجعلها بالتالى هى المتفوقة والمسيطرة . ولذا انحصر اهتمامها بشـكل خاص فى التعابير الاسلوبية التى لم ينأ تكرارها قط عن مرتبة الاعجاب . وكذلك فى الطرائق ووسائل البناء الادبى والانتاج . وقد أبرز المنتجون الموهوبون مواهبهم الادبية من هذه العناصر ، ثم انطلقت هذه المواهب أول ما انطلقت لتمارس طاقاتها فى حقل النقد . وذلك فى نطاق منظم من الانعكاسات الواعية دائمـا لروائع أدبيـة ناضجة ، يقـوم على التقييم والمقارنة ، وكذلك على المقاييس المتبدلة . اذ أن المقارنات فى الادب تترك دائما أثرا من المقاييس المتبدلة . وهكذا اختلط عن هذا الطريق ، فى الادب الاكانى عنصرا التقليـد والابداع ، أى المدرسـتان الكلاسـيكية والرومانتيكية . ووضع خالقو الادب ، على ضـــوء الروائع الموجودة ، قانونا للمستويات الادبية ، ومقياسا للاساليب بالنسـبة الى مؤلفاتهم ، وغدا كل واحد منهم فى انتاجه ، مشرعا للقانون وانسانا يمثل الغرابة التى تكاد تصل حدود الخيال .

ولكن اذا كنا نستطيع فى دراساتنا للأدب غير المكتوب ايجاد أساس لتعليم النقد التقليدى . فان من واجبنا فى الوقت نفسه أن ندرك اننا فى عرضنا لها لا نستطيع أن نتجاهل نتائج اتصـالنا بالادب الاوربى ، وبمواقف التقييم النقدى المواتية له . واذا كنا حتى فى عرضنا له ملزمين على أن نلاحظ اتصالا لنا بأوربا ، فان من الواضح اننا عندما نكتب بعض ادبنا الحديث فى الانكليزية او الفرنسية . يجب أن نأخذ بعين الاعتبار اننا نكتب الى حد ما الى القراء الاوربيين ايضا . وهنا تصبح مشـكلة طريقة الكتابة ، ذات صلة الى حد ما بما نكتبه . فالقصصيون الافريقيون الذين يكتبون فى الانكليزية أو الفرنسية ، يصرحون بأن هدفهم هو أن

يكتبوا الى قرائهم الافريقيين العالمي الثقافة ، وما لم يكن هنـــاك شيء ، ذو طابع أفريقي محض ، لايستقى وحيه من طـابع الأدبين الانكليزى ، والفرنسي ، ويحتاجه كل افريقي حتى ولو كان عالمي الثقافة ؛ فان المرء لايستطيع أن يفهم، لماذا يجب أن يشعر القصصيون الافريقيون أنفسهم، بأن رسالتهم الادبية هي أن يتحـــدثوا الى قرائهم من الافارقة ويحس أديبنا «أشيبي» بأهمية هذه الرسالة ، واذا ما استثنينا كامارا لايي مثلا فان القصصيين الافريقيين لم يبذلوا جهدا للعمل بوحي هذا الاحساس، فهم جميعا ، بما في ضمنهم عاموس توتولا بلهجته الشاذة التي لا تفهم، حاولوا على النقيض من ذلك ، ان يقبلوا بشيء من الشـغف أن يكونوا في الصور التي أرادها لهم الغرباء من النقاد الاوربيين، وحشروا أنفسهم حشرا في هذه الصور ، دون أن يسترشدوا بوحي أو حتى بايمان، وكانت نتيجة هذا أن بدأ سحر توتولو يضعف شيئا شيئا ، بينما باتت مهمة سـيبريان ايكونيس أن ينجح في العمـل الاذاعي في نيجيريا . وانتقـل المشعل الى أيدي المبتدئين من امثال أشيبي ، الذي يواصل السير في طريق النجاح باستمرار .

وهناك على وجه العموم طريقان يستطيع القصاصون الافريقيون بوساطتهما تأمين الغذاء الفكرى للجمـاهير الافريقية · فهم يستطيعون أن يدخلوا في لغتهم لهجاتهم الخاصة · ويستطيع المرء عن هذا الطريق ان يفكر دائمـا ببعض الالتواءات اللفظيـة وبعض المصطلحات المحليـة الخاصة بلهجته المحلية .والطريقة العملية التي تبدو فيها هذه المشكلة تتمثل في معالجة موضوع البدائية الافريقيـة في أدب يكتب غالبـا في اللغتين الانكليزية والفرنسية · وهنـاك قول جميل مأثور يقول ان عامة الناس في كل مكان لا يتغيرون مطلقا . وعلى الرغم من صدق هذا القول الى حـد ما ، الا أنه قد يحجب أيضـا ، ما قد يعرضه من انعكاسات صغيرة يمـكن أن يظهرها في الحقيقة · فالموضوعات الشعبية الافريقية تختلف من عدة نواح مهمة عن أشباهها عند الانكليز والفرنسيين. ولعل أقرب شبه لها في أوربا ؛ هي الموضوعات المتعلقة بفلاحي ارلنده ، وفلاحي السلاف في عهود ما قبل الثورة . وما القول بأن الاوضاع الاجتماعية والجغرافية ، هي التي تحدد الى درجة كبيرة طبيعة الشعب وشخصيته الا تكرار لشيء شائع معروف في علم الاجتماع · وتعزى الصرامة التي أصبحت مضرب الامثال عند الاسكوتلنديين الى الحقيقة الواقعة وهي أن «كاليدونيا» بلد ذو طبيعة جغرافية قاسـية ، وموحش كل الوحشـة من ناحية والى تزمت النظام المشيخي الكنسي الذي يتبعه الاسكوتلنديون من الناحية الاخرى . وقد يكون الانكماش المتوارث . وعـدم الاندماج مع الآخرين بالطبع سببا آخر من هذه الاسباب . وعلى هذا الاساس،

وعلى ضوء الاوضاع الاجتماعية وعلم الاجتماع وحدهما ـ هذا اذا شئنا تغافل النشأة الغيبية ـ يمكن توقع خلاف فى العبقرية بين فلاحى افريقيا وبين أهالى الارياف فى انجلترا وفرنسا . وما اللغة الانكليزية الا جزءا من التعبير عن عبقرية الشعب الانجليزى، وما كراهيته للقواعد العامة الا انعكاسا جميلا لما تتميز به الروح الانجليزية من ميل الى الاختبار والتجربة . على اى حال لا يستطيع المرء أن يفكر فى وجود لهجة ريفية فى اللغة الانكليزية ، دون أن يفكر بلهجة الريفيين الانجليز. وفى الامكان حمل الريفيين الافارقة فى القصة الافريقية التى تؤلف بالانجليزية على التحدث مثل أهل الريف فى انجلترا ، وستكون المصطلحات فى مثل هذه الحالة وروح النكتة الساخرة ، والسنن الاخلاقية الدينية هى عين مصطلحات الريفيين الانجليز وروحهم الساخرة ، وسننهم الاخلاقية ، وما يصح قوله بالنسبة الى الانجليز « يصح قوله بالنسبة الى الفرنسيين أيضا . ومن الواضح أن فى الامكان وصف رجال الاسكيمو باللغة الصينية دون تجاوز الواقعية أو الخروج عليها • وليست الواقعية الوصفية ، على أى حال ، هى عين المطابقة الخلقية . وبينما تكون الاولى أى الواقعية صالحة لكاتبى المقالاتتكون الاخرى اى المطابقة الخلقية الغاية التى يسعى اليها القصصى .

ومن المسلم به • أن من واجب القصصيين الافارقة الجدد أن يعملوا لافريقيا ما عمله هاردى (Hardy) (١) ولورنس (Lawrence) (٢) لبريطانيا . وهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك عن طريق ابراز الصورة الافريقية المحلية ولهجاتها ، وراء كتاباتهم الانجليزية والفرنسية « أى بالكتابة عن التقاليد الافريقية والظهور بمظهر من يترجم هذه الكتابةالى اللغتين الانجليزية والفرنسية ـ وستعتمد جدة كتاباتهم فى اللغات الاوربية اعتمادا كليا على تلك الطرائق من الاصول الافتراضية التى لايمكن أن تعيش الا فى الترجمات الافتراضية • وستعكس صورهم المحلية مواقف معنوية واصطلاحات » وتصنعا أسلوبيا وشخصيات وأوضاعا

---

(١) توماس هاردى (١٨٤٠ ـ ١٩٢٨) ، قصصي وشاعر انجليزى ، ولد فيدورست شاير من آسرة متواضعة ـ درس دراسة خاصة ، وتعلم اللاتينية والفرنسية من اشهر قصصه «عينان زرقاوان» وقصة ـ «كورنهيل وعودة المواطن واثنان في قلعة والمحبوبة المشروقة و مجموعة من السيدات » وغيرها كثير .

(٢) دافيد هوبرت لورنس (١٨٨٥ ـ ١٩٣٠) قصصي انجليزى ، ولد في نوتينجهام من والد يعمل في المناجم ، درس في كلية المدينة ، أصبح استاذا من اشهر قصصه « الطاووس الابيض و أبناء وعشاق و اجتاز المحنة و الشفق في ايطاليا و اوهام اللاوامى و عشيق الليدى شاترلى و قوس قزح و نساء عاشقات » .

ـ المعرب ـ

مختلفة . ويجب أن يكون الوضع الذى يصوره القصصى هو عين الوضع الذى يلمسه ويحس به . وعندما تختلف لغتان فى طاقاتهما على وصف الأشياء وصفا عاما ، كالاختلاف القائم مثلا بين اللغات الافريقية، وبين بعض اللغات الاوربيــة . فان من الواضح ان على القصــة التى جعلت موضوعها عن الافارقة التقليديين أن تظهر شيئا من الحــذق فى بنــاء الصورة التى تعرضها والسير فيها ؛ ولا ريب فى أن مثل هذه الصور هى التى تجعل من الادب الافريقى الحديث افريقيا حتى وان كتب فى لغات أوربية وهو ما لا يقع لمجرد أن الافريقيين هم الذين كتبوه .

ولا ريب فى أن طراز النكتة الســاخرة ، الذى يظهــر فى النتــاج الادبى الافريقى القديم ، يؤلف عنصرا آخر ، له جذوره الثابتة فى الريف، ويلقى غذاءه فى نبات الخيال والاشياء الغريبة .

ويتمثل الشىء الثــانى الذى يســتطيع القصصــيون الافريقيون تقديمه الى جماهيرهم الافريقية فى استغلال اوضاع مجتمعاتهم . وفى تضمين قصصهم العناصر التقليدية القديمــة والعنــاصر المختــارة من ثقافتى الغرب والشرق الاوســط ، وما يتميز به حاضرنا من ميــوعة وانسياب ، وما تواجهه ثقافتنا من تحد، وماتتعرض له أنظمتنا القديمة من انهيار وتفسخ ، بالاضافة الى تصوير العقليات والعقائد والعادات ، والذكاء والثبات ، والصوفية التقليدية ، والدماثة الارستقراطية والكرم الحاتمى . وفى وسع كل هذه الموضوعات أن تؤمن المادة اللازمة لعدد ضخم من القصص والروايات والمسرحيات ولو أظهر قصاصو افريقيــا وكتابها المسرحيون احساسا كافيا بمــا يمتد أمامهم من آفاق واســعة ، فان شخصــية الرجل الضائع بين عالمين، وهى الشخصية المزعجة كل الازعاج، ستتضاءل فى حجمها ولن تظل كابوســا لهم الى ما لا نهــاية ، فالرجل الضائع بين عالمين أى الرجل الذى لا يتعرض بطريقة جذرية أو ثابتــة الى وسط غريب عليه ، مختلف كل الاختلاف عن الوسط الذى ينتمى اليه . مع استمرار وسطه التقليدى فى الاحاطة به ، هو حقا انســان تائه مشرد ، فاستحواذه على الثقافة الجديدة ليس من الشمول الكافى بحيث تصبح جزءا من وعيه ومن ضميره ، وهى لهذا تظل فى صراع دائم ومســتمر مع « الاجواء » التى ولد فيها . والتى لم تســتأصل قط استئصــالا صحيحا من الكون الذى يعيش فيه . فهو لا يعدو أن يكون والحالة هذه لغزا ثقافيا غامضا ، لا ثقافة يتكافأ فيهــا الضدان . لان ثقافته هذه ـ تكون مصحوبة دائما ، والى حد بارز ، بالمساوئ والريب والشكوك . وقد تنقلب هذه الريب ، بل هذا التوتر الذى يبلغ حدود الصعاب ، الى فواجع مرعبة . حقا ان الرجل الضـــائع بين عالمين ،

والذى يحاول ان يخطو كخطو الغراب الذى نسي مشيته : رجل تائه مشرد .

أما بالنسبة الى الادب الاكانى نفسه . فسيظل فى حالة نمو وازدهار مضطردين مستقيا النفع من كل علم حديث . وتمارس القدرة على الكتابة تأثيرا عميقا على الادب الحديث عند الاكانيين . واذا لم يكن لها من فضل سوى توسيع الافاق فى الادب ، فان هذا الفضل وحده أكثر من الكفاية. ولا ريب فى أن هذه الظاهرة تؤلف ميزة ضخمة بالنسبة الى ما فى الادب التقليدى القديم من لذع حاذق . فلقد مكنت سعة الآفاق الثقافية هذه ، الادباء من متابعة بحوثهم بصورة مفصلة . وهذا سهل على التشخيص « الثلاثى الابعاد » ، مهمته وعمله ؛ وأضفت هذه السعة نفسها على الشعر الاكانى مزية نظرية تختلف كل الاختلاف عن مزاياه السمعية السابقة . وذلك عن طريق ظهوره فى شكل مطبوع . وبات فى وسع الانسان أن يقرأه الآن قراءة صامتة، يتمتع بها كل التمتع. وأدت الكتابة ايضا الى ظهور المزيد من الانعكاسات الشخصية فى الشعر. وذلك لان عامل «التذرير» قد أصاب مستمعى الشعر ايضا . فأصبحوا فرادى اكثر منهم جماعات مجمعة . وبينما كان الشعراء القدامى يضفون تعبيراتهم الشخصية على الحقائق المشتقة من النظرة العالمية للمجموعة . وكذلك على العواطف والسنن الاخلاقية المجموعية ، فان الشاعر الاكانى ، بات قادرا اليوم ، وتزيد قدرته يوما بعد آخر ، على التعبير عن رأيه هو . وعن فهمه الشخصى للعالم . وكذلك عن عواطفه الخاصة به وأخلاقه . ومع ذلك فهناك بعض الشعراء المحدثين من أمثال نيكيتا ، الذين يعربون عن الاحاسيس المجموعية فى قصيدهم؛ وهى أحاسيس تستمد وحيها والهامها من التقاليد الاكانية الحية . وأرى هنا أن أقتبس ترجمة حرة لمقطوعتين من شعر نيكيتا الاكانى ، وأولى هاتين المقطوعتين من قصيدة بعنوان « الخطوات الاولى » ... قال الشاعر :

ورأيت طائرا صغيرا يحلق فى الهواء ..

وقد امتلأ منقاره بالعساليج التى يحملها .

انه يتجه الى هناك بعيدا ، فوق البحر ، لينقل الى يا آمانو

ما يحمله ، ولتستحم روحه فى مياهها .

***

ولكن هل وصل الطائر الصغير ، دون أن يراه نوح ؟

أو لم أر الريح تحمل صخرة تتأرجح فى يديها .

لتهدد بها الطائر الصغير الأشبه بكرة من المطاط •
وهو فى طريقه فوق الأمواج • يصفق بجناحيه تلك الريح الشرسة
التى تعذبه •• وتعول أمامه ؟
أو لم تصب الصخرة ، الطائر الصغير •
أو لم يمت ؟
آه لقد انتهك نبات الفطر اللزج العش الذى بناه •
وتغلبت تفايات الوحل ، على السلة التى حاكها بمنقاره •
يالله ، لقد تحولت مزرعة الاله قوسو الى أجمة من الاشواك ••

أما القطعة الثانية التى أردت اقتباسها هنا ، فمن قصيدة له عنوانها « القمر » •• يقول الشاعر ••••

أو لم يحدث مؤخرا •• وكنت أقتعد القرفصاء على قمة رابية •
ان رأيت القمر ، يقف هناك فوق القرية •••
ينشر خيوطه الذهبية على سقوفها معلنا عن وجوده ؟
يا له من سائح جواب ، تآمر مع الليل •••
وراحت الفراشات تدله على طريقه • بينما تصفق له بأجنحتها --
وبعضها يهلل له ويهتف • بينما البعض الآخر يكنس له الطريق --
ويجعل من نفسه مشعلا يقود خطاه ••••
ثم تتناثر أمامه وخلفه ، والى شماله ويمينه •••
وكلها ألسنة ترنم وتزغرد •

* * *

يا طفلات أمنا الأرض •• يا أطفال زوجة « الخميس »
ترنمى ، وانشدى فى الضوء المتفتح •••
فالكبار منكن يتحدثن • والصغار يصغين بكل آذانهن •
أما أنت أيها السائح •• أيها الطائر الجواب ، أيها القمر •••
فأنا مقع على هضبتى ، لم أعد أراك •

* * *

ترى من اختطف الضياء الابيض من بين يدى ؟
ترى من الذى يرشدنى الى المكان الذى مضى اليه القمر •؟
ترى أين أضع قدمى حتى لاأفقد هذه النعمة ؟

أين أذرع مقعدى حتى لأرى أى تبدل ؟
وهناك فى الدنيا الثانية ، دنيا الشدة والمحنة هل يتجدد الأصغران.
الليل والنهار ؟

* * *

قف ٠٠٠ بل عد ٠٠ وانقل الى جميع أبناء القبيلة ٠
ان القمر لم يمت ، لقد مضى ، ولكن ها هو يعود الآن ٠
فليعد الكبار الى أحاديثهم ٠ وليرجع الاطفال الى لعبهم ٠
وليجلس العراف ، مقتعدا على الرابية ٠٠٠
ليسرح ببصره فى الفضاء البعيد ٠٠ لقد عادت الاميرة ٠٠٠
تخطو وهى نائمة فى طريقها الأزلى ٠٠
لقد بعدت عن القرية ٠٠
وخيم الظلام ٠٠ عابسا أشد ما يكون العبوس ٠٠

***

ان الحب الذى تبديه لى يغلبنى على أمرى ٠٠٠
وهذا هو ما أهتم به ٠٠٠ وعندما أقتعد القرفصاء على الرابية ٠
ولا أراك أمامى ٠ فسأعرف أن الى جانبى ٠٠٠
يقعى حبك معى ، على الرابية ٠
وعندما أقتعد القرفصاء على الرابية ، فلا أرى وجهك أمامى ٠٠٠
أعرف أنك لم تنسنى ٠٠٠٠

* * *

أولا تعكس هاتان المقطوعتان الشعريتان ، مزاج الاكانيين الحزين ؟ لاريب فى أن البسمة التى تبدو على شفاه الاكانيين دائما ، هى فى حد ذاتها دليل واضح على مايجثم على صدورهم من سحابات الحزن ٠ فالضحك حزن كما أن الملهاة مأساة وكثيرا ما يكون مصدر ضحك الاكانيين ، فى فهمهم لكل ما هو غريب ، وشاذ ٠ أما الشىء القليل الغرابة ، فأضعف من أن يثير ضحكهم ، وكثيرا ما يؤدى الى اســـتثارة مللهم ٠ واحتداد مزاجهم ٠ ويعرض مزاج الاكانيين الحزين نفسه فى تعابير وجوههم ، التى تعكس طرازا وراثيـــا من الأسى والحزن ٠ ولا ريب فى أن هذا الارث الحزين ، يجد ما يغذيه فى نظرتهم الغيبية الى الأمور ٠ وفى المبادىء التى تقوم عليها أسس تنظيمهم الاجتماعى ، والاعتقاد القائل بأننا نمت الى مجتمع ، تمت اليه أيضا أرواح غير منظورة ، للأسلاف والجدود ، تواصل

تدعيمها حولنا دائما ، وكذلك الاعتقاد القائل باننا نحن والأرواح هذه نحقق قدرا واحدا ، لا يمكن أن يؤديا الى حالة من الانتعاش النفسي والاشراق الفكرى ولا ريب فى أن اغراق الاكانى فى روحانية الانسان . قد ولدت عند كل فرد نفسية حزينة منقبضة . وفى وسع نظريات الروح بالطبع ، أن تتخذ أشكالا مختلفة . ومنها الشكل الانسانى الذى يفترض المرء فيه ، أن يكتشف فى الوضع الانسانى قيمة معنوية أصيلة ، قد تتحول الى نظرية روحية عن الانسان . وليس من المدهش والحالة هذه أن نجد فى الجدية الوقورة ، التى يتميز بها كثيرون من دعاة الانسانية لحا ، لا تستطيع العين تجاهلها ، من الحزن والأسى .

وليس ثمة من شك فى أن هذه النظرة الحزينة عند الاكانيين ، قد تجسدت فى أفكارهم التى تنطوى على موقف الاجلال الكلى للقضايا الروحيه وعلى الجدية كل الجدية فى معالجة سير الاحداث الدنيوية .

واذا عجز المرء عن اعطاء صورة وصفية آسرة عن الادب . فان فى قدرته أن يعطى صورة تفسيرية له . وهنا يستطيع المرء أن يضع أمامه مجموعة ثابتة من النتاج الأدبى ، يشرع فى دراستها . ولعل المزية الكبرى فى هذه الطريقة أنها متفتحة الأفق دائمـــا ، وأنها على استعداد لتقبل امكانات الفن الجديدة التى يستطيع خالق الأدب الرئيسى أن يعرضها . ومهما كانت التقاليد قوية مهابة الجانب فان من واجبها أن تفسح الطريق أمام المواهب الفردية . واذا شئنا التلخيص وتبسيط الامور ، قلنا ان الأدب مجموعة تجارب مر بها رجال ونساء كثيرو الاحساس تحولت الى شيء واقع ، عن طريق الخيال فى استخدام اللغة ، وباتت قادرة على استثارة انعكاسات فاهمة للفكر والعاطفة ، عند الجمـــاهير . وعن هذا الطريق وحده ، يتحول الأدب الى فن من الفنون .

السنن الأخلاقية والغيبيات :

فى الامكان سرد معظم النظريات الفلسفية فى بضع جمل ليس الا . وتتألف معظم الكتابات الفلسفية . على حد رأى زميلنا جى ، اى ، ويريدو ، من توقع اعتراضات يثيرها أنصاف الاذكياء ، وردود المفكرين عليها . ويتألف معظمها أيضا من ايضاحات للبيانات التى تتضمنها النظريات ، ومن الحجج التى تستخدم لدعمها . ولا يعنى افتقار الاكانيين الى الكفاية فى الماضى ، انهم كانوا يفتقرون الى الافكار الفلسفية . فلقد تقـدم جريوبى وبالانديه بأسئلة الى بعض عقلاء الافريقيين وحكمائهم . واستحصلوا منهم على بيانات وآراء ، لاريب فى فلسفتها . ولقد كتب الاب اليكسيس كاجامى ، اطروحة دكتوراه عن مفهوم الحياة بين أهل .. «رواندا أوراندي»

ورسم الأب بلاسيد ليمبلز • صورة نظرة قبائل « البالوبا » فى الكونجو الى العالم ، والسنن الأخلاقية المشتقة من هذه النظرة • وصرف الدكتور دانكو ، فى غانا الكثير من الجهد فى دراسة مفهوم « الله » عند الاكانيين • وعلى الرغم من كثرة عدد هذه المؤلفات والبحوث ، الا أنها كانت متناثرة ومتفرقة فى تاريخ صدورها • ولم تظهر فقط بوضوح على أنها تؤلف جهودا واضحة فى حقل جلى من حقول الدراسات الافريقية الفلسفية •

وهناك بالطبع ناحيتان رئيسيتان فى هذا الحقل ، وهما الناحية العامة والناحية الخاصة • وفى وسع العاملين فى هذا الحقل أن يجدوا فى طول أفريقيا وعرضها نماذج مما يمكن أن يدعى فلسفة عامة ، تتابع عادة الأسس النظرية للمجتمع التقليدى • وثمة أيضا فلسفة خاصة على أى حال وهى زبدة أفكار أفراد لاتصور الفكر المجموعى • وليس ثمة شك فى أن الكثير فى مؤلفات كاجامى ، ودراسات جريوبى ، وهى من هذا الطراز الاخير • وقد يقال ان جريوبى وجد فى بحوثه فى غير هدى فيلسوفا « افريقيا » فردا ، بدلا من أن يجد مستودعا من الفلسفة العامة•

ومن الواجب فى الوقت نفسه التمييز بين السؤال عما اذا كانت هناك فلسفة افريقية والسؤال عما اذا كان هناك فلاسفة من الافريقيين • وعلى الرغم من أن الرد بالنفى على السؤال الاخير ، يعنى ردا «سلبيا» بالنسبة الى الأول أيضا فان الرد بالايجاب على السؤال الاخير يترك المجال مفتوحا بالنسبة الى الرد على السؤال الأول • والتساؤل عن وجود فلسفة افريقية ، لا يعتبر سؤالا ذا طابع تفردى • فليس ثمة من داع يدعو لوجود فلسفة افريقية أن تكون هذه الفلسفة مختلفة عن غيرها من الفلسفات • ويكفى أن تظهر هناك فلسفة فى أفريقيا والا تكون هذه الفلسفة مشتقة من خارج القارة •

وتجد بعض القضايا الفلسفية التى تثار فى أى مكان فى العالم ، رذودا لها فى الفكر الافريقى • وفى وسع الانسان أن يضرب مثلا بنظرية المعرفة • وتهتم نظرية المعرفة على وجه العموم ، بأوضاع المعرفة عامة ، وببذل محاولة لتحديد حدود الفهم الانسانى وطرائقه الى المعرفة على اختلاف صورها ، وأشكالها ، وبايجاد طراز من هذه المعرفة يؤلف فى حقيقته نمطا يتوقف على ما فى الطريقة المؤدية اليها من نفع وفائدة • ولكن نظرية المعرفة أيضا تهتم ببنود خاصة من بنود المعرفة • ولا سيما تلك التى تعتبر تطبيق مفاهيمها فى حد ذاته دليلا على فهمها حقا • وتعتبر طريقة « الافعال المتواترة » التى اكتشفها الاستاذ رايلى ضمن هذا الطراز ، كما تقع ضمنه أيضا اصطلاحات كثيرة • تبرز فى علم الأخلاق كاصطلاحات « فرض الكفاية » و « المبرر » و « المتعمد » و « المقصود » و « القصد »

والاصرار » وماشابهها . فمفهوم الدافع وحده مثـــلا ينطوى على مفهوم « الانسان العاقل » ولا يعتمد ما اذا كان للانسان دافع ، أولا » اعتمادا كليا » على مدى اعترافاته هو ، أو على ثمرة الاستبطان . فهو لا يبدو كملاحظ متميز على غيره ، لدوافعه هو . وتعتمد الدوافع التى يمتاز بها أو يهتم بها على المظاهر العامة لسلوكه ، وعلى الفكرة العامة عن الانسان المعقول الذى يكون فى وضع يشبه وضعه . ولكن الصورة العامة للانسان المعقول تتأثر تأثرا شديدا بتنظيم المجتمع . وبالأسس النظرية التى يقوم عليها . ولعل هذا هو السبب الذى يجعل الرجل المعقول فى كل مكان مماثلا للرجل المتمسك بالسنن الأخلاقية . ولكن اذا كانت صورة الانسان المعقول . وسلوكه يعتمدان على طراز المجتمع الذى يوجد فيه . فان من الواضح أن حلول المشاكل الأخلاقية التى لا تخرج عن كونها شبه نظرية لابد وأن تعكس الخلافات التى تقوم بين طرز المجتمعات وأنماطها . ولنصل من هذا المثال الى نهايته . نقـــول انه حتى ولو توحدت قوائم الدوافع وظهرت متشابهة ، فان عزوها الى أصولها لا بد وأن يتأثر بالنظرية التى تسود المجتمع فى الوقت الراهن . ولا بد للمواقف الفلسفية المتعلقة بها أن تظهر فروقا مماثلة ومتوازية . ولهذا فان عودة الفلاسفة الى ما نقول أو نفعل لا يمكن أن تكون دليلا على قصر النظر . وهنا يكون دور المذهب النسبى فى التأثير على الفلسفة .

وقد رسم عدد من الناس حدود الفهم والمعرفة الانسانيين بطرق مختلفة ، ولا ريب فى أن الخلاف بين المذهب الفعلى والمذهب التجريبى . يعكس هذا الفرق ، وقد لا يظهر مثل هذا الفرق دائما فى الألفاظ ، ولكنه يظهر بصورة أكثر تكرارا ، فى التعريفات المعـــادة وفى البيانات والايضاحات . ففى الاعراف العقلية مثلا ، يجب أن يكون المرء قادرا لايضاح شىء ، بشىء آخر ، أن يقيم الاستدلال الذى يربط بين الشيئين . والتواتر الثابت المجرد ، لا يعتبر كافيا . فهو بالاضافة الى عجزه عن تقديم ايضاح لغيره ، يحتاج الى ايضاح لنفسه . ومن هنا فان بعض الروايات التى تعتبر فى العرف التجريبى شيئا يحمل طابع الايضاح . قد لا تكون فى العرف العقلى ، صحيحة أو خاطئة وانما مجرد شىء لا يمكن أن يحمل طابع الايضاح أبدا . ويوضح هذا الخلاف على فكرة الايضاح شيئا من التقبل لبعض المفاهيم العامة ولتصنيف التجارب ، ونصل من هنـــا الى موضوع الغيبيات . فالتصنيف الاساسى للتجربة « من النظرة الاولى » يعرض قبل كل شىء عددا من الامكانات . ودراسة النماذج الفلسفية فى حد ذاتها ، متطفلة على احتمال النظرة الأولى ، اذ أن ما يعرضه النموذج الفلسفى ليس الا مبحثا وجوديا من ابحـــاث نظرية المعرفة والا الفئات العامة للوجود وطريقة تاليفها ، وهى الفئات التى تؤلف الهيكل المفهومى

للادراك الباطن عن العالم . ولم تعد قضية التشعب في الغروب ، الى موضوع وروح ، ، مسألة ملحة ، فامكانية قيام « الكيف » على أساس « الكم » ، تؤدى الى ظهور عدد من الكوابيس المسيطرة ، كتفسير الروح بالمشارب والميول ، وتفسير العقل بالطاقات والقدرات ، واقامة الهوية الفردية على أساس خصائص الجسم والعلاقات بين الأجسام . وكل هذه دقائق فلسفية تقرع بشدة على الذوق العقلي الفلسفي عند الاكانيين ، وكل هذه القضايا فلسفية ، كما أن الانعكاسات اللفظية عينها لا تقل عنها اتصالا بالفلسفة .

ولقد سبق لنا أن قلنا ان الأكانيين ميزوا بين الروح والمادة ، ولكنهم لم يعتبروا الفئتين من الأمور المتشابكة ، وسبق لنا أيضا أن رأينا أن الأكانيين ميزوا عددا من العوامل الروحية في الانسان . وأدركوا أنه على الرغم من أن الجسم يمكن أن يميز عن طريق الخصائص البدنية ، فان الفرد لا ينظر الى هويته الشخصية على هذا النحو . ولقد نسب الأكانيون الهوية الشخصية الى « الاوكرا » التى سبق لنا الحديث عنها . أما الهوية القبلية أو العشيريةفقد نسبت الى «المونجيا» وقد اعتبر الساتسوم مسئولا عن شخصية الانسان ، واعتمدت هوية الشخصية ، على رفض التلبس عن طريق سانسوم غريب . ومن هذا يظهر أن التفكير الدكانى ، كان يرى وجهة نظر لا تناسخية للشخصية . وكانت العيوب الخلقية في نظرهم أيضا أخطاء روحية تبلغ أحيانا حدود الآثام وكان من المعتقد أن في الامكان انتزاعها وزوالها ، عن طريق ما يمكن أن يسمى بالجراحة الروحية .

ولما كانت الأخلاق تعتمد على العقائد الغيبية ، فان سنن الاكانيين الأخلاقية كانت من الطراز « العقلاني » . ولما كانت العقوبات الخلقية متعلقة بالروح ، فان في الامكان عن طريق شيء من الافتاء ، اظهارها حتى ولو كانت وحشية وهمجية ، بمظهر ملطف ، ولا ريب في أنه نفس اللون الغيبى ، الذى يوضح سورة الغضب التى يحس بها الاكانى تجاه الانحرافات الخلقية . فمن الناحية التقليدية ، لم يكن الانحراف الخلقي مجرد عار يلبسه صاحبه ، وانما كان خطيئة كبيرة دائما ، اذ أن الانحراف الخلقي يعتبر عندهم وسيلة لشل السعادة الروحية وخلقها وتوضح الطبيعة العقلانية والاطلاقية للشرائع الخلقية عندهم أيضا ترددهم في تقبل وجود درجات من التفاوت بالنسبة للخطيئة الواحدة . فلقد كانوا يرون فى تصنيف الخطايا أمرا شكليا لا يعدو حدود التعريف ، ولا يمكن أن يرضى بأى تفاوت أو درجات وعلى هذا الاساس لم يكن العقاب عندهم يعكس أية فروق فى درجة خطورة الخطيئة عن طريق التفاوت في صرامة العقوبة . أما النظرة التجريبية إلى الجريمة والعقاب فتؤدى الى شيء من الأنسنة فى العقوبة .

ويتعزز الفرق بين الروح والمادة ، وهو أهم مايميز غيبيات الاكانيين والتمييز عندهم بين الميزة والطبع . فبينما قد يقوم الطبع على أساس الحكم ، فان أى مجال لم يبق ظاهرا عند الاكانيين لتحديد شكل «الكيف» وحده .

ومع ذلك لم تكن الفلسفة عند الآكانيين كلامية مطلقا ويمكن القول عنها على طريقة سبينوزا (١) بأنهـــا تمثل الفكرة التى يمثل المجتمع تجسيدها . وكما تقلص المجتمع التقليدى عند الآكان ليتمثل فى القرية، فكذلك تقلصت فلسفتهم التقليدية العامة ، لتنحصر فى القرية أيضا . ولا ريب فى أن هذه الفلسفة هى التى حددت ديانة الآكانيين وأخلاقهم وأوحت أيضا بقانونهم وشرائعهم فأرواح الناس عندهم اعفاء فى جمهورية روحية تتفسح أمدا من الزمن فى أجساد من لحم ودم . وكان القصد من الطقوس التى يتحتم على الانسان أداؤها كطقس غسل الروح مثلا أن تكون علامات خارجية ظاهرية لحالات روحية . وذلك لكى يتمكن المجتمع بكامله من أن يستجلى أوضاعه ككيان روحى .

وفى الامكان اعتبار القانون الآكانى كشىء مكمل للسنن الأخلاقيـة وكان العقاب الذى يلى الخطيئة الأخلاقية بطيئا فى نزوله ولكنه عندما يقع يبدو بمظهر التعبير عن غضب الاله « نيامى » الذى يقال عنه أنه يكره الشر أو كمظهر للتكفير ، تنزله الروح المعذبة بنفسها . ولما كان فى امكان هذا الطراز من العقاب أن يكون بطيئا فى وقوعه فانه لم يكن ينظر اليه دائمــا ، على أنه ذو علاقة بارتكاب الاثم نفسه . ومن هنا يكون الاغراء أمام الاشرار لبذل كثير من النشاط ولتحديد هذا النشــاط ابتكرت مجموعات من القوانين البشرية التى نصت على عقوبات منظورة مخافة أن يحاول الأشرار الافادة من بطء العقوبة الالهية لأن « نيامى » يحتمــل طويلا الآلام التى ينزلهـــا به الناس ، ولان المرء لا ينزل العقاب بنفسه كتكفير عن خطيئته الا بعد أمد طويل من التردد . وهكذا كان من الطبيعى أن يكون القانون ايحاء مؤقتا مجرداً .

وكانت القواعد الاجتماعية شـــكلية على أى حال . وكانت تحدد بالاضافة الى ذلك العلاقات المتشابكة مع الناس ، وهى ترمى دون أن تكون متزمتة فى شكلها الى تأكيد الأوضاع القائمة وبقائها .

---

(١) باروخ سبينوزا (Spinoza ١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) فيلسوف هولندى ولد فى امستردام من أصل يهودى برتغالى . حملته اراؤه الدينية على الظهور بمظهر المخالف لليهود . تعتبر فلسفته عقلانية فى أنها تقوم على المحاورة وعلى الافتراضات . وتقوم على اساس اليهودية وازدواجية ديكارت والوحدانية وافكار هوبيس . وقد بلغت قيمتها فى الفيزياء ، فقد اكد أن علم الطبيعة وحده هو الذى يكشف جواهر الامور .
ـ المعرب ـ

وهكذا كان تعامل الثقافة الغربية من جانب واحد مع هذه الثقافة التى تحدثت عنها قبل قليل • ولم تنتقل الى الثقافة الغربية من ثقافة الاكانيين الا بعض العناصر القليلة جدا • أما من الناحية الأخرى فقد سارت التأثيرات الثقافية الغربيـــة الى الاكانيين عبر دروب استعماريه وتجارية وتبشيرية • ولما كانت قوى الثقافة الموحدة والرابطة ، تهدد المشـــاريع الاستعمارية ، فلقد غدت مصلحة الاستعمار نفسـها تقضى باضعاف هذه الثقافة ولا يمكن تفسير الحملات الأولى التى شنها الاستعمار على عرش الاشانتى الذهبى الا عن طريق هذا التحليل • فطالما أن العرش قائم ، وفى حيازة الاشانتى فان أبناء هذه القبائل كانوا ملزمين على ما يظن بالدفاع عن بلادهم ضد كل عدوان • وعندما ظهر « راترى » فى الميدان ، تمكن من اقناع وزارة المستعمرات بسرعة من أن آية حركة مباشرة ضـد العرش الذهبى ستثير مقاومة عنيدة هائلة ، وعندما تمت تسوية مشكلة الاشانتى اقامت نساؤهن عرشا من الفضة قدمنه هدية الى الأميرة مارى • وأنقل هنا فقرة من الخطاب الذى وجهته ملكة الاشـــانتى الوالدة الى كوجزبرج ، الحاكم البريطانى العام فى البلاد ••• قالت الملكة ••

« اننا نبتهل الى الاله العظيم نيانكوبون ، الذى يركن اليه الناس فلا يخيب آمـالهم ، والذى يتعبده النـــاس يوم السبت ، والذى يعمل الاشانتى كما تعمل الأميرة مارى فى خدمته ، أن تمنح ابنة الملك وزوجهـا الحياة المديدة والعيش الرغد ، وأن يحملها عندما تجلس على هذا العرش الفضى الذى صنعته نساء الأشانتى لملكتهن البيضاء الوالدة ، على أن نطوف فى مخيلتها » •

وكان المبشرون أيضـــا مجرمين بما اقترفوه من أعمـــال الهدم والتخريب ، فقد خيل اليهم أن الأكانيين وغيرهم من الأفارقة يعبـــدون تحفهم الفنية فجمعوا منها ما استطاعوا جمعه ، باذلين كل جهد فى سبيل الحصول عليها وأوقدوا فيها النيران ولعل من معجزات القدر أن بعضها نجا من المصير الحتمى فى أن يكون طعما لألسنة اللهب •

وكانت المدارس الرسمية بالطبع أداة رئيسية من أدوات الاستغراب وكان من السهل عليها وبصورة تثير السخرية أن تحقق غايتها لسـبب واحد ، وهو أن أفريقيا لم تكن تعرف على الغالب هذه المدرسة • وعـلى الرغم من أنها تبعا لذلك قد افتقرت افتقارا كليا الى الاوضاع التى تنمو منها نموا طبيعيا الا أنه لم يكن هناك الكثير من الأوضاع الراهنة مما لا يتفق مع وجود المدرسة الرسمية • ولم تستطع مزايا الشهرة التى ترافق طـلاب التعليم الغربى فى المسرح الأفريقى أن تغوى الا عددا قليلا من الناس الذين تحولوا عن طريق هذا التعليم الى المزيد من الافصاح عن قوميتهم وحمل

ممثلو البلاد الأوروبية ثقافتهم معهم الى مستعمراتهم وراح أولئك الأفراد من رعاياهم الذين ابتلعتهم الدوامة الثقافية والادارية الجديدة · يبحثون لهم عن مكان تحت الشمس الثقافية المتلألئة الجديدة · وقد بدأت عملية التوجيه الجديدة في المدارس حيث شرع الأطفال ، يتعلمون أساطير وقصصا شعبية من أساطير الآخرين وقصصهم لا من أساطير بلادهم وقصصها · ولم يكن في الامكان الافتراض دائما بأن مقاييس السلوك المستحب والمثل الممكنة التي تتضمنها هذه القصص هي مقاييس محلية وعلى هذا الأساس ، وبهذه الطريقة كان الأطفال يلقون التشجيع ليعيشوا بالاضافة الى حياتهم المظهرية الخارجية ، حياة داخلية ، تعتبر منفصلة عن علاقاتهم وعن شعبهم وليفقدوا احساسهم بذلك البنيان الذى نبعوا منه · وقد شجعوا عوضاعن ذلك، على استغلال الطاقات المدهشة عند الأوروبيين وتقنيتهم وابتكارهم وفضولهم الصفيق مع ما فيه من نفع تجاه الطبيعة لمعرفة أسرارها ، وما تركه هذا الفضول من تأثير على الافريقيين وذلك كله في محاولة منهم لينسبوا الى أنفسهم وبطريقة الوكالة ، شيئا من الشهرة التى حققها الرجل الأبيض · وقد قبلت هذه الميول في شمال نيجيريا مثلا ، حيث أخذ الناس يطلقون على الرجال الافريقيين الذين يؤدون اليوم المهام التى كان الأوروبيون يؤدونها بالأمس اسم الرجال البيض أيضا ·

وتم عن طريق توجيه المدارس الرسمية اضاعة فرصة ضخمة في اغناء الثقافات الافريقية اذ لم يكن هنـــاك أى سعى منظم وذى أهداف للافتراض والتكييف ، مدفوع باحساس من الحاجات والطـاقات ، وهى عملية كان لابد وأن تعنى التلاحم بين عناصر الثقافات الغربية والثقافات الافريقية في شكل مقبول ومفهوم ·

وأدخلت عن طريق النشاط التجارى أذواق جديدة وعمليات جديدة من النشاط الاقتصادى ، وقد رافقت هذه التطورات أنظمة غربية جديدة من التشريع وادارة الحكم ولم تحاول كل هذه التطورات بالطبع احداث تبدل جذرى في الوضع كله ، اذ بينما ظل التشريع في أضيق نطاق ممكن انتعشت أنظمة الحكم بطريقة عنيفة وثورية ·

وعلى الرغم من اشارتنا العابرة السابقة الى النزعة التجريبية عند البعثات التبشيرية ، فان التعبير الفنى هو على الأقل الجانب الذى ظل أقل تأثرا في الحياة التقليدية القديمة وقد استمرت الموسيقى الراقصة والأدب في قوتهما وعلى الرغم من أن الفن السياحى قد حل محل النحت التقليدى القديم فان ما في الأخير من موهبة مازال واضحا كل الوضوح ·

وكان شيوخ القبائل ورءوس الأسر هم مصدر الرعاية التى أضفيت على الفنيين الذين عملوا في صناعة البلاستيك التقليدية واشترك معهم

فيها أيضا الكهنة ورجال الدين . ويقـــوم الاختلاف بين الفنين الدينى والعلمانى فى فوائدهما أكثر منه فى محتواهما . وقد يقال ان الفن الدينى قد اتخذ مواضيعه من شخصيات الآلهة والاسلاف من ذكور واناث وكان لابد للأقنعة التى تستخدم فى أغراض سحرية ، ان تحتل مكانة وسـطا بين الدين والعلمانية ، أما الفن العلمانى فكان على الغالب من الطراز الذى يستخدم فى الزخرف والاعلام وكان يستخدم لزخرفة بيت أو شخص ، وأحيانا لابراز رتبة أو تمثيل عشيرة .

وقد سبق لى أن ذكرت شيئا عن الزخارف فى فن العمارة وفى الاثاث وسبق لى أن ذكرت أيضا الفن الذى كان يصاحب صياغة الذهب والفضة والملابس التى يرتديها الشيوخ والتى تقدم مثلا بارزا من هذه الزخارف ولم تكن تماثيل الاسلاف الا من نوع الزينة فى ذلك الوقت ، ولم تكن تستخدم لاغراض السحر الا فى المواسم والاعياد التى تنادى بها أرواح الأسلاف . ولم يكن القصد من هـــذه التماثيل أن تستخدم كمأوى لارواح الأسلاف ، لتسخيرها فى الاغراض الدنيوية . فهى على أى حال تبدو مثل الاســـــلاف الذين تمثلهم ولم يكن وجودهم يتعدى حدود المحور الذى يظهرون فيه عندما تستحضر ارواحهم .

وكانت المواضيع الفنية التى تهمنا تميل الى أن تكون مرتبطة بالحياة وبأصول الانسان وكانت تضم الآلهة ، والقوى المولدة والامهات والاطفال والاسلاف والجدود وكانت ثمة اقنعة تستخدم فى طقوس الخصوبة التناسلية ، كما كانت هناك رسوم رمزية تمثل العشائر فى شكل نباتات أو حيوانات .

وكانت القضايا التى تؤدى الى اختيار المواضيع للانتـــــاج الفنى قضايا نظرية ليس الا . وذلك لان الحفاظ على الانظمة ادى الى تخطيط بعض العلاجات الاوتوماتيكية التى تستخدم فى الامراض العملية . ولما كان المجتمع يسمى من ناحية توجيهه الروحى شيئا مقدسا الى حد ما فان القضايا النظرية كانت تميل الى التأثير على طبيعة الآلهة وغيرها من الأرواح وعلاقات الانسان بها والتصميمات الرمزية للعشائر المترابطة ترابطا روحيا وتأمين محل هندسى تستقر فيه أرواح الجدود الهائمة ، وايجاد الطبيعة اللازمة للانسان فى مولده وفى أعماله الزراعية والتحرى عن الأمراض والعلل .

ولما كان الاكانيون لا يعرفون الكتابة ، فانهم عبروا عن أفكارهم الدينية الفلسفية عن طريق الفن ، أى عن طريق الفن الافريقى التقليدى، اللامتناهى فى الحدود الزمانية والسرمدى فى وجوده عن طريق ما فيه من عناصر بدائية صامتة تميزه عن غيره من الفنون : ولعـــل هذا هو

السبب الرئيسي فى أنه ، أي هذا الفن لم يكن في معناه التمثيلي يصور الحياة الواقعية . وكان لابد للاشكال من أن تشوه . وكان هناك في الفن اغراق في الناحية الفلسفية الأخلاقية . أدى الى تصويره القوى المسيطرة على الكون . وكان من الضرورى لتصوير أية قوة ، الا تعامل على انها شيء مندمج فى الكون ، وبالتالى على أنها شيء يمكن التغلب عليه ، وهو ما يعنيه تصوير هذه القوة فى تمثال يرمز الى شيء حى . وعندما كانت أهداف العمل الفنى تتطلب من هذا الشيء أن يكون شبيها بشيء حى ، فان هـذا الشيء ، يكتسب الحيـاة المطلوبة طبعـا ، وكانت التمـاثيل الخشبية لفتيـات الاشانتى التى تجسد المثـل الأعلى عنـد الأشانتيين لجمـال المرأة ، والتى كانت الامهـات الحوامل يستحثثن على التودد اليها ، ليجيء اطفالهن على نحو ما هى عليه من جمال . اعمالا فنية تصور الحياة الى حد ما . وتبدو التماثيل التى تصور حياة الشيوخ فى نيجريا ، وكان القصد منها أن تكون ضمن المحفوظات وتؤدى الصور المأجورة فى أى بلد آخر ، وبنفس الطريق نفس الغاية ، اى أن تكون صالحة للحفظ . وعندما يقوم بعض النقاد من امثال جومبريش فيقولون ان الفنانين الافريقيين كانوا عاجزين عن التصوير الواقعى ، فانهم بذلك ، يعبرون عن عدم تفهمهم للفن الأفريقى . أما اذا كانوا ينشدون التجسيد الذى يصور الحياة ، فان عليهم أن يتجهوا الى الفن العلمانى ، اى الفن الذى كان يتوخى تحقيق أغراض الزينة والزخرف ، أو اغراض الحفظ ، لا الى الفن المعنوى ، الذى يستمد الهامه من مشاهدة قوة من قوى الكون .

وتفتقر النماذج التى تصور أما ترضع طفلها الى تعبيرات الامومة عن الرقة والحنو واللهفة العاطفية ، التى تظهر عادة فى وجوه الأمهات . ففي هذه النماذج ترفع الام وجهها الى السمـاء ، بدلا من أن تتطلع به الى الأسفل أي الى طفلها . وهى تبدو منتصبة القامة ، خشنة التعابير ، تعكس الجدية ، التى تسيطر على ملامحها ، الفكرة التى تبرز فى مجموعة من القوى ، سبق لنا ان حاولنا تصويرها . ولم يكن الاكانيون شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الشعوب الافريقية يرضون بأى مبرر للتخلى عن طفل من الاطفال الا اذا كان هذا التخلى تلبية لالتزام دينى . ولم يكن حب الأم لطفلها ، منحة أو تكرما منها ، كما لم يكن قضـية تتعلق بالارتباطات الشخصية المطلقة ، وانما كان شرطا من شروط الواجبات التى لا يمكن الاغفاء عنهـا أو تجنبها ، ويوحى التباعد اللاطبيعى بين الغدد الثديية فى مثل هذه النقوش بوجود قوة بدائية ، أو نظام لا فردى ولا خاص ومفروض .

ولم يكن الفن الافريقى التقليدى فنا اديبا أو وصفيا يستخدم

الوسائل التقليدية المعروفة فى ايجاد التأثيرات ، وكانها لغة رمزية ، ولكنه كان فنا مباشرا وسحريا يحاول تحقيق شيء مرن يطابق التأتأة ، وتسمية الاشياء بأصواتها . كما يحاول ايضاح بعض المشـــاعر التى تخلقها المرئيات واستثارتها . انه يشبه طرازا من تصوير الافكار عن طريق الخشب وألياف النخيل والحجر والالوان . وهـــو يترك نفس الاثر فى اللغات الافريقية أيضا . فعند قبائل الزولو ، مثلا ، يعتبر الليل بما فيه من أعماق الظلام ، شيئا يصم الآذان ولا تغشى له الأعين . وهكذا يكون التعبير عن الليل والظلام صوتيا ، يجسد الاصوات المعنية التى يفترض أن الليل هو الذى يلفظهـــا . ومن هنا يكون اسم الليل موحيا بنفس المشاعر والمعانى ، التى يوحى الليل بها . وهناك تعبير عند الاكان يدعى «مونسوم مونسوم» . وهو يستفز عند سامعة ذلك الاحساس بالهدوء الرصين « وذلك القيض غير الحذر » الذى يخيم به الليل والظلام فى أجواء الادغال والغابات علينـــا . وكان الفن التشـــكيلى فى النحت ، مســـتخدما نتيجة موقف قائم ومعين عندهم . فهو يتعلق قبـــل كل شيء بالشر وبالعقاب السماوى . ولا ريب فى أنه تجسد على الاقل ، فى صورة لاحذق فيها ولا مهارة أبدا . ويقوم التحقيق الفريد من نوعه فى الفن الافريقى على غالب الفرض ، فى الســيطرة على التشكيلية فى الفن وعلى مايرافقهـــا من احاسيس مترابطـــة معهـــا فى مختلف المجتمعات . وهكذا نرى فى الآثار الفنية الصالحة شيئا يشبه الحيـــاة . لا الحيـــاة نفسها ، وشيئا يشبه الفظاعة لا الفظاعة نفسها ، وبعض التشويه الناقص ومجموعة من الخصائص التى لاتخـدش العين ، وان كانت تترك آثـرا ثقيلا أو حالة تضم قوى الظلام ، وتضم طاقات مكبوتة ضخمة من المجهول ومن الغيب ، وكلها تمثل صورة مختنقة من كلية الوجود المبطنة (المتكلم من البطن) التى يتميز بهـــا الثعبـــان ذو الاجـراس والجلاجل وتعكس شعورا من اليأس النائم مغناطيسيا ، ومن الركود والجمـود والصمت والهجر المسحور كما تعكس هـــالة من الوجـود الكلى للروح البـــدائية وهكذا كان الفن الافريقى ، باستثناء العلمانى منه أشـــبه مايكون بالفن الذى عكس مفاهيم التوراة .

ويسير هذا الفن بالطبع اليوم فى طريق الزوال والموت . فلقد كان رجال قبيلة الايبو فى نيجيريا ينقشون اقنعة فنية تعكس الوقار والجلال يغطون بها وجوه موتاهم من شيوخ القبيلة ، ولكنهم سرعان ما استعاضوا عنها بالاقنعة الغربية التى يرتديها الناس فى أعياد الكرنفال أو المسخرة . وفى مكنة الباحث تعديد أسباب كثيرة توضح هذه الظاهرة ، ولعل أول هذه الاسباب وأهمها هو ماطرأ على المجتمعات الافريقية من انحلال وتفسخ ولقد أدى ضياع الاستقلال والتبعية لاوروبا الى حدوث تبدل ضخم فى

وضع الفن فى المجتمع الافريقى ، وذلك لان هذا الفن فقد ما كان يلقاه من رعاية . يضاف الى هذا أن الطبيعة الشاعرية التى خلقت الفن وأنتجته قد تعرضت للهدم والانهيار من جراء التوازن الذى اوجدته تلك المواقف التى فرضها تقدم العلم وانتشار الشكية ، وراح يضيع فى المواقف الهامة التى تتخذ ، والتى توحى بها الطريقة التى اضحت تسمى بالطريقة العلمية فى معالجة الامور ، ذلك الاحساس بالنهاية الشمولية الذى كان يطبع عددا من القضايا ، والذى كان يعبر عنه الانسان بمجرد صرخة من صرخات التعجب والاستغراب . واضحى الفن الذى كان تعبيرا عن هذا الاحساس الشمولى ، مثله مثل ذلك الاحساس فى موقف غير كريم .

ويعرب الناس فى الاجواء الاوروبية الحديثة عن تمتعهم بالفن نتيجة أسباب تقنية عدة منها التصميم . ومزج الالوان وغيرهما من الظواهر ، ومنها أيضا تلك التعبيرات الارادية كأن نطلق مثلا على مجموعة من الالوان اسم « خرائب القلعة » ولاريب فى أن جميع هذه الاسباب تمثل بصورة متساوية ، مايقوم به المجتمع من اضعاف للفن يصل الى حد الاهتراء ، يحول بينه وبين الاستمرار — كعامل تماسك والتحام . والتمثيل والتصوير فى الفن ، أمران تقنيان لاشأن للروح والالهام فيهما فحتى الحساسية التى تستطيع روائع الفن التأثرى اظهارها فى الانسان تمت الى التمثيل الفنى . ولقد انتهى فى أوروبا مثلا مع « جويا »[1] ، الفن التوراتى ، الذى يصور وقائع التوراة .

الانظمة والنظريات :

ظهرت لنا من معالجتنا لحضارة الاكانيين بالطريقة المثالية عدة ملامح ، وأول هذه الملامح أن هذه الحضارة كانت تعمل طبقا لعقيدة جوهرية عن الانسان وهى تنص على أن للانسان جوهرا ثابتا لاينقص ولايتغير ولا يتبدل . ولو كانت هناك وحدة فى الثقافات الافريقية . لكان ما قلناه نقطة يستطيع المرء أن يجد فيها شيئا من أوجه الشبه . وقد وجد هذا الشبه فعلا . وقد تكون العناصر التى لاتنقص والتى يجزأ لها الانسان مختلفة ولا تحمل نفس الاسماء كما لاتحيط بها عقيدة متزمتة لاتقبل التبدل وفى كل نقطة من نقاطها . لكن من المهم على أى حال بالنسبة الى الوحدة ، أن يكون طراز التجزئة واحدا ، وأن تكون العقيدة المتزمتة

(۱) فرانسيسكو خوزيه دى جويا Fransico José de Goya) ١٧٤٦ — ١٨٢٨) رسام أسبانى . ولد فى آراجون . علمه احد الرهبان الرسم منذ نعومة أظفاره ثم درس على الرسام المشهور خوزيه مارتينيز ، اشترك فى المعارك التي دارت بين الرسامين ثم ارتحل الى ايطاليا . تتضمن رسومه لوحات كنسية ودينية .

— المعرب —

التى تحيط بجميع العناصر ، عقيدة تتصل بأصول هذه العناصر وبالادوار الدينامية المتحركة التى تؤديها فى جميع المظاهر البارزة .

وتكون السنن الاخلاقية النابعة من المفهوم الجوهرى للامور واحدة الى حد كبير ، وذلك بالنسبة الى طراز المبررات والحجج التى تسمح بها هذه الامور ، وكذلك بالنسبة الى تبيان القواعد التى تميل نحو الجماعية وقد تقع هنا بالطبع بعض الفروق ولكن فى الامكان ايضاح هذه التفاصيل عن طريق الفروق فى الاوضاع المحلية . فمثلا فى منطقة تخلو من الخنازير قد تكون الاشارة الى خلو هذه المنطقة من قواعد تذكر الخنازير ، نوعا من الدليل المقبول المقنع على ملاحظة الانسان لا على حكمته وسعة فكره . وهناك عدة نقاط هامة تتفق عليها الثقافات الافريقية ، بالنسبة الى القواعد التى تحدد عضوية الاسرة ، والقواعد التى تحدد المسئوليات ، وايضاحها ، وطبيعة المجتمع ، وتفسير الطريقة التى نظم فيها والقول بأن بعض المجتمعات فى أفريقيا شبه ملكية استبدادية وأن بعضها الآخر قبلى هو خروج على جادة الصواب الى حد بعيد . ولو حدث أن فقد مجتمع ملكى أو شبه ملكى الارض التى يقوم عليها ، والنظام الذى يقوم عليه ، دون أن يفقد عقائده ، فان هذا المجتمع لابد وأن يتبدل . ورغبة فى وضع بعض العقائد موضع التنفيذ مع اختلاف معطياتها ، ينظر المرء أحيانا الى ابتكار أنظمة مختلفة وتنظيم الامور تنظيما مغايرا . وتعتبر المبالغة فى اهمية الفروق بين النظم عقبة تنشأ عن مفهوم الاسلوب المتعلق تعلقا مباشرا بكل ماهو واضح وجلى ، وبين المفهوم القائل بتفسير جميع المجتمعات على ضوء اجلال مافيها من جمود ومن قصور ذاتى فى انظمتها الاساسية والجوهرية ، وهى الانظمة التى تفسر المظاهر البارزة للمجتمع نفسه . ويكون تأثير ذلك فى معالجة الانظمة على اعتبار انها تلقائية السيطرة ، ولاتخضع الا لمبادىء ثورية داخلية . ولا ريب فى أن هذا الموقف خاطىء تجاه الانظمة نفسها . ويغدو الاسلوب نفسه مفتقرا الى الاحساس بتلك القوى الصامتة التى تسهل أو تعقد التبدلات فى الانظمة أو مدى تقبلها ورفضها أو نطاق شرعيتها أولا شرعيتها . ولو قدر للانسان أن يدرس موضوع الكنيسة الانجليكانية مثلا ، فانه لايكتفى بالطبع بدراسة سلوك أعضائها فى أيام الاحاد عندما يمضون الى الكنائس . وقد يكون من الصحيح القول بأن الناس يمضون الى الحرب دفاعا عن الحق فى الجثو والركوع ، ولكن ماحاربوا من أجله حقا . لم يكن الظاهرة الصورية الطبيعية فى الركوع ، التى يصطدم بها نظر الانسان ، وانما ما ترمز اليه هذه الظاهرة من دين وعقيدة وعلى الانسان اذا رغب فى تفهم الكنيسة الانجليكانية ، أن يلاحظ العقائد المتزمتة وان يقدرها . وقد تساعد الطقوس المرء بالطبع على الاعراب . عن ايمانه العميق بطريقة مرضية ،

ولكن الطقوس هي ثمرة التسليم بوقائع الحياة . إذ أنها تمثل التجاوز بين الحقائق الاجتماعية والعقل الديني . اما الافتراض بأن تلك الطقوس هي جوهر الدين فهو افتراض لايقل ذكاء وفراهة عن العقول بأن توقيع سجل الزواج ، هو الواقع الكامل لانظمة الزواج .

ويحتاج المرء لفهم المجتمع كقوة دافعة محركة الى دراسة النظم التي تقوم وراء الانظمة نفسها . وقد يكون ايضاح مافي الأنظمة من قدر فعالة مؤثرة ، عملا آليا ميكانيكيا ، لكن تبرير الخيار بين الانظمة وما يقو بينها من ترابط وتواكل ، لايمكن أن يكون عملا آليا بأى حال من الاحوا

ومن هذا نصل الى النتيجة الواضحة ، وهي أن الحديث عن وحد الثقافات الافريقية لايمكن أن يعتبر بحال من الاحوال ، شيئا غريبا ، أ شاذا وقد لا يرغب المرء في القول ، بأن هناك مركب معينا وصغيرا م العناصر المهمة التي تشترك فيها الثقافات الافريقية ، والتي لم يسبب للمرء أن رآها في اى مكان آخر في تاريخ الجنس البشرى . لكن مثل ها القول مخالف لكل عقل وكل منطق وعلى اى حال فهناك على مستو الأمور الجوهرية ، بعض الحلول البديلة التي تواجه الجنس البشرى فثقافة الانسان اما أن تكون جوهرية أو لا . أما شجرة نسبه فقد تكو من ناحية الام أو من ناحية الاب أو من كليهما معا . وهناك حدود منطقي لتعدد المزايا وللطاقة الخلاقة . واذا اخذنا بعين الاعتبار الحقيقة الواقع وهي أن العالم لابد وأن يكون قد شهد عددا من القبائل في وقت واحد فاننا لانندهش حقا ، اذا رأينا شعبا من الشعوب قد نظم نفسه في وقت ما وفي مكان خارج افريقيا ، بطريقة لاتختلف في جوهرها عن طرائق الافريقيين . ويكفى لتحقيق الوحدة بين الثقافات الافريقية أن نجد بعض المركبات الثقافية موجودة في عدد كاف من المناطق في افريقيا السوداء . فالوحدة لاتتطلب التفرد مطلقا .

وقد أدى التشابه في عملية السيطرة الاوروبية على افريقيا أل انعكاسات متشابهة في الثقافات الافريقية المتماثلة ، مولدا ثقافات دينية يمكن عقد المقارنات بينها . وقد أدى في نفس الوقت ايضا الى مشاكل متشابهة كل التشابه تواجه البلاد الافريقية المستقلة . ولا ريب في أ مشكلة مايفعله المرء بالاستقلال السياسى هي مشكلة أصلية حقا . واذا كان في الامكان الاتفاق على سياسة نابعة من تراث افريقيا على صعيد الجامعة الافريقية ، فان الحلول التي تؤكدها مثل هذه السياسة تصبح في متناول اليد ، ويمكن تسخيرها في المنافع الاقتصادية ، وفي ضمان التأثير اللازم والوحدة الطبيعية ويضفي تنوع السياسات اليوم على هذه النواحي شكل الجراح المتعددة أما الاتفاق على سياسة متوحدة . فيؤدي الى تضميد هذه الجراح والى اكساب افريقيا صورة قارية موحدة .

الاستقلال
ضاع واستعيد

ضياع الاستقلال ـ طريقة الفوز بامبراطورية ـ فوائد الاستعمار ـ شرور الاستعمار ـ صور استعباد الافريقيين ـ أسلوب السير جون فيلديئج ـ بعض الافريقيين البارزين ـ ثمن الثورة فى افريقيا ـ تطوير افريقيا لاوروبا ـ ظهور بنيان طبقى جديد ـ الوحى السياسى للاقتصاد ـ المسيحية والفردية فى افريقيا المنساداة بالاستقلال ـ سلوك روسيا الديموقراطية الليبرالية ـ تخطيط الانظمة ـ الاحزاب السياسية ـ الصدوع والوحدة ـ الحزب الواحد ـ الجماعات الضاغطة ـ مشكلة المستوطنين ـ التطرف ومكافحة الاستعمار ـ القومية والعنصرية ـ مواقف سوفياتية .

أضاعت البلاد الافريقية استقلالها باغتصاب الدول الأوروبية له عن طريق المعاهدات والعدوان والخداع والاهمال الساذج وكانت هذه المعاهدات واساليب العدوان والخداع تتم بوحى اقتصادى وكان الحكام المستعمرون فى كثير من الحالات من التجار ، وأبدت وزارة المستعمرات بعض التردد فى حمل المسئولية الادارية فى ساحل الذهب مثلا ولم تكن الحروب تعنى عند الدول الاوروبية مجرد الفتح ، وانما كانت تعنى على الغالب ضرورة افترضتها حماية التجارة وهكذا لم تكن الحملات التى شنها البريطانيون على الاشانتى مثلا بدافع الرغبة فى التوسع الاقليمى بل بدافع مايعلقونه من أهمية على السلام فى توسيع نشاطهم التجارى .

ويقدم احتلال كينيا وفقدها استقلالها .. مثلا صادقا يصور الطريقة التى خسرت فيها بعض الدول الافريقية استقلالها بأساليب هى على النقيض تماما من أساليب التعامل الصادق المستقيم فلقد تخلى سلطان زنجبار عن ادارة المناطق التى كان يحكمها على البر الافريقى للسير دبليو ماكينون ولغيره من أثرياء التجار ورجال الاعمال الانجليز الذين الفوا شركة أسموها شركة افريقيا الشرقية الامبراطورية وقد صدر مرسوم ملكى بتأليف هذه الشركة فى عام ١٨٨٨ .

وعقدت الشركة النشطة بين عامى ١٨٨٧ و ١٨٩١ عددا من المعاهدات والاتفاقات مع شيوخ القبائل فى داخل البلاد ... الذين لم يكن من حقهم بموجب قوانين بلادهم أن يتنازلوا عن حقوق شعوبهم فى

الارض للغير والذين لم يتنازلوا عن هذه الحقوق حتى فى المعاهدات التى
عقدوها طبقا للقانون الانجليزى اذا ان نية التنازل هذه لم تكن واضحة
أو حتى مستترة فى تلك المعاهدات فلم يكن هؤلاء الشيوخ سواء فى شرق
افريقيا أو فى غربها هم الملاك للارض بصورة شخصية بموجب قوانين
بلادهم واعرافها ... ومن هنا لم يكن من حقهم أبدا أن يمنحوا حقوق
ملكيتها للغير ومع ذلك فقد تخلوا عن سيادتهم على بلادهم وعلى شعوبهم
وعندما تخلت الشركة الافريقية الشرقية الامبراطورية عن امتيازاتها فى
عام ١٨٩٥ أضحت كينيا محمية بريطانية ولم تعقد الحكومة البريطانية
اتفاقات أو معاهدات جديدة مع شعب كينيا عن طريق شيوخه
القبليين .. ومن هنا كان لابد وبموجب أى قانون أن تعود السيادة على
البلاد والشعب الى الشيوخ بعد أن تنازلت الشركة عنها .. ومع كل
هذا لم يبدو فى خاطر الدولة المستعمرة فورا أن كينيا أرض صالحة لاقامة
المستوطنين ٠٠ وعندما تم بناء الخط الحديدى الى أوغندا اتضح على
الفور أن الاراضى التى تحيط بهذا الخط خصبة وغنية ، وأن الجو هناك
معتدل وصالح ، وأن المنطقة أهل لاقامة المستوطنين الاوروبيين فيها ..
وفجأة استهوت المستعمرين فكرة مستعمرة بيضاء على غرار المستعمرات
الاغريقية القديمة وراح السير تشارلز ايليوت يكتب فى عام ١٩٠٥ ، ان
من السخف والنفاق كل النفاق عدم الاعتراف بأن مصالح البيض هى
التى يجب أن تسود وبأن الهدف الاساسى للسياسة والتشريع البريطانيين
فى المنطقة ليس اقامة مستعمرة بيضاء ٠ وبدأت بريطانيا منذ عام ١٩٠٢
تتعدى حدود صلاحيتها القانونية تمام التعدى وتمنح مساحات من أراضى
البلاد للشركات الأوروبية والأفراد الأوروبيين ولم يحل عام ١٩٢١ حتى
كانت الهيئات القضائية نفسها قد اقتنعت بالرأى القائل والذى لايعرف
المرء على وجه التحقيق أية قوة سحرية خلقته وولدته بأنه لم يعد هناك
وجود لأية حقوق أفريقية ٠٠ وأصدرت المحكمة العليا فى كينيا قرارا
حددت فيه أوضاع الأفريقيين بأنهم باتوا مزارعين « بالزراعة » فى أراضى
التاج الذى يملك حق التصرف فيهم ٠ ومن هنا قد لايدهش المرء اذا مارأى
أن بعض الساسة البريطانيين الذين يلقبون أنفسهم بالمخلصين
للامبراطورية قد ألموا أشد الالم لما اعتقدوه مدفوعين بحماسهم السخيف
من أن استقلال كينيا يعنى التنازل عن الاراضى البريطانية للمواطنين
الافريقيين ، ورأى هؤلاء أن منح الاستقلال بات يعنى بالنسبة اليهم
ضربا من ضروب الكرم الاحمق والطائش وانه يعنى عملا من أعمال الخيانة
ولم يفت رخص هذا الادعاء البريطانى ملاحظة اللورد بوكماستر ..
رئيس مجلس اللوردات السابق الذى راح فى مجلس اللوردات يقول ..
« لاريب فى أن الطريقة التى حصل بها التاج على حقوق الملكية على هذه
الاراضى كلها وآكدها ترجع الى سلسلة من الخرافات القانونية التى يصعب

على المرء دائما متابعتها وفهمها » (المناقشات البرلمانية ـ وقائع مجلس اللوردات المجلد ٦١ ـ رقم ٤٤ ـ ص ٤٠٢) .

ولنضرب مثلا لهذه المعاهدات بقصة رانج قبيلة ايوى المسكين الذى وقع معاهدة وضع بموجبها نفسه وشعبه فى حماية الملكة فكتوريا ولسبب ما (١) قرر البريطانيون أن ينقلوا القطاع الذى يقيم فيه الشيخ المذكور وقبيلته الى حكم . وتمنى ليوبولد ملك بلجيكا ، عن طريق المصانعة والمكر وبفضل الاهمـــال الذى ساد الجميع ، أن يجعل من الكونجو اقطاعيته الخاصة به ..

أما بالنســبة الى البرتغاليين « المســاكين » فان ارادة الله التى تحددها للناس المنشورات البابوية قد أثقلت مناكبهم بامبراطورية شرقية ضخمة مالبثت هرطقتهم أن حرمتهم من قسم كبير منها لتبقى لهم انجولا وموزمبيق وبعض البقايا التافهة الصغيرة (٢) .

وايا كانت الطريقة التى تم فيها ضياع الاستقلال فان هذا الضياع شمل القارة الافريقية كلها .. ومن الواجب أن نعترف بأن هذا الضياع قد جاء الى افريقيا بأشياء اذا شئنا الحديث عنها اطلاقا ، قلنا انها كانت ذات نفع للقارة وكان الغاء الرق أحد هذه الامور التى جـاء بهـا ضياع الاستقلال وكانت معارضة الافريقيين لهذا الالغــــاء كبيرة وضخمة(٣)

---

(١) ليس السبب بخاف أبدا اذ أن المانيا بعد أن اتمت وحدتها فى عام ١٨٧٠ فى مهد بسمارك شرعت فى دخول ميدان التنافس الاستعمارى فى كل مكان وفى افريقيا بصورة خاصة وكانت الصفقات تعقد بين الدول الاستعمارية وتباع فيها الشعوب المستعمرة فى أسواق النخاسة الاستعمارية ولعل من أبرز هذه الاتفاقات معاهدة الخريراس (الجيريكاس) فى اسبانيا عام ١٩٠٤ بين ألمانيا والدول الاستعمارية القديمة وهى المعاهدة التى تم فيها اقتسام الاسلاب والغنائم والمصالح . ـ المعرب ـ

(٢) لا ريب فى ان المؤلف هنا ، يقصد السخرية من البرتغال « ولكننى ارى أن السخرية فى هذا المجال ليست بالامر الذى يستسيغه الذوق السليم ، اذ لايصح اطلاقا أن نسمى البرتغاليين « بالمساكين » « وهم الذين يرتكبون من الفظائع أشدها وحشية فى مستعمراتهم الافريقية لوقف الثورات التحررية المستمرة فى انجولا وغيرها ، وقد أثبت الاستعمار البرتغالى بهذه الوحشية أن مستواه واحد ، مهما كانت الدول القائمة عليه صغيرة ، حتى أن صغار الدول المستعمرة تكون اشد وحشية من كبارها لتغطى النقص الذى تحس به من ضآلتها فى ميدان التوازن الدولى .

(٣) اعتقد ان المؤلف اخطأ هنا فى الصورة التى رسمها. فلئن كان الغرب وبريطانيا بصورة خاصة قد حاربا تجارة الرقيق بالنسبة الى الافراد ، فقد استباحا هذه التجارة بالنسبة الى الشعوب . فما الاستعمار الا تجارة رقيق ، بل لعله أبشع صور هذه التجارة اذ أن حريات الشعوب هى التى تباع فى سوق النخاسة بدلا من حريات الافراد ، وهى التى تخضع للعبودية والتحكم والجور « كما أن تبادل المستعمرات بين الدول الاستعمارية وهو ماوقع بالفعل فى مختلف عصور الاستعمار ، ولعل مثل « الايوى » الذى ضربه المؤلف قبل قليل خير دليل عليه ، ليس الا من قبيل عمليات البيع والشراء فى سوق النخاسة على صعيد الشعوب بدلا من الافراد . ـ المعرب ـ

وهناك قصة عن زعيم فى دلتا نهر النيجر وجد نفسه مضطرا لبيع العاج من أنياب الفيلة بدلا من الرقيق قيل انه رد على سؤال وجهه أحدهم اليه عما اذا كان راضيا عن التطور الجديد فى حياته يقول فيه ذكاء ولكن ليس فيه أية مشاعر انسانية بأن من الاسهل عليه أن يصيد الانســان من أن يصيد الفيل وأدى الغاء تجارة الرقيق وهى الحركة التى يسجل لبريطانيا موقف مشرف فيها لتوليها زمام المبادرة الى توقف تهجير السكان من افريقيا عن هذا السبيل ... ولم تستعد افريقيــا حتى هــذه اللحظة سلامة عافيتها على صعيد التهجير تمام الاستعادة اذ أن التجارة المشروعة قد توسعت بدلا من التجارة الممنوعة .

وادخل الاستعمار نظام المدارس الرسمية فى المناطق غير الاسلامية أما فى المناطق الاسلامية حيث كانت المدارس قائمة من قبل فقد عمل على توسيعها ونشرها وتقويتها ، وادخل الاستعمار أيضا الخدمات الصحية العلمية وحطم العموذ الفقرى بحمى البرداء (الملاريا) وغيرها من الامراض المستوطنة وشقت الطرق ليستعاض بها من الممرات فى الاحراج ولتربط العدد الذى لايحصى من القرى المنتشرة على الارض الافريقية . وهكذا استتب الأمن والسلام ٠٠ ولا ريب فى أن كل هذه الامور مكاسب بارزة مستمدة من اليأس الناتج عن ضياع الاستقلال .. ولاريب فى انها تمثل تحسنا أصيلا فى الاوضاع الافريقية .

ولكن هذه المآثر أو الحسنات لم تتحقق بطريقة بسيطة .. فلقد حمل الاستعمار الى افريقيا شروره وشقاءه .. وكانت تجارة الرقيق فى الشكل الشرير الذى اتخذته من انتاج أوروبا وخلقها فيقال ان الونزو غونزالير الاوروبى وهو برتغالى الاصل كان أول من بين لابناء جلدته فى عام ١٤٣٤ ان فى امكانهم أن يجعلوا من الافارقة سلعة يتاجرون بهــا .. ولقد اختطف فى عام ١٤٤٠ اثنى عشر أفريقيا وضم اليهم امرأة من بنات جنسهم على الشاطىء أملا فى أن يراها بنو قومها فيسارعوا الى محاولة انقاذها ... وفى اليوم التالى ظهر مائة وخمسون افريقيا ، ولم يشــعر البرتغاليون فى ذلك اليوم بالرغبة فى المجــازفة وتعرضــوا الى وابل من الحجارة وسرعان ما حذا الاسبان بدورهم حذو البرتغاليين ليلحق بهم الهولنديون والفرنسيون والانجليز .

وشرع الافريقيون يهجرون الساحل خوفا من الاوروبيين وعندما بات من الصعب الامساك بهم واقتناصهم كان البرتغاليون من جــديد أول من قام من الأوروبيين ببناء القلاع والحصون وراحوا يظهرون كل ضروب الليبرالية والصداقة وحملوا الهدايا والرسائل وأدلة الود وحسن السلوك معهم من ملكهم وشيدوا فى عام ١٤٨١ قلعتهم المشهورة ســان

ديجوديلمينا فى ايلمينا » ومازالت القلعة قائمة حتى يومنا هذا ورغبة
في حمل شيوخ القبائل الذين أرخصوا أنفسهم لعوامل [illegible]

على تموين ثابت ومستقر من العبيد فقد اختلقت جنح جديدة لانزال العقاب ... وفلسفت ثم زيفت المنح القديمة وكان على مرتكبى الجنح من الدرجة الاولى أن يفقدوا حرياتهم وأن يسلموا بها وكان على مرتكبى الجنح من الدرجة الثانية أن يفرطوا فى حريات الذكور من أبناء أسرهم أما مرتكبو الجنح من الدرجة الثالثة فكان عليهم أن يفرطوا فى حريات الاناث من اهلهم ايضا بالاضافة الى الذكور بينما تحتم على مقترفى الجنح الملعونين من الدرجة الرابعة ، أن يقدموا جميع أقاربهم حتى البعيدين منهم عبيدا ليكونوا فداء لجرائمهم ، وعلى الرغم من الفساد ومن الفلظة التى تميز بها أهل الساحل من الافريقيين الا أنهم كانوا أعجز من أن يستطيعوا بيع اطفالهم ، وكانت حجة الاوروبيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أنه اذا كان من حق الافريقيين أن يبيعوا أطفالهم فان من حق الاوروبيين حتما أن يبتاعوهم وقد نبتت هذه الحجة من سوء فهم الاوروبيين لمعنى كلمة افريقية . ويستعملها الافريقيون للاشارة الى ابن الرجل أو خادمه او اى شخص يقل عنه مكانة وقد فند رويمر الهولندى فى عام ١٧٤٩ هذا القول تفنيدا صحيحا .

وقد اشتد الحماس فى جميع أرجاء أوروبا لموضوع الغاء تجارة الرقيق وقد ارتحل بارتلومبودى لاس كاساس أسقف شيابة فى أسبانيا الى المستعمرات الاسبانية فى أمريكا واضطرب أشد الاضطراب لما رآه من فظاعات يثيرها الرق فى امزجة الاسبانيين هناك . وعندما عاد الى اسبانيا القى خطابا أمام الملك عارض فيه الرق معارضة شديدة . وأعجب الملك اشد الاعجاب بخطاب الاسقف . ولكن على الرغم من أن الاسقف هدده بغضب السماء اذا سمح باستمرار هذه الفظاعات التى يستطيع وقفها ، الا أن واقع المكاسب المادية كان أقوى أثرا فى نفس الملك من مخافة العقاب فى يوم الحساب . وذاع صيت قس انجليزى فى القرن السابع عشر يدعى مورجان جودوين لما شنه من حملات عنيفة على تجارة الرقيق . وكرس جون دولمان وانطونى بينزيت نفسيهما بما عرف عن أفراد طائفة الكويكرز (١) من تعصب وعنف فى أواسط القرن الثامن عشر

---

(١) جماعة دينية بروتستانتية يطلق عليها أيضا اسم جماعة الاصدقاء اسسها في بريطانيا في أواسط القرن السابع عشر جورج ايليوت (١٦٢٤ ــ ١٦٩١) . وقد تعرض هذا الرجل الذى آمن بأنه صاحب رسالة سماوية الى صنوف الاضطهاد والى السجن أكثر من عشر مرات في حياته . وتفسر هذه الجماعة الانجيل تفسيرا حرفيا . وهى تعارض في الحرب وفي حلف الايمان وتكرس نفسها لخدمة الفقراء .

ــ المعرب ــ

للحملة فى سبيل الغاء الرق . وراح اولهما يطوف أرجاء امريكا الشمالية بشن حملاته الشعواء على ابناء طائفته لاحتفاظهم بأرقاء فى خدمتهم يلزمون بالعمل لهم بينما اقام الثانى مدرسة مجانية فى مدينة فيلادلفيا لتعليم أولاد الزنوج .

وأعلنت جماعة الأصدقاء (الكويكرز) الدينية فى عام ١٧٥٤ فى منشور رسمى وزعته أن « العيش فى دعة ورخاء على كد الآخرين الذين قذفت بهم الحيلة والعنف تحت رحمتك ، أمر لايتفق لا مع المسيحية ولا مع العدالة العامة » وليس ثمة من شك فى أن هذا الميثاق كان مضالا الى حد أنه لابد قد اعطى الانطباع بأن جماعة الاصدقاء يخلطون بين فزعهم من الدعة والرخاء وبين الشر المتمثل فى الرق والمختلف كل الاختلاف . وراح الكثيرون من أفراد هذه الجماعة بما عرف عنهم من سفسطائية . يحطمون القيود التى تقيد عبيدهم . ويقال انهم كانوا يؤمنون ايمانا صادقا بأن الملكية الشريفة حتى ولو كانت تافهة خير من الملكية الكبيرة المتحققة بوسائل لاعدل فيها . وقد تسلحوا بهذه القاعدة الفلسفية وراحوا يركنون الى عهد من الفاقة المتدينة الورعة . اما أولئك الذين لم يتحمسوا كل الحماس لهذه القاعدة فقد تعرضوا للتهديد بالطرد من الجمعية . لكن الكثيرين من العبيد الذين تحرروا حاروا فيما يفعلون بحريتهم الحديثة الاكتساب فى أرض غريبة . وراحوا يعودون الى سادتهم السابقين ليعملوا خدما مأجورين عندهم . وتبين أن الطاقة الانتاجية عند العبيد المحررين قد ازدادت نتيجة أوضاعهم الجديدة ولم يتقاعس الاصدقاء عن استخلاص قاعدة جديدة تربط بين الفضيلة وبين الازدهار الاقتصادى . .

وكان هذا المثل الذى ضربه الاصدقاء قدوة سرعان ماسار على منوالها اتباع الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة المشيخية (١) والكنيسة الانجيلية وراحوا يحررون عبيدهم فى أعداد كبيرة وضخمة . . لكن هذه الحركة لم تبدأ دون صعوبات تواجهها فلقد تدارس مجمع كنسى للمشيخيين فى بنسلفانيا موضوع الخلاص من لعنة السماء التى تحيق بالمترددين فى تحرير عبيدهم ولكن الاقتراح الخاص بهذا التحرير فشل عند الاقتراع بأغلبية ديموقراطية لاتزيد على صوت واحد ولم يكن الحافز

---

(١) الكنيسة المشيخية شعبة بروتستانتية تقوم على الجمع بين الحكم الزمانى العلمانى والحكم الدينى الاكليريكى ممثلا فى شخص شيوخ الكنيسة وترتكز السلطة فى سلسلة متعاقبة من المجامع والمجالس ويعتبر كلفين المصلح السويسرى مؤسس هذه الكنيسة .

على المعارضة افتقارا الى الرحمـة أو قسوة فى الفؤاد وانما كان هـذا الحافز ما يحس به المسالمون من كراهية للوعيد والتهـديد واللجوء الى القوة فى جميع القضايا حتى قضايا التملك ..

ولم يكن الاصدقاء فى بريطانيا أقل نشـاطا فى هـذا الموضوع من اخوانهم فى أمريكا وكانوا فى هذا الوقت بالذات من أصلب المناضلين ضد الرق شكيمة وعودا .. ويبدو ان الكثيرين منهم على أى حال قد تأثروا بالانطباع القائل بعـدم وجود رقيق فى بريطانيا نفسـها ... واتخـذت جهودهم فى هـذا السبيل طابع العرائض يقـدمونها الى البرلمان طالبين تدخله فيما أسموه بالتجارة الافريقية المجحفة وتولدت لدى البعض منهم الفرضية القائلة بأن هذه العرائض غير مجدية ، ذلك لان جهود الورع والاخـلاق والعـدالة غير المدعومة أضعف من أن تصـمد أمام المصلحة والعنف والظلم ، وقد إعترف توماس كلاركسـون (١) الذى قدم أطروحة فازت بجائزة من جـامعة كمبريدج وهو خجل أشـد الخجل بأن القوى الاخيرة كانت هى المسيطرة سيطرة قوية على السلطات التشريعية لبلاد يقوم أساس الحكم فيها على الحرية ..

ومن الطبيعى أن جرانفيل شارب (٢) كان قد ابدى اهتماما بالغـا بالغاء الرق قبل هذا التاريخ أى منذ عام ١٧٦٦ وفى احدى القضايا التى رفعت عليه نتيجة نشاطه فى هذا السبيل اعلن قاضى القضاة هولت أن كل من يضع قدمه على ارض انجليزية يصبح رجلا طيبا حـرا .. وكان المحاميان ناليوت ـ وهاردويك وهما من أشد الناس مكرا وحيلة قـد اقترحا فى عام ١٧٢٠ أن العمل الواقعى الممثل فى مجىء عبد الى بريطانيا لايضفى عليه الحق الرسمى فى الحرية وان فى الامكان ابعاده الى المزارع التى جاء منها وعندما أصبح هاردويك فى عام ١٧٤٩ .. صاحب سلطان يضمن له إنفاذ رأيه هذا أى عندما أتى قاضيا أصدر قرارا بأن فى الامكان استعادة العبد الآبق بالقوة وأخذ موظفو حكومة جلالته يساعدون السادة على استعادة عبيدهم الآبقين ويزعم لايتمر أن مدير البرق والبريد فى مدينة بريستول استخدم فى اعادة عبد هارب اختفى فى بريستول الى صاحبه ..

---

(١) توماس كلاركسـون (Thomas Clarkson ١٧٦٠ ـ ١٨٤٦) اشد مناهضي الرق في انجلترا . تمثل نشاطه في الخطب التي كان يلقيها والمنشورات التي يطبعهـا ويوزعها ، وحقق هدفه في عام ١٨٠٧ عندما صـــدر قانون تحريم الرقيق والغائه في بريطانيا .

(٢) جرانفيل شارب Granville Sharp ١٧٣٥ ـ ١٨١٣) . عالم بريطاني انساني اشتهر امره في حملة مكافحة الرقيق والدعوة الى الغائه .

ـ المعرب ـ

وفشلت خدعة شريرة اخرى لحرمان السادة من عبيدهم .. فلقد آمن المسيحيون ، ولهم كل الحق في هذا الايمان ، بأن أى عبد يعمد نصرانيا ويتناول الخبز المقدس . يجب ان يغدو حرا على الفور . اذ أن عمادته قد جعلت منه واحدا من (عيـال الله) وعضـوا في (أسرة المسيح) ووارثا موعودا لملكوت السماء . لكن المحامين سرعان ما اكتشفوا الطريقة التي يردون بها على هـذا القول . وراحوا يقولون بشيء كثير من الاناة والصبر أن « العمادة » تمنح الحرية فعـلا ، ولكنها حرية الروح ليس الا .. اذ تنقل الروح الافريقية من الظلام البدائي الذي يغرق فيه الجسد الى ملكوت الصفاء الآلهي ومجده « فالعمادة » في رايهم عملية روحيـة مجردة . ولايمكن ان تؤثر بأى حـال من الاحوال على الاوضـاع المادية للعبيد .

وكثيرا ماكان العبيد الآبقون ، وقد أصابتهم الحيرة من مستقبلهم الغامض ، واليأس في شقائهم الراهن ، يغرقون في حمأت عميقة من الشقاء والفقر . ويظهرون امام محكمة « اولد بيلى » البريطانية متهمين بسرقات تافهة . وكانوا يعاملون احيانا بشيء من الرفق والرحمة . ولكنهم كانوا يتعرضون احايين كثيرة الى اقسى مافي القانون من عقوبات .

وعندما وجهت في عام ١٧٨٠ تهمة الى أحد العبيد بأنه من مثيرى الفتن والاضطرابات ، راح السير جون فيلدينج ، وقد أعماه الغضب ، بعد ان كان في البـداية قد احتج احتجاجا وادعا على شحن العبيد الى بريطانيا ، يعلن أن من الاجحاف بعد أن أنفق الكثير على تعليمهم شئون العمل كخدم في المنازل ، ان ينقلوا الى انجلترا كخدم لاقيمة ولاحق لهم في أى أجر واشتدت به الحماسة ثم قال :

ولكنهم لايكادون يضعون اقـدامهم على ارض هـذه البـلاد حتى يصوروا انفسـهم على قدم المساواة بغيرهم من الخدم فيسكرهم رحيق الحـرية ويشتد عنـادهم وتقوى مشاكستهم ويشرعون اما بوحى من الآخرين أو بوحى من انفسهم يطالبون بأجور تقـررها لهم آراؤهم هم فيما يستحقونه ولما كان هناك عدد كبير من السود من رجال ونسـاء قد أثاروا الفتن وخلقوا المتاعب والمخاطر للاسر التي جاءت بهم من هنـاك بقصد حمل هذه الاسر على طردهم من خـدمتهم فان هؤلاء المفصولين يشرعون في تأليف الجمعيات ويضعون نصب أعينهم دائما افساد عقول جميع الخدم السود لحملهم على التذمر وذلك عن طريق تعميدهم أولا . ثم زواجهم ثانيا بعد افهامهم بأن العمادة والزواج يحررانهم من الرق .. وان لم يصدر بذلك اى قرار قضائي لكن أقوالهم هذه تحقق غايتها في حشد السود الى جانبهم مما يثير الكثير من المتاعب .. وينذر بالمزيد من

الاخطار اذا ماحاول أسيادهم أستعادة ملكيتهم لهم بعد أن فسدت عقولهم ويصبح من الافضل لهؤلاء الاسياد أن يتخلوا عنهم نهائيا اذ أن هناك اسبابا عدة تدعو الى الاعتقاد بأن هؤلاء السود الذين اعيدوا الى المزارع كانوا القلة فيما وقع من اضطرابات اخيرة فى جزر الهند الغربية ولاريب فى أن من عدم الانسانية نقل السود الى بلاد حرة ..

هذا ما قاله السير جون ولا ريب في أنه ينم عن أسلوب رائع ::

وراح الأب المحترم جيمس رامزى يجارى عبثا اكتشاف بعض البنود فى قوانين المستعمرات ليستطيع الاعتماد عليها فى المطالبة بتخفيف شقاء العبيد ولقد أصدر كتيبا دعاه « بحث فى معاملة العبيد الافريقيين فى مستعمرات السكر البريطانية والتبشير بينهم » وقد طبع هذا الكتاب على نفقة بعض الأصدقاء في الهند الغربية الذين جازفوا بضياع ممتلكاتهم الخاصة وبالتعرض لسوء نوايا عدد ضخم من الأفراد فى انجلترا نفسها وازعاجهم ، وصدر ردان على هذا الكتاب فى غضون ثمانية أشهر حمل أحدهما اسم « ملاحظات سطحية على كتاب المستر رامزى » وتضمن اتهامات صريحة للقس بالمبالغة والكذب والتضليل وقد رد أصدقاء رامزى بان كتاب الملاحظات هذا جهد انسانى مشكور ولكنه خال من الصحة والصدق ولا يعدو أن يكون هجوما مسموما على رامزى مليئا بالتهجم المزعج على رجل من رجال الله ٠

أما الرد الثانى وقد حمل اسم «تبرير الرقيق» فقد أكد أن الناس لا يخطفون أبدا على سواحل أفريقيا الغربية وان معاملة العبيد فى منتهى الرقة واللين ، وأنهم يعيشون فى أوضاع تفوق فى راحتها وسعادتها كل ما يمكن للعقل أن يتصوره ويغفر للمرء أن يتصور أن ادراك مؤلف هذا الكتاب وخياله كانا من النوع الغبى كل الغباء وعلى الرغم من كل هذا فقد اقترح سن قانون يقضى باعتبار خطف الناس فى أفريقيا لبيعهم عبيدا عملا اجراميا وكذلك قتل أى عبد عن سابق عمد واصرار أثناء نقله من مكان الى آخر وقد ألقى بحارة احدى البواخر فى عام ١٧٨١ بنحو من (١٣٢) أفريقيا كانوا فى طريقهم الى المزارع الامريكية فى البحر للاحتيال على أصحاب الباخرة ، واقترح المؤلف أيضا تخصيص الاراضى للعبيد عند وصولهم الى المستعمرات بالنسبة الى اعدادهم وألا يعملوا فى أيام الآحاد أو الأعياد ، وأن يمنع تشغيلهم فى الليل أو ساعات اضافية وأن تمنح للمجيدين بعض الهبات كبدلة اضافية فى السنة وان يعنى بالعجزة وذوى العاهات من العبيد ٠

ألا يرى المرء فى هذا دلائل على وجود ثورة اشتراكية ؟ بالطبع كان دعاة الغاء الرق واقعيين الى الحد الذى يحملهم على ابتكار بعض الحجج

الاقتصادية وقد اعتبروا أن من أكثر الأمور بروزا ووضوحا ... هو أن متابعة هذه التجارة اللعينة والسير فيها يؤذيان الى اهمال مصدر ضخم من مصادر الثراء فى أفريقيا فلو اتخذت الاجراءات المناسبة الصالحة لازداد دخل هذه البلاد - أى انجلترا - زيادة كبيرة ولتضخمت قوتها البحرية ولباتت مستعمراتها فى وضع أكثر ازدهارا وغدا مزارعوها أعظم ثراء ، ولتحولت هذه التجارة التى تعتبر الآن باعثا على سفك الدماء والدمار الى أخرى يمكن للمرء أن يسير فيها بشرف وأن يجنى منها أكبر الارباح ..

ويبدو أن دعاة الالغاء قد فازوا أخيرا فى معركتهم بفضل ما تقدموا به من مبررات اقتصادية لدعواتهم الانسانية فعندما اكتفت بريطانيا بالعبيد الذين نقلوا عبر الأطلسى من أفريقيا للقيام بأعمال الزراعة والخدمة فى مستعمراتهم راحت ترفع شعار الدعوة لحظر هذه التجارة ومنعها ، لكنها عندما تأكدت من أن الاعمال التى يقوم بها العبيد عبر الأطلسى تفتقر الى المزيد من اليد العاملة راحت توقف هذا الشعار وتعدل عنه ، وبالطبع ليس ثمة من علاقة لابد منها بين الأمرين ولكن الشىء المؤكد الثابت هو أن هناك حقيقة لا يمكن أن تكون قد فاتت على أحد من المسئولين الانجليز وهى أن الافريقيين الذين نقلوا عبر المحيط لا يمكن أن يعودوا الى بلادهم فى أعداد كبيرة تهدد سوق العمل فى مستعمراتهم وكان الجميع لا يزالون واقعين تحت تأثير فكرة آدم سميث(١) القائلة بأن عمل السخرة لاينتج. ولا ريب فى أن مما يشرف بريطانيا أنها رفعت شعار الالغاء وطبقته رغم كل معارضة ورغم كل مقاومة (٢) ...

وفى جنوب أفريقيا أقام المستوطنون الهولنديون مستعمراتهم على

---

(١) آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) عالم الاقتصاد السياسى المشهور من اصل اسكوتلندى درس فى جامعتى جلاسجو واكسفورد ثم عين أستاذا للفلسفة فى أولاهما .. اشهر كتبه « ثروة الامم » وقد اصدره فى عام ١٧٧٦ ويعتبر أساس الاقتصاد السياسى الحديث اذ كان اول كتاب وضعت فيه قواعد الاقتصاد على اسس علمية واهم ماصدر فى التاريخ من كتب .

- المعرب -

(٢) على الرغم من التناقض الذى أورده المؤلف عن موقف بريطانيا من الغاء الرق فاننا نراه هنا يطريها على موقفها فى الغائه مع أن هذا الموقف كما سبق أن أسلفنا بالنسبة الى الافراد شرط تمليه القيم الحضارية والشرائع الدينية مما لايستحق معه متخذه اى اطراء أما بالنسبة الى استعباد الشعوب فلقد ظلت بريطانيا ومازالت تمثل القوة الاستعمارية الاولى فى العالم على الرغم من اذعانها أخيرا أمام التطورات الحتمية وامام ارادة الشعوب مما دفعها الى التخلص من بعض مستعمراتها ..

- المعرب -

أنقاض ما أنزلوه من دمار بقبائل الهوتنتوت الافريقية طلبا للتسلية والمتعة وكان اندردسبارمان أستاذ علم الطبيعة في جامعة استكهولم وعضو أكاديمية العلوم الملكية في السويد أحد الذين أعربوا عن فزعهم من هذا الوضع بعد زيارة قام بها للبلاد في عام ١٧٨٥ .

واكتسبت المناقشات في هذا الموضوع في هولندة طابعا أكاديميا لأن عدد الافريقيين الذين نقلوا الى البلاد كان ضئيلا واكتفى الهولنديون بالمتاجرة بالرقيق عبر الاطلسي وكانت المناقشات تتركز حول المزايا العقلية والخلقية للانسان الافريقي أكثر من تركزها على أوضاعه الاجتماعية ومع ذلك فقد ظهر هناك طالب أفريقي في جامعة ليدن يدعى جاكوبوس ايليزا كابيتين من أهل ساحل الذهب ، كتب في عام ١٧٣٨ بحثا ناقش فيه موضوع الرقيق فقال ان الرق لا يتناقض مع المسيحية وان في الامكان أن يكون أداة لها وراح بعد ذلك يتقدم بالشكر الجزيل الى أوروبا على اتجارها بالرقيق ، التي لولاها لما كان يدرس في جامعة ليدن ، ولما كان يظهر تفوقه في اللاتينية واللاهوت ، وقد عاد هذا الرجل الى ساحل الذهب في عام ١٧٤٢ وأصبح ركنا من أركان الحكم في قلعة سان جورج ديلمينا ، التي كانت آنذاك في أيدي الهولنديين وبعث في عام ١٧٤٥ برسالة الى كبراء شركة الهند الهولندية الغربية في هولندة يرجوهم فيها بأن يسمحوا له بالزواج من امرأة افريقية يرى فيها التواضع والجمال مخافة أن ينهزم أمام غواية الشيطان وأعرب عن استعداده لارسالها الى هولندة ليتولوا فحصها ولتنال قسطا آخر من التعليم المسيحي .

وصدرت في فرنسا مطبوعات عدة تعرض جانبي القضية بالطريقة الصحيحة بينها بحث عن الغاء الرقيق يحمل توقيع رجل يدعى رينول وقد ترجم الى الانجليزية في عام ١٧٩٢ .. واستمعت الجمعية الوطنية الفرنسية الى عدد من الخطب تأييدا للافريقيين وللأشخاص من ذوى الدم المختلط ... ألقاها هنرى جريجوار أسقف أبرشيه بلوا وبينها خطاب مؤثر كل التأثير ألقاه في عام ١٧٨٩ وقد كتب المذكور عدة دراسات مقارنة عن الرق في العصور القديمة والحديثة ، وأصدر في عام ١٨٠٨ كتابا عن الطاقات الفكرية والمعنوية عند الزنوج ، وعن آثارهم في الأدب والعلم وقد ذيل الكتاب بتواريخ حياة خمسة عشر شخصا من البارزين منهم ..

ولا ريب في أن هذا الكتاب أثار عاصفة قوية من الاعتراض وانهالت الردود على المؤلف ونشر أف . آر . توساك بصورة خاصة صيحة غاضبة من المستوطنين ضد جريجوار وراح يدافع وينفي الاتهامات التي أسماها خبيثة ومغرضة والتي وجهوها اليه ، وأتبع هذا الرجل بحثه هذا بكتيب أصدره في عام ١٨٢٦ تحدث فيه عن نبالة الدم وأصالة العنصر .. وحمل فيه حملة شعواء على الفلاسفة المؤيدين للزنوج ...

لكن الغاء الرق كان بمثابة ثورة فى طبيعته ولا ريب فى أن هذه الطبيعة لا يمكن أن تقلل من قضيته وقد كتب جى . اشى . فان يورى فى كتابه « الزنوج والرقيق الزنجى » الذى أصدره فى نيويورك فى عـــام ١٨٦١ يقول :

يخلع المزارع الجنوبى معطفه مدفوعا باحساسه بالتفوق الذى يجعله خجــلا من الرجوع الى الأســاطير أو قبول الغرض منهـــا ، ويقبــل على العمل مع عبيده فى نفس الحقل وفى نفس المهام ولا يخطر ببـــاله مطلقا .. إن هذا الرجل سينافسه على تفوقه أو على مكانته الممتازة .. ولقد قال أحد عقــلاء الساسة والعسكريين من أهل الجنوب ذات يوم : لايخطر ببالنامطلقا احتمال قيام الزنوج بثورة علينا تماما كما لايخطر ببالنا أبدا قيام أبقارنا وجيادنا بمثل هذه الثورة ويحكم المزارع عبيده بصورة طبيعية كما أن الزنوج يطيعونه بدافع الغريزة وتكون العلاقة بينه وبينهم علاقة طبيعية ومنسجمة وحتمية ولما كانت مصــالحهم واحدة ولا تتجزأ فليس ثمة من سبب أو دافع يدفع السيد الى اساءة استعمال سلطانه أو يدفع العبد الى الثورة على سيده .. » ويبدو أن الجنوب قد عنى اليوم ماقاله بالأمس . فقد قذف عهد الرقيق بعدد من وجوه الافريقيين فى أوروبا وأمريكا . وقد عاشت بعض السجلات التى خلفها هؤلاء . وفى وسع المرء أن يذكر بالنسبة الى أوروبا رجالا من أمثال أتوبا كوجوانو ، وأغناطيوس سانشو وجوستافوس فاســـا وأنطون ويلهلم عاموس وسبق لى أن ذكرت اسم كابيتين . ولد أتوبا كوجوانو فى أجوماكو فى غانا ، وقد خطفه النخاسون الاوربيون ، وهو طفل مع عشرين آخرين من الغلمان والفتيات بعد أن هددوهم بالسيوف والرماح . وقد روى فى سيرة حياته التى كتبها بالانجليزية وترجمت الى الفرنسية ، كيف سجن هو ورفاقه ، وكيف اقتصر ما كان يسمعه على رنين القيـــود ، وضرب السياط وصياح الرفاق من السجناء . وتحدث عن رحيله وعن التضرع الى السماء . وعن الدموع التى استحم فيها هو ورفاقه ، وقال ان هــذا المنظر « كان كافيا لاستثارة أفئدة أعتى القلوب وأغلظها ، من الوحوش بله البشر ، وأرجو أن تصدقنى أيها الصديق ان قلت ان النصر الذى تحقق على اللا أخلاقية والكبرياء جدير بالابطال أكثر من النصر الذى يتحقق فى ميدان الطموح وميادين الوغى والقتال » .

ولقد سيقوا الى غرناطة ، حيث الهبت جلودهم بالسياط . وذلك لأنهم بدلا من العمل أيام الآحاد ، كانوا يقتلون أوقاتهم عن سفه وعمــد فى الكنائس . وبالطبع لم يسبق لأحد ، ان امتدح آراء الافريقيين فى أيام الآحاد . وكان هناك حاكم فى أفريقيا الغربية مثلا ، أخذ يعلم الافريقيين الاناجيل فدعاهم ذات يوم الى الاجتمــاع به ، وأخذ يوجــه اليهم أسئلة

ليختبر معلوماتهم عن الله ، وقد رد أحدهم ، بأنهم يحبون الله حباً جماً ؛ لأنه خلق لهم شيئين ، أولهما يوم الأحد الذى لا يعملون فيه ، وثانيهما النوم ، وهو الفترة التى لا يعمل فيها الانسان ، وفى غرناطة ، عندما رأى السادة أن عبيدهم الافريقيين يجلسون كسالى يمتصون قصب السكر . راحوا يعالجون المسألة من جذورها فاقتلعوا أسنانهم ، وتمكن اللورد هوث أخيرا من تحقيق الحرية لكونجوانو ونقله معه الى انجلترا . وانتقل فى عام ١٧٨٨ الى خدمة كوزواى الرسام الأول آنذاك لأمير ويلز . واستقر كوجوانو فى لندن وبنى بامرأة انجليزية وقد أطراه صـــديق له يدعى « بياتولى » اطراء شديدا . وتحدث عما يتميز به من ورع ومن دماثة خلق وتواضع وشمم ومواهب عظيمة .

أما اغناطيوس سانشـــو ، فقد ولد على ظهـر باخرة من بواخر النخاسة . كانت تنقل والديه فى طريقهما الى حياة الرق والعبودية . وقد سمى باسم اغناطيوس فى مدينة قرطاجنة . وكان جون لوك قد أبحر الى ساحل أفريقيا الغربى فى عام ١٥٥٤ وحمل معه فى طريق عودته الى بلاده شحنة وصفها سانشو بأنها من الأرقاء السود ، بعضهم من الفارعى القوام الأقوياء البنية ، وقد ذكر هذا النخاس أن الافريقيين كانوا يتقبلون الى حد كبير طعام الانجليز وطريقتهم فى الحياة وان كانوا يشعرون بشىء من الأذى من برودة طقس انجلترا ورطوبته . ولم تستطع والدة اغناطيوس احتمال هذا التبدل فى المناخ فانتقلت من هذا العالم بهدوء مخلفة ولدها . ويقال ان والده قد انتحر بعد أن أصيب بلوثة فى عقله ، فقد من جرائها اتزانه ، وكان اغناطيوس الآن قد بلغ ســـن الثانية من عمره ، فنقله النخاسون الى انجلترا حيث ابتاعه اخوات ثلاث يعشن فى جرينويتش ، كن فى مقتبل العمر . وتميز بعد أن دب نحو الشباب بالحكمة ، وروعة الخلق ، حتى انهن أطلقن عليه اسم سانشو ، وحدث أن مر به ذات يوم دوق مونتاج ، وكان الدوق يمتطى صـــهوة جواده ، فرأى هذا الصبى الأسود وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، فتوقف اليه يحدثه ، ويسأله ، وأعجب به . ثم أقرضه بعض الكتب . وأخذ الدوق بعد ذلك يوجهه فى تعليمه . وتوفى الدوق ، وبوفاته انتقل سانشو الى حياة من المتاعب التى خاض فيها الى أخمص قدميه حتى أحست الدوقة بالاشفاق عليه ، فنقلته الى خدمتها كساق فى قصرها . وعندما ماتت هى بدورها ، أوصت له بسبعين جنيها نقدا وبجعل سنوى قدره ثلاثون جنيها. وعاد يواجه الشقاء والمتاعب ثانية الى أن استقر به المطاف أخيرا فى خدمة أسرة ذات مكانة محترمة . وأخذ سلوكه يتحسن بعد أن تردى فى فترة الشقاء التى مر بها ، وتزوج من سيدة ولدت فى جزر الهند الغربية . واستكان أخيرا الى الحياة ، وأخذ يبنى أسرته بكثير من التفرد والاعتماد الرائع على نفسه ،

ولما يمض طويل وقت حتى كانت هناك أسرة كبيرة تحمل اسمه ·

وحقق لنفسه احترام الآخرين ، بفضائله ، ورصانة حياته البيتية ، وان كانت بعض المرارات قد أخذت تحز فى نفسه منذ عام ١٧٧٣ · وكانت دوقة كنت صديقة له ، وقد تلقت منه عدة رسائل ، ملأها بالنصائح والمواعظ · وكان مولعا الى حد كبير بالاقتباس من سفر التثنية · وقد نشر آراءه فى تجارة الرقيق وفى استعباد القارة الافريقية وترجم كتابه هذا الى الفرنسية · وقد توفى فى عام ١٧٨٠ وصدرت بعد وفاته طبعة تضمنت جميع رسائله ·

وولد جوستاس فاسا تحت اسم أولاندو ايكويانو من أب يعمل تابعا للملك بنين فى نيجيريا · واختطفه النخاسون مع شقيقه وباعوهما الى تجار الرقيق النصارى الذين حملوهما الى فرجينيا · وهناك ابتاعه ضابط هو الرئيس آم · اشى · باسكال ، الذى حمله معه الى انجلترا ، حيث أسماه فاسا ثم أسكنه فى «جيرنس» · وقد اشترك فاسا فى الحملة على لويزبرج فى عام ١٧٥٨ تحت قيادة أمير البحر بوشافين · وكان يبحر على نفس الباخرة التى أقلت الفريق وولف الذى شهد ساشا بدماثة خلقه وكريم معاملته وتحول ساشا الى المسيحية فى عام ١٧٥٩ ·

وتلقى أسقف لندن فى عام ١٧٧٩ الرسالة التالية :

« سيدى

أقمت نحوا من سبع سنوات على ساحل أفريقيا كنت فى غضون معظمها الضابط المسئول · وانى بما أعرفه عن البلاد وأهلها ، ميال الى الاعتقاد بأن الخطة المرفقة ستلقى نجاحا عظيما ، اذا رعيتها نيافتك وأقررتها · وانى لأستميحك العذر ياسيدى ، لأقول ان خططا مشابهة لها قد لقيت نجاحا منقطع النظير ، عندما وجدت التشجيع من الحكومات الأخرى وانى لأعرف الآن ، شخصية محترمة كل الاحترام ، فى قلعة ساحل الكاب ، صاحبها قسيس من السود · ويدعى هذا القس جوستافوس فاسا ، وهو رجل فى منتهى الخلق العظيم ·

لى الشرف ياسيدى أن أكون خادم نيافتكم المطيع

ماليو ما كنمارا

لكن نيافة الأسقف ، لم يلب ما طلبه كاتب هذه الرسالة وهو أن يرسم فاسا قسا انجيليا · وبدلا من أن يسام كاهنا عين فى وظيفة مدنية كمفوض للمخازن والتموين لفقراء السود فى سيراليون · وبنى فى نفس العام أى عام ١٧٨٧ ، بكريمة جيمس وآن كالين من أهالى بلدة ايلى · وقد

أدرج اسمه فى لائحة الشرف فى مجلة السادة «Gentleman's Magazine» أغسطس عام ١٧٩٢ وفى « مجلة الأدب وسير الحياة » فى مايو ١٧٩٢ ٠

وولد انطون ويلهلم عاموس على مقربة من أكسيم حوالى عام ١٧٠٠ وكان والداه قد اعتنقا النصرانية على مذهب الكنيسة الاصلاحية الهولندية وأوفد هو الى هولندة عن طريق جوهان فان دير ستار المبشر فى ساحل الذهب ٠ ليستزيد العلم بالمبادىء المسيحية بعيدا عن تأثير مواطنيه الوثنيين وليعود بعد استكمال الدراسة الى بلاده ليكون مبشرا وواعظا - وعندما وصل عاموس الى هولندة ٠ ترددت شركة الهند الغربية الهولندية المسئولة عن التجارة وأعمال التبشير فى غانا ، فى تحمل نفقات دراسته وعجز أصدقاؤه عن العثور على أى شخص يتولى ايواؤه فورا ، وحدث فى تلك الآونة ان أصدر أنطون أولريك ، دوق برنزويك ، بعد أن رأى ما فى المذهب السائد فى أوجزبرج من اهتراء ، كتيبا ضمنه خمسين سببا تدعو المرء الى التحول الى الكثلكة ٠ واقتنع عاموس بهذه الأسباب ٠ وتحول الى الكثلكة ، وراح يعيش فى دارة الدوق فى « وولفينبوتل » الى أن التحق بجامعة هال ٠ وراح يدافع فى رسالة نشرها عن ردته الى الكثلكة ، وجاءت رسالته وطنية ان لم تقل عنصرية فى موضوعها ٠ وقال مستندا الى بعض حجج التاريخ والقانون ان ملوك أفريقيا كانوا فى الماضى البعيد أتباعا للامبراطورية الرومانية وان كل واحد منهم ، كان يحمل براءة ملكية من الأباطرة من أمثال جوستنيان ، وكان يجد لزاما عليه أن يحصل عليها من رومة نفسها ، ومضى يقول ان الافريقيين قد ورثوا عن طريق هذه العلاقة بالرومان بعض القوانين ، التى تؤكد ان شراء المسيحيين الأوروبيين لهم واستعبادهم ، أمران غير مشروعين ٠ وكان عاموس يحاول التضييق من شقة الفروق القائمة بين الحضارتين الافريقية والمسيحية وهى الفروق التى كان المسيحيون يستخدمونها كمبرر لتجارة الرقيق (١) ٠ وانتقل بعد ذلك الى مدينة ويتنبرج ، حيث أصبح أستاذا للفلسفة فى جامعتها ٠ فى الوقت الذى كان فيه الفيلسوف الألمانى « كانت » لا يزال صبيا ، يعيش فى تلك المدينة ٠ ودافع فى عام ١٧٣٤ ، عن مؤلف قال فيه : ان الاحساس ليس من الأعمال العقلية مطلقا ٠ وقد أثارت بعض النتائج التى وصل اليها فى حينه موجة من الاستغراب والدهشة ٠ وكان يرى أن العقل اذا كان يستوعب بعض الأفكار المتعلقة بالادراك الحسى فان استيعابه لها ، ليس

---

(١) لا بدع ان لجأ الاستعمار الاوروبى الى استخدام هذه الفروق مبررا لتجارة الرقيق فقد عودنا الاستعمار ايضا ، ان يلجأ الى استخدام مايزعمه من تأخر بعض البلاد فى القارتين الافريقية والاسيوية مبررا لاستعمارها ، مدعيا الرغبة فى انهاضها ، بينما هو فى الحقيقة لايهدف الا الى استغلال خيراتها ، وابتزاز ثرواتها .

— المعرب —

بتأجم الا عن طريق «الحال» ، وذلك لسبب الطريقة التي تتوالد فيها الأفكار عند دعاة الفلسفة التجريبية • ولما كانت هناك استحالة في هذا ، فقد توصل الى الاستنتاج القائل بأن العقل يخلو والحالة هذه من أمثال هذه الفكر • وكان يرى أن أية فلسفة تجعل من العقل شيئا ذاتي النشاط ، وجامدا في آن واحد ، هي فلسفة تلقائية التناقض ، كما أن حالة وجود الأفكار الحسية في العقل البشري ، مشكلة دائمة الحيرة بالنسبة الى الفلاسفة التجريبيين • وكان عاموس فيلسوفا عقلانيا من أتباع ليبنيتز ، الذي تعرف اليه ، وهو صبي في دارة دوق برنزويك ، وقد أطرى الجميع ما حققه في دنيا الفلسفة •وقد وصفه رئيس دائرة الفلسفة في الجامعة وأساتذتها بأنه رجل من أنبل الرجال وأكثرهم شهرة ، جاء من أفريقيا فكان مثلا بارزا للأمانة العلمية والذكاء والمثابرة والحصافة التي بذ بها كلها جميع أقرانه • وقد أصدر في عام ١٧٣٨ كتابه « العمل العظيم Magnum Opus » الذي ضمنه آراءه في المنطق ونظرية المعرفة والغيبيات •

وكان الجميع يحبونه ويجلونه ، وكان في طليعة الموكب العلمي الذي خرج لاستقبال فريدريك ملك بروسيا عند زيارته لجامعة هال في عام ١٧٣٣ • وقد أعجب الامبراطور بالموكب أشد الاعجاب حتى أنه قدم الى المشتركين فيه وبينهم عاموس ، جرارا من خمر الراين • ولكن الفيلسوف الافريقي ما لبث أن تحدى الحظر الذي فرضه فريدريك على الفيلسوف « وولف » وآرائه ، وراح يحاضر في جامعة هال ، عن أفكار وولف (١) السياسية • وانتقل في عام ١٧٣٩ الى فيينا حيث أخذ يدرس فيجامعتها وهكذا نرى أن عاموس قد درسفي جامعات ويتنبرج وهال وفيينا• واتخذ له عبارة من ابيكتيتوس (٢) ، جعلها شعارا له في فلسفته ، وهي أن المرء الذي يعود نفسه على العسر رجلحكيم ، وفيه شيء من صفات القداسة ولقد ذكر عاموس أنه دون هذه العبارة على صفحات عقله ، ليظل ذاكرا لها على الدوام • وقد تعلم العبرانية والاغريقية واللاتينية والهولندية والفرنسية والالمانية ولو أجهد نفسه قليلا لتعلم الانجليزية ، لكنا نعرف عنه اليوم أكثر مما عرفنا حتى الآن ولقد برز ما حققه من نجاح ضخم في

---

(١) فيلسوف ومفكر سياسي الماني عاش في دوقية برنزويك في المانيا في مطلع القرن الثامن عشر ، وقد بنيت مكتبة عامة باسمه في المدينة على غرار البانثيون الروماني .

(٢) ابيكتيتوس (Epictetus) . فيلسوف اغريقي من اهل مقاطعة فريجيا . عاش ردحا طويلا كعبد في روما ثم في أبيروس . ومن نظرياته أن على المرء ان يجد السعادة في نفسه .

ـ المعرب ـ

ألمانيا ، فى تسميته مستشارا فى محكمة برلين • وقد عاد الى غانا بعد عام ١٧٤٣ ، حيث توفى متأثرا من الضيق والسآمة •

ولعل الشيء المهم ، هو أن هؤلاء الناس قد أتيح لهم أن يحظوا بقسط من التعليم ، فى تلك الايام • أما اليـــوم فقد خففت الحواجز المفروضة على تعليم الافريقيين فى أوروبا بالنسبة الى ما كانت عليه فى الماضى • فلقد أصدر رئيس بلدية لندن وأعضاء مجلسها البلدى فى عام ١٧٣١ مثلا ، قانونا يحظر تدريس الحرف للزنوج فى الجامعة • ولم يكن نصيب من تتاح له بعض فرص التعليم منهم الاعجاب والتقدير دائما • وقد كتب بوزويل(١) عما أحس به فرانسيس باربر ، خادم الدكتور جونسون من تحرق على الحرية يقول •••• « وقد اكتشف فى خادمه شعورا أكبره كل الاكبار ، هو الحماس الذى لا حدود له للحرية » • ولكن بوزويل هـذا حزن أشد الحزن للمحاولات التى يقوم بها البعض « لالغاء مثل هذا الفرع الضرورى والهام من فروع جنى الأرباح التجارية » •

وكان بعض الافريقيين يحسون بشيء من القناعة والرضى لبقائهم عبيدا فى بريطانيا فى وقت كان يباع فيه الأسكوتلنديون عبيدا أيضا • ويعرض لنا القرنان الثامن عشر والتاسع عشر حالات لا عد لها ولا حصر من بيع الأزواج فى لندن لزوجاتهم بيعا علنيا • ولقد نشرت صحيفة التايمز اللندنية فى عددها الصادر بتاريخ التاسع عشر من يوليو عـام ١٧٩٧ الرسالة التالية :

« لم تذكر بسبب خطأ غير متعمد فى النبأ الذى نشرناه عن سوق سميث فيلد ، معدل الأسعار التى بيعت بها الزوجات فى الأســـبوع الماضى ••• ويعتبر بعض البارزين من الكتاب ، ارتفاع أسعار الجنس اللطيف ، دليلا واضحا على أنتشار الحضارة •••

« وهكذا فان من حق سميث فيلد ، أن يدعى تحسنا ملموســا وواضحا ، اذ أن أسعار الزوجات فيه قد ارتفعت من نصف جنيه للزوجة الواحدة الى ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه • »

ولعل أقرب شبه لاستعباد الافريقيين من قبل الأوربيين هو ما لقيه

---

(١) جيمس بوزويل James Boswell ١٧٤٠ ـ ١٧٩٥) مؤلف اسكوتلندى وكاتب سيرة الكاتب المشهور صمويل جونسون . ولد في ادنبرة ودرس في جامعتها وفي جلاسكو درس القانون حيث تتلمذ على آدم سميث . له عدة كتب دفاعا عن الشعب الاسكوتلندى .

ـ المعرب ـ

اليهود من اضطهاد على الصعيد العالمى (١) ولكن تجارة الرقيق هى الثمن الذى دفعته أفريقيا للثورة الفكرية التى عناها اتصالها بأوروبا لها .

ومازالت أفريقيا تدفع هذا الثمن فى القرن العشرين وان كان فى شكل مخفف . وكان من رأى اللورد بيرنهام ، فى مطلع هذا القرن تقريبا أنه ما كان فى الامكان أن تسير صناعات أوروبا قدما الى الأمام دون الذهب الناتج فى جنوب أفريقيا . وكان فى وسعه أن يقول ان أفريقيا هى العامل الوحيد الذى احتل أهمية منقطعة النظير بالنسبة الى أوروبا ، وقد أمنت تجارة الرقيق أرخص يد عاملة فى الوجود لأوروبا ، وكان الأوروبيون يحصلون على الذهب اما من المناجم أو من التجارة الشاذة غير المتكافئة فى أفريقيا ، وضمنت هذه القارة لأوروبا الرساميل الضخمة التى مكنت الثورة الصناعية من الظهور . ولقد ظلت أوروبا تعتمد حتى فى هذا القرن اعتمادا مباشرا على المواد المعدنية التى تحصل عليها من أفريقيا ، وبينها الذهب والمنجنيز والأورانيوم والبوكسيت والصفيح والزيت والحديد وهناك كميات لا عد لها ولا حصر من الماس .

وقد كان لمناجم النحاس فى كاتانجا القول الفصل الى حد كبير فى تقرير مصير الحرب الكونية الأولى . فلقد شحنت مئات الأطنان من هذا المعدن من الكونجو الى بريطانيا وغيرها من البلاد لتستخدم فى صناعة العتاد وفى انتاج مختلف أنواع الأسلحة . ويقال ان الألمان كانوا فى نفس الوقت يتحرقون على أشد من جمر اللظى للحصول على هذا المعدن فأخذوا يصهرون ما لدى الشعب الألمانى من أوعية نحاسية لهذا الهدف . وقد ساعد اكتشاف معدن المنجنيز فى ساحل الذهب ابان الحرب ، أيضا

---

(١) جانب المؤلف في هذا التشبيه ، الحقيقة كل المجانبة ، اذ لاوجه للتشابه مطلقا بين الافريقيين الذين استبعدهم الاستعمار واليهود . فهناك بالنسبة الى الافريقيين اولا قضية أرض ووطن يستعبده الاستعمار ليستغل موارده ويستنزفها لمصالحه . بينما ليست هناك مثل هذه الاوضاع بالنسبة الى اليهود المنتشرين في كل أرض في العالم يستنزفون هم خيراتها . وهناك بالنسبة الى الافريقيين قضية اعتداء سافر تقوم به الدول الاوروبية الاستعمارية القادمة من وراء البحار بقصد الغزو والاحتلال والاتجار بحرية الانسان وكرامته . أما بالنسبة الى اليهود فليست هناك من هذه الظواهر اى شيء . وانما هناك جماعات من اليهود تشعر بالتفوق العنصرى على غيرها لانها « شعب الله المختار » فتحترف تحرفات تثير المشاعر العنصرية عند الآخرين ، وهناك بالنسبة الى الافريقيين رقيق يستخدم في أعمال السخرة وتبتز طاقاته الانتاجية مجانا لخدمة المستعمرين والراسماليين الاجانب أما بالنسبة الى اليهود ، فهم رغم انهم أقلية في كل بلد من البلاد يسخرون طاقات الشعوب التى يعيشون معها في الانتاج لتضخيم أموالهم ، وزيادة أرباحهم بوصفهم الطبقة الرأسمالية الحاكمة . ومن هنا يتبين ان هذا التشبيه خاطىء كل الخطأ ولعله نجم عن تأثر بالدعايات الصهيونية التى تحاول خداع الشعوب الافريقية ..

— المعرب —

على زيادة كفاية الطائرات البريطانية زيادة كبيرة . وقد ضمنت هـذه البلاد أيضا تموينا مستمرا لبريطانيا من غاز الكلورين عن طريق هذا الاكتشاف النفيس .

وحصلت أوروبا من القارة الافريقية أيضا على مواد كثيرة وبينها المطاط والألياف والقهوة والسكر والزيوت والفواكه والقطن .

والعمال الافريقيون هم وحدهم الذين يشتغلون فى مناجم افريقيا ومزارعها كلها سواء أكانت ملكا للافريقيين أو لغيرهم . ويكون هؤلاء العمال أحرارا احيانا ويكونون مسخرين أحيانا أخرى .

ويقال ان عمل السخرة مضر بالاقتصاد المحلى ، اذ أنه يقلل من الطاقة الانتاجية ويعزى السبب فى ذلك الى أن العمال يفقدون اهتمامهم بالعمل . وهو اهتمام من المحتمل أن يكون قائما ، وهكذا تضيع نسبة من الطاقة فى تسويف العمال وابطائهم ، وكذلك فى الحاجة الى المزيد من التشديد فى الاشراف والمراقبة وهكذا لايغدو التطبيق واعيا ولا مستمرا . وينبع احساس بالميل عن العمل . وهو احساس خطر اذا استمر دون أى كابح او زاجر . وكثيرا ماسمع العمال فى مناطق كثيرة فى افريقيا ، حتى بعد نوال الاستقلال يحاولون تبرير التسويف والابطاء ، أو يوصون بهما عن طريق القول بأن الانسان لاينفذ أعمال الرجل الابيض بحماس واقبال .

ولكن عمل السخرة ، لايكون مؤذيا للاقتصاد المحلى فى نظام اشتراكى ، بالقدر الذى يكون مؤذيا فيه فى النظام الراسمالى ، اذ أن الفرصة متاحة امامه فى النظام الاول ليكون مصبوغا بصبغة « المثالية » بينما لايمكن الحث عليه فى النظام الثانى الا بأقوال سفسطائية توراثية عن كرامة العمل عند الآخرين . وليس ثمة من يناقش فى حق أية أمة فى خدمات مواطنيها . ولكن من الضرورى أن توجه هذه الخدمات توجيها مباشرا نحو المصلحة العامة ، وأن يفعل ذلك جميع القادرين على الاسهام فى أداء هذه الخدمات . ولعل خير سبيل لأداء ذلك ، هو فوضى الضرائب ، بالاضافة الى الغرامات التى تفرض على صعيد ضيق محصور .

وقد فرضت جميع الدول التى استعمرت مناطق فى القارة الافريقية على هذه القارة اعمال السخرة ، فقد اجبر الرجال فى الكمرون الفرنسى على شق سكة حديد ميدلاند ، والعمل سبعة اشهر فى السنة بلا مقابل وقد اعترفت السلطات أن نسبة الوفيات بين العمال بسبب العمل المذكور بلغت ثمانين فى الالف ، كما اعترفت أيضا بأنه لم يكن هناك أكثر من طبيب واحد لنحو ستة آلاف شخص .

واصدر قاض للصلح فى كينيا ، حكمه بالسجن على عدد من الافريقيين لانهم رفضوا الانصياع لامر بالعمل الالزامى فى السكة الحديدية . لكن محكمة كينيا العليا ، نقضت هذا الحكم على اى حال فى عام ١٩٢٥ .

وكانت السلطات فى مستعمرات البرتغال وبلجيكا ، فى افريقياتبتز عمل السخرة ابتزازا ، وبنفس الطريقة لمد السكك الحديدية .

ورفض البريطانيون السماح بأعمال السخرة للمشاريع الخاصة فى افريقيا وان كان بعض اصحاب المشاريع قد تقدموا بطلب الى حاكم روديسيا الجنوبية فى عام ١٩٢٥ ، يرجون فيه السماح لهم بابتزاز عمال السخرة . وكان اللورد كرومر ، قد استنكر هذا الاجراء ، واعتبروه ، مرادفا للرق . ومازالت السخرة متبعة فى جنوب افريقيا ، وموزمبيق وأنجولا وافريقيا الاسبانية ؛ مصحوبة بقصص اسطورية من الوحشية والقسوة .

وصحيح أن نظام الانتدابات الذى اقرته عصبة الامم لافريقيا ، قد سمح بأعمال السخرة ، الا انه حصرها فى الخدمات العامة . وحددها بشروط قوية صالحة . ولكن الفرنسيين بعقولهم الاستقرائيةالاستدلالية النشطة ، فرضوا جباية فعلية بالعمل ، على أهل البلاد التى يحكمونها . مبررين ذلك بأنها عوض عن الضرائب النقدية ، وهو تبرير سخيف باطل ، فى منطقة كانت فيها الاجور معدومة تقريبا ، وكانت هناك اربع وسائل أساسية لغرض الاقناع عندما يكون الافريقيون فى موقف المتعنت المتزمت ، فهم يحرمون من أراضيهم ؛ وهم يتعرضون لقوانين عتيقة تفرض عليهم . ولضرائب مباشرة تبتز منهم ، كما تستثار فيهم وفى ضمائرهم النواحى الجماعية .

وقد أدت هذه الاساليب من الاقناع على الصعيد الضيق المحدود ، الى قليل من الاحتكاك . اذ أنها كانت تمس مع نواح أخرى ، القوى الدافعة فى المجتمع الافريقى بالنسبة الى الجماعية مثلا . وأدى ضياع الاستقلال فى مثل هذه الحالات العرضية الى اكتساب نواح وقائية . فبالنسبة الى الثقافات الافريقية تدل المخلفات الضخمة منها التى عاشت العهود الاستعمارية ، على أن الدولالأوروبية القارية ، لم تحاول بطريقة منظمة ، القضاء على الروح الافريقية ومحوها (١) . ولعل النسبة

---

(١) اعتقد أن المؤلف قد أخطأ كل الخطأ فى رأيه هذا . فلقد حاولت فرنسا مثلا فرنسة الجزائر تماما وجعلها فرنسية عن طريق القضاء كل القضاء على عروبتها ولايمكن ان يقال انها لم تكن جدية في محاولتها المنظمة هذه ، وان فشلت كل الفشل . وما يقال عن فرنسا في الجزائر ، يصح قوله بالنسبة الى الاستعمار الايطالى البشع في ليبيا .
— المعرب —

الصغيرة من الافريقيين المستغربين ، الذين كانوا ذوى نفوذ ادارى فعال فى بلادهم ، يقيمون الدليل على صحة هذا الرأى الذى قلنا به.(١) ولو تمكن هؤلاء من أن يصبحوا قادة لشعوبهم أيضا فى مبادىء الثقافة والأخلاق فان أثر الاستعمار ، يكون والحالة هذه كاملا •

ومع ذلك فقد تمكن الاستعمار من ثلم ما لدى الشعوب الافريقية من حماسة وحمية ، عن طريق ازدراء مساعيهم الهـــادفة الى غايات معينة والتهامها • وقد حق لديهم الاحساس بأنهم لايزيدون عن ذيول وملحقات وانهم مجرد متطفلين على أعمال الآخرين • ولا اقصد بهذا أن أقول على أى حـــال بأن ، الاســـتعمار ، قد حطـــم ما لدى الشعوب من قدرة على المبادىء والابتكار • فالتصميم الذى تم فيه الحصـــول على الاستغلال وما صحبه من تلقـــائية التفكير ، يشيران الى أن القدرة على الابتكار عند الافريقيين لم تزل ولم تمح مطلقـــا • والصحيح أن الشعوب الافريقية بانفصامها عن الثقافات الغربية ، وجعلها منعزلة عن ثقافاتها بعد المرور بها مر الكرام ، استطاعت الحفاظ على نفسها فى قوقعتها ، والاحتفاظ داخل هذه القوقعة بقدرتها على الابتكار والمبادرة • ولا ريب فى أن حـكم الاستعمار اللامباشر عن طريق الشـيوخ القبليين كان من أكبر الأخطاء التى ارتكبها الاستعمار ضد نفسه ومن وجهة نظره • اذ أن هذا الحكم هو الذى حافظ على الثقافات الافريقية فى قوقعتها ، وشجع على التباعد بينها وبين الثقافات الاوروبية ، التى تقف الثقافات الافريقية موقف العـــداء منها ، بحكم تطلعها الى الاستقلال سعيا وراء الحصول عليه ففى الهند الغربية مثلا • حيث قطعت عمليات اقتباس الحضارات الأوروبية مراحل واسعة لا يجد أبناء الشعب من ثقافاتهم الخاصـــة الكثير ليتمسكوا به ويصمدوا أمام الثقافات الغربية ، ســـواء اليوم أو بعد الحصول على الاستقلال • فلقد تحولت جزر الهند الغربية الى منـاطق غربية فعلا • وفاتت فرص الاصلاح ، ولعل خير سبيل لها ، هو أن تغذ الســـير فى عملية « التغريب » بعد أن غدت المجال الوحيد المفتوح أمامها •

ولو تطلع المرء الى واحدة من النواحى الشمولية للمجتمعات • وهى الناحية الغالبة عليها كلها • وأعنى بها ، البنيان الطبقى ، لوجد أن الدور الذى تلعبه الفروق الطبقية فى الهند الغربية يوازى موازاة أساسية الدور

---

(١) يمثل هؤلاء المستغربون الذين أشار اليهم المؤلف الفئات الانتهازية فى كل أرض وطئها الاستعمار بأقدامه • وهى التى حاولت بعد أن تعالت عن الشعب الذى تنتمى اليه تقليد ثقافات الدولة المستعمرة تدعيما لمركزها الانتهازى ، فأصبحت عملية لهـا ومن الطبيعى والحالة هذه أن تفقد كل احترام لها عند الشعوب المتطلعة الى الاستقلال •
ـ المعرب ـ

الذى تلعبه فى الغرب • فالبنيان الطبقى فيها أفقى لا عمودى كما هى الحالة فى أفريقيا • ويجد المرء فى الهند الغربيـة أوروبيين وأمريكيين يملكون المزارع ، كمـا يجد أشخاصا من المولدين من أصل أفريقى وأوروبى مختلط أو من أصل هندى وأوروبى ، وكذلك أشخاصا من أصل أفريقى أو هندى ويقوم تصنيف المجتمع هناك على أساس هذا الترتيب• ويكون التصنيف على أساس الأصول موازيا للتصنيف على أسـاس الثروات • ومن الطبيعى أن يكون ادخال العمليات الانتخابية ومايرافقها من سياسات قد أدى الى تقوية مراكز الطبقات الخفيضة ، وبدأت قواعد التصنيف الطبقى القديمة ، تنهار شيئا فشيئا ، لتتأقلم مع القـواعد الجديدة هنا وهناك ، ويبدو أن الميل متجه فى الهند الغربية الى أن تقترع الطبقة الوسطى جنبا الى جنب مع فئات القمة من الطبقات العمالية ، ويؤدى هذا الميل الى الربط بين الطبقة والسلطان أما فى أفريقيا التقليدية القديمة ، فلم تكن الطبقة مرتبطة بالطبع بالسلطان وكانت الاختصاصات هى التى تقرر املاء مراكز السلطان • وهى تشغل عن طريق الانتخاب أحيانا بطرق تتخطى الحساسيات الطبقية ، وكان البروز فى الحكمـة وبعض الفنون ، شرطا أساسيا فى الغالب ، للوصول الى بعض المناصب التى تتطلب اختصاصا تمـاما كما هو الميل المتزايد لدى المجتمعات الحديثة •

وقد دخلت عناصر جديدة من النوع الطبقى ، ابان عهود ضـياع الاستقلال لتأخذ مكانها جنبا الى جنب مع البنيانات الطبقية التقليدية وقد ارتبطت الطبقة منها بالسلطان الادارى • ولكن هذه الصلة ما لبثت ان منيت بالضعف الشديد من جراء نشوء الاحزاب الشعبية الجماهيرية والحركات العامة ولا ريب فى أن البلاد الافريقية الجديدة تملك عن طريق اختفاء الطبقات الوراثيـة بالفعل والتى لا تتميز بالمهـارات الخاصة والاختصاص وان نعمت بالسلطان ردحا من الزمن ، كل الدلائل التى تشير الى أنها خطت خطوات صـادقة فى طريق القوميـة الصحيحة • والطبقات هنا متعاونة مع بعضها ، وليست متصارعة كما هو الوضـع فى الحساب الماركسى (١) • ومن الممكن القول بأن البلاد الافريقية الجديدة ، هى أقرب من البلاد الغربية الى طراز المجتمعات التى تقوم على توفير الرخاء

---

(١) أعتقد أن المؤلف متأثر هنا بالطراز الاصلاحى لا الثورى من التفكير الاجتماعى فلقد اثبتت التجارب الافريقية نفسها ، أو بعضها على الاقل ، أن امكانية التعايش والتعاون بين الطبقات المتضاربة المصالح ، أمر مستحيل كل الاستحالة • ولعل أصدق مثل على ذلك • مانشهده فى بلاد المؤلف نفسها اليوم • وهى غانا من مؤامرات تقوم بها الطبقـات الاقطاعية والراسمالية الكبيرة • وفى التجربة التى مرت بها غينيا أيضا خير دليل على=

للجميع • فلقد نجحت هذه البلاد الى أقصى حدود النجاح فى استغلال كافة طاقاتها لتحقيق هذه الغاية •

وبالاضافة الى الآثار السياسية التى يخلفها نبذ الحياة التقليدية للشعوب وادخال طرز جديدة من الفروق الاجتماعية ، وهو ما شهدته عهود ضياع الاستقلال فان فى وسع الانسان أن يرى وأن يستشهد أيضا بشكل ومدى النشاط الاقتصادى الجديد الذى أدخل حديثا بكل ما فيه من قوى بناءة وهدامة ، وبالطراز الجديد من التعليم وماحمله من مفاهيم دينية وخلقية ، وبالتعديلات فى الفنون والموسيقى والأدب واللباس والغذاء • وبالتغيرات فى الأساليب التقنية (التكنولوجية) ، وفى أنظمة الحكم وما تنطوى عليه هذه الأنظمة من بنيانات ثانوية سياسية • وكان لهذه التبدلات الاقتصادية آثار سياسية واجتماعية معا • فقد أحالت البلاد اللامستقلة الى اقتصادات منتجة للمواد الأولية • وفى الوقت نفسه الى اقتصادات تسويقية ــ مما أدى الى أن تغدو هذه البلاد ، وبصورة غير مرضية معتادة دون تصنيعها على المتع والمسرات التى يحملها التصنيع الى الشعوب المستصنعة • وأخذت هذه البلاد تبيع منتجاتها بالأسعار المنخفضة التى تتاح عادة للمواد الأولية ، بينما تبعثر دخلها الى حد كبير فى ابتياع السلع المصنوعة بأسعار مرتفعة كل الارتفاع نتيجة ارتفاع أجور العمال فى البلاد الأوروبية ، ونتيجة أساليب التسويق الجديدة ، ووصول عقيدة الربح الى ذروتها القصوى • وبينما يقال فى البلاد الأوروبية أن الأسعار تقرر على ضوء الأجور وعلى ضوء النقد القائم فى الأسواق ، أكثر من تقريرها على ضوء الطلب ، نجد أن هذه العوامل ، لا تلعب دورها فى البلاد اللامستقلة • فهناك سلع كثيرة يتعادل تكليفها فى البلاد الأوروبية وفى البلاد اللامستقلة ، على الرغم من أن الأجور فى البلاد اللامستقلة ، أقل بكثير منها فى البلاد الأوروبية وعلى الرغم من أن النقد القائم فى الأسواق أقل بكثير منهما فى البلاد الأوروبية وعلى الرغم من أن النقد قد يكون واحدا فيهما ، الا أن من الواضح عدم امكان المقارنة بين القوة الشرائية هنا ، والقوة الشرائية هناك • ومن الواضح أن الحقائق الاقتصادية لا تكون دائما اقتصادية فى طبيعتها ، وأنها كثيرا ما تكون أيضا حقائق وطنية تختص بالبلاد نفسها • ولو تحدث المرء من الناحية

ــــــــــــــــ

= صحة مانقوله • واذا صح ان التعاون ممكن بين طبقات العمال والفلاحين والراسمالية الوطنية الصغيرة ، فانه مستحيل بالنسبة الى الراسمالية الكبيرة والاقطاع والبورجوازية الا اذا ظل النظام راسماليا تتحكم فيه مصالح الاحتكار مع تحسنات طفيفة ولا جذرية فى اوضاع الطبقة العاملة •

ــ المعرب ــ

الإقتصادية المجردة ، لكان في وسعه أن يدعو ، وله الحق في دعواه ، الى أن تقوم الدول الأوروبية باقامة مصانعها في البلاد اللامستقلة ٠ والى أن تصدر عمالها الفنيين وخبراءها اليها فسيكون الوفر في أجور العمال اللافنيين ، وهي دائما أجور ضخمة ، كبيرا يستحق أن يحسب حسابه ٠ وفي امكان الفوائض من المنتجات التي لا تباع في البلاد اللامستقلة ٠ أن تباع في البلاد الأوروبية نفسها ، التي يمكنها آنذاك ان تكتفي بالانتاج لإستهلاكها المحلي ٠ وبالطبع لايمكن اللجوء مطلقا الى هذا السبيل اذ أنه يعني النقص في فرص العمل في هذه البلاد كما قد يعني أيضا خفضا في طاقات الأسواق منها ٠ ولكن هذا الاستنكار الذي قد يثار في البلاد الأوروبية قد يثار أيضا وبصورة متكافئة في البلاد اللامستقلة بالنسبة الى مصالحها ٠ ولا يمكن حل الصراع القائم في المصالح بين الفريقين طالما أن البلاد اللامستقلة لم تدمج في البلاد الأوروبية ، وطالما أنها تحتفظ بمركزها كبلاد تابعة ليس الا ٠

ويعتبر ادخال الاجور المنظمة ودفعهـــا الى الافراد بدلا من الأسر تنظيما اقتصاديا آخر ، ترك أثرا ضخما على المجتمع التقليدي القديم ٠ فلقد أضفى هذا التطور على الفرد احساسا بالسلطان الفردي ٠ وقـد ساعده على هذا ، الشعور بالتفتت عن الجماعة ، جبى الضرائب من الأفراد ودفع الفرد لها ومحاسبته شخصيا عن الديون التي يعترضها والفدية الشخصية التي يؤديها ، والغرامات التي يدفعها بموجب الشرائع الأوروبية عن جميع الجرائم والجنح التي يقترفها وتحول الافراد بدلا من الاسر الى المسيحية والتمشي بالفردية التي تدعو اليها تعاليم العهد الجديد بدلا من جماعية تعاليم العهد القديم ٠ ومحاسبة الفرد أمام ضميره وأمام الله ٠ وهكذا تشجع الفرد على التفكير والعمل بصورة انفرادية بدلا من التفكير والعمل على أسس جماعية ٠

ولم تؤد الديانة المسيحية الجديدة بشرائعها الاخلاقية القـائمة على الاوامر والنواهي السماوية ، الى ادخال كثير من التغيير ، الا بين المثقفين ثقافة غربية أما الغيرة الدينية التي يتحلى بها أولئك الذين لم يتلقوا مثل هذا التعليم فقد تم الحفاظ عليها سواء داخل الكنائس المسيحية أو خارجها . لكنها بالنسبة الى أولئك الذين تلقوا مثل هذا التعليم مالت على أى حال الى أن تكون طقوســـية أحيانا على نحـــو يضاهي ، ماهو معروف ومألوف في البلاد الاوروبية نفسها . فلقدكان ارتياد الكنائس أحيانا « رياضة » لا على التقـــوى والورع في العبادة ، بل على المناسبات الاجتماعية ، وان كانت هناك دائما أعـداد كبيرة بالطبع من المسيحيين الملتزمين والورعين كل الورع ٠

وتقوم الاخلاق المسيحية من الناحية العقائدية المثالية على الاناجيل قبل كل شيء ، وعلى ماتضمنته من قواعد أخلاقية ولا سيما في التعاليم التي وجهها المسيح الى الحواريين فوق الجبل ، واذا قدر لانسان أن يتأثر تأثرا كافيا بما في رسالات الرسل من شروح وتفاسير اضافية للاناجيل ، فان في وسعه ان يقبل بها أيضا . ويقبل المرء أيضا وبالاضافة الى ذلك ، الاوضاع الخلقية التي ترمز اليها الاناجيل نفسها عن طريق الكناية . ففي المجتمعات التي دخلتها المسيحية تقوم هناك هيولات لا فراغات اخلاقية . ولكن من الواضح أن هناك قضايا لا تتناولها الاناجيل بالايضاح الكافي ، ولا تقدم فيها توجيها واضحا كل الايضاح . لكن بعض هذه القضايا قد قررت على ضوء السنن الاخلاقية الاضافية التي أوحت الاديان بها . ولعل هذه السنن نفسها هي التي تجعل المسيحيين في البلاد اللامستقلة مثلا متسامحين تسامحا واضحا في موضوع تعدد الزوجات . ولا يمكن لاي نظام اخلاقي في أي وقت من الاوقات ، أن يكون نظاما متزمتا مغلقا حتى وان قام على أسس عقلانية . فهي تترك عند بعض الحدود مجالات معينة للاختيار وللقرارات المفتوحة . مما يؤدي الى ظهور صفات تنعدم منها المميزات الخاصة .

ولنعد الآن الى موضوع تعدد الزوجات فالاناجيل ليست واضحة كل الوضوح في هذا الصدد ، وعلى الرغم من أن بعض الناس قد يذكرون أن الله لو كان يرغب حقا في تعدد الزوجات لكان قد هيأ لآدم أكثر من حواء واحدة . الا أن المنطق المشروع في هذا القول . لا يمكن أن يلمس لمسا قويا . ولقد ذكر بعضهم أيضا أن المسيح قد أوضح بأن الزواج ، هو اتحاد يصبح فيه الرجل والمرأة جسدا واحدا . وعلى الرغم من أن المرء قد يصدق بأن رجلا واحدا يمكن أن يصبح في وقت واحد جسدا واحدا مع أكثر من امرأة واحدة ، الا أن النساء أنفسهن لا يمكن ان يصبحن جسدا واحدا ، ولكن هذا المنطق يفتقر أيضا الى الاشراق والبهاء . ويذكر المرء أن الزواج بواحدة ، وصية من الناحية التاريخية من وصايا المجمع المقدس في ترنت الذي عقد برياسة البابا ليو الثالث عشر ولكن دفاع اسود الكثلكة وأساطينها من أمثال القديس توما ، والاسكندر اوف هيلز ، والقديس بونا فينتوري ، ودونس سكوتس عن فردية الزواج وجد دحضا عنيفا من رجال من أمثال دوراندوس من أهل بوركين وتوستاتوس وكاجيتان . ولم يشر لوثر نفسه أو ميلانكتون الى أي التزام بالزواج بواحدة ومن المحتمل والحالة هذه أن يكون الزواج بواحدة من السنن الاخلاقية التي أضيفت الى الديانة .

لكن اجراءات الدين هي ليست كل شيء بالطبع في الحياة ومن الضروري ألا يسمح للدين بأن يخلق الاضطرابات في مجالات الحياة

القريبة منه أو التى تكمله ٥ ولا سيما من صور الحياة التى تمت الى الاقتصاد السياسى ومن حسن حظ افريقيا ، ان الخلافات الدينية ، لم تتخذ فيها اليوم طابع القوى الهدامة . لكن فى وسع المرء ان يتذكر أنه فى حقل المنافســـات الدينية فى القـــارة ظهر الكثير من الحوار والمناقشات بين دعاة الاسلام ودعاة المسيحية . وان بعض الاحكام قد تكون مفتقرة الى المعنى فى افريقيا ومن المعروف أن الدوافع واقوى التى تقرر الاصلاحات الدينية لا تنبع دائما من طبيعة الله ، وتعتمد الديانة الحديثة الظهور فى الميدان فى عمق نجاحها ، على المدى الذى تستطيع فيه أن تقهر العناصر القائمة فى المجتمع الذى دخلت اليه أو تكيفها لتعاليمها . ويبدو أن الاسلام كان أكثر نجاحا فى هـذه الناحية فى افريقيا من المسيحية .

وقد حملت عهود ضياع الاســتقلال الى افريقيـا بالطبع فوائد التعليم انتظامى كما حملت غناء للحياة الدينية والخلقية وتقدما فى الفن والموسيقى والادب واللباس والطعام . وجهزت هذه العهود افريقيا ايضا بأساليب الحكم التى لاغنى عنها فى ادارة الدول المعاصرة بشكل مؤثر فعال .

وقد تم فى القـرن العشرين تنظيم مطالبة افريقيـا بالاستقلال السياسى ولكن هذا لا يعنى ان القرن التاسع عشر قد خلا من الصراعات ذات الطابع السياسى التى تركزت على اغتصـــاب الارض وكان الأثر العنيف الذى خلفته أوروبا على افريقيا قد بدأ فى الظهور ولا ريب فى أنه بدأ فى صور تجمع بين الاشراق والكآبة ولقد كان من الاســـاليب التعبوية التكتيكية فى القرن العشرين وبعد الاتجاه الذى اتخذته حركات المقاومة المطالبة بالاستقلال . التـأكيد على النواحى القـــائمة من الاستعمار (١) ولا ريب فى انها كانت خطيرة الاثر على افريقيا . وكانت نهاية الحرب العالمية الثانية نقطة تاريخية هامة فى مستقبل افريقيـا السياسى . ومن واجب المرء أن يعترف دون أى تحفظ بأن عـددا من الافريقيين الذين قصدوا أوروبا وأمريكا طلبا للعلم ، قد تحولوا الى قادة وطنيين بارزين . فلقد تميز هؤلاء وبينوا لشعوبهم ، بعد أن رأوا فى أوروبا ماهناك من تناقض صريح بين ماصدر فى أوروبا من بيانات عن

---

(١) أنا أختلف مع المؤلف تمام الاختـلاف . فليست هناك للاستعمار اية نواح مشرقة ، وانما كله ظلام ، وقتام ، وكآبة . ولا أدرى ما الذى يدفعه أحيانا الى محاولة اظهار أن للاستعمار حسنات وصورا مشرقة . أما الاصلاحات التى يقوم بها الاستعمار فى البلاد التى يسيطر عليها فهى لزيادة فرص استغلاله لتلك البلاد ، تماما كالرجـل الذى يطعم « الخروف » جيدا ليسمنه ليجنى منه أحسن اللحم واكثره .

ــ المعرب ــ

الحرية والديموقراطية من ناحية ، وبين واقع الاستعمار من الناحية الاخرى . وكان تبينهم لهذه الحقائق مدعاة لاستفزازهم . وراح الافريقيون يعلنون انهم يؤثرون حياة الاستقلال الذاتى مع المتاعب والاخطار ، على حياة العبودية مع الراحة والاستقرار ، وادركت بريطانيا قبل غيرها ، حقيقة الصورة ، فسارعت الى اعداد ترتيباتها لمنح الشعوب الافريقية استقلالها يساعدها فى ذلك ماقام فى افريقيا من حركات سياسية وطنية وظهرت للافريقيين الآمال الجديدة فى ان يروا الاخلاص المثالى والجدية فى التعابير السياسية .

وعندما أصبح ساحل الذهب فى عام ١٩٥٦ بقيادة حزب مؤتمر الشعب على ابواب الاستقلال ، أخذ زعماء فرنسا السياسيون يوجهون الاتهامات الى بريطانيا والاتحاد السوفييتى بانهما يحاولان عن طريق اثارة مشاعر الغيرة عند أهل المستعمرات الفرنسية تحطيم الامبراطورية الفرنسية وهدمها ، وقد تخلصت بريطانيا وفرنسا اليوم ، وكانتا أكثر الدول الاوربية التزامات استعمارية فى القارة الافريقية ، من معظم هذه الالتزامات ولكن هذه الاجراءات ، لم تمض فى طريقها دون أن تصحبها مناقشات تعتبر اليوم من أكثر المناقشات انهاكا وتعذيبا — وهناك عناصر معنية لها علاقاتها بمنح الاستقلال ظلت بعيدة عن أجواء الجدل والنقاش فى الميدان العام .

فليس فى وسعنا على سبيل المثال أن نتجاهل الحقيقة الروسية ولكن علينا أن ننظر اليها نظرة صحيحة فعلى الرغم من أن روسيا قد شجعت الاتجاه نحو الحركات السياسية ، الا انها ماكانت فى اى يوم ماضيا أو حاضرا لتمضى الى الحرب من أجلها . ولا ريب فى أن مثل هذا المضى حمق وجنون الا اذا كانت روسيا على ثقة من كسبها لهذه الحرب عن طريق الاقتصاد . ولم تكن روسيا قبل حقبة من الزمن واثقة من الكسب اطلاقا وهى اليوم ليست على ثقة من كسبها عن طريق الاقتصاد . ومهما كانت رغبة روسيا قوية فى تأمين التحرر السياسى للبلاد الافريقية ، الا انه ليس ثمة فى الاوضاع من الحراجة ما يكفى لاثارة اهتمام روسيا الى الحد الذى يدفعها الى النزول الى المعركة ويظهر من كل هذا ان تاثير روسيا على القضية الاستعمارية ليس من النوع الذى يهدد أوروبا تهديدا مباشرا .

وكان الغرب يشك فى أن النظام السياسى فى الاتحاد السوفييتى وما ينطوى عليه من تنظيمات اجتماعية يستهوى الى حد ما الشعوب الخاضعة للاستعمار والمتطلعة الى الحرية ، والى تحرير نفسها من التبعية الاجنبية وكان الغرب يخشى نشوب اضطرابات عنيفة على نطاق واسع وأدرك انه ما لم يوفر الحد الادنى من عوامل التهدئة والترضية

فى المناطق المستعمرة فان بقاءه فى هذه المناطق لا يحقق له الكثير من المصالح التى يتوخاها ، وأدرك الغرب أيضا أن منحه الاستقلال لهذه البلاد يؤمن له هدفين أساسيين أولهما الحفاظ على مصالحه الاقتصادية لاسيما وان الاستقلال الاقتصادى لايتحقق بنفس السرعة التى يتحقق فيها الاستقلال السياسى ، ولا ريب فى أن مصالح الغرب الاقتصادية يمكن الحفاظ عليها عن طريق منح الاستقلال بصورة اقوى منهـا عن طريق فرض التبعية السياسية . أما الهدف الثانى فهو أن الغرب طمع فى أن يستخدم منحه للاستقلال السياسى ، حجة قوية يتذرع بها فى الحوار القائم مع الشرق ، للبرهنة على أن الغرب وعقائديته خير من الشرق ومذهبه . وطمع الغرب أيضا فى استعمال هذه الوسيلة لاقناع المناطق التى قد تذعن لغواية الروس بأن الراسمالية يمكن أن تكون كريمة أيضا لكن الشعوب الخاضعة ، كانت ترى على الرغم من اهتمامها الشديد بالاستقلال السياسى كفاية ، فى هذا الاستقلال شرطا لازما للاستقلال الاقتصادى وغيره من الانتصارات ومن هنا كان لابد لكرم الغرب وجوده ان يظهرا فى الميدان الاقتصادى وغيره من الميادين .

ولنضرب مثلا آخر ، أعتقد انه خاص بفرنسا ، فلقد اعتقدت أن بامكانها عن طريق التسليم بامبراطوريتها أن تظهر للعالم عظمتها وضخامة اثرها . ومن المحتمل أن تكون فرنسا مثلا ، قد أرادت أن تظهر فى الامم المتحدة ان هناك مبررات لعضويتها الدائمة ، فى مجلس الامن ، عن طريق ما تملكه من نفوذ فى الجمعية العامة . وليس ثمة من شك فى أن هذه الغاية هى التى كانت تسيطر على فرنسا عندما جزأت امبراطوريتها عن طريق « الاطار القانونى » فمنحت مستعمراتها استقلالها . ولكنها فوجئت بتحدى غينيا لها ، وكانت هذه المفاجأة ضربة عنيفة لامجادها ولعظمتها لا لان غينيا طالبت باستقلالها الفورى فقد كان هذا فى متناول يدها فى كل حين بعد الاستفتاء بل لانها تحدت هذا الاحساس بالعظمة الذى سيطر على فرنسا .

وكان هناك أيضا ، مساس باحساس الملكية ، ومشاعرها . ففى المناطق التى لعب فيها عامل الاستيطان الاوروبى دوره ، اخذت الدول الاوروبية تثبت اقدامها بصورة ملحوظة .

وكان الاعتقاد السائد قبل الحرب الكونية الاولى ، أن الشعوب ستقبل فى كل مكان فى العالم على نظام الديموقراطية الليبرالية ، اذ كان المظنون ان هذا النظام هو الطراز الطبيعى للحكم ، ولما كان هذا الطراز طبيعيا ، فان حتميته لا شك فيهـا ولا جدال . وكان الكثيرون يرون القضية مسألة وقت ، ليس الا . فهناك قانون للتطور السياسى ، يدفع الشعوب جميعها دفعا نحو « الديموقراطية الليبرالية » حتى ولو ظلت، كاملة راضية بالعمل بطرق غامضة خفية اذ ان معجزاتها ستتحقق .

ولقد كان هنالك رأسمالي امريكي في مطلع هذا القرن حاول مع بعض رفاقه أفهامنا بأن الاله الخير ، بواسع رحمته ، وعظيم حكمته ، قد عهد بسعادة الناس اليه والى رفاقه من الرأسماليين الطيبين . وعلى نفس الغرار ، إذا تقاعست بعض الشعوب عن تطبيق هـــذه الآراء الليبرالية الديموقراطية فان من واجب الدول الاوروبية ان تقودها في هـــذا الطريق قيادة قد تكون بطيئة ولكنهـــا ثابتة الخطا نحو هذا الوضع السعيد . وفي وســع الدولة الغــربية أن تقبض على ناحية السلطان عند هذه الشعوب الخاضعة وصاية عنها الى أن تصبح في وضع يمكنها من اعتناق نظام كنظام البرلمان البريطاني كشيء خاص بها .

وقد فقدت هذه القصة في الايام الاخيرة الكثير من اشراقها المتفائل بالرفاه . فلقد اخذت مقالات صحيفة « التايمز » الافتتاحية باسلوبها الذي لا يضـــاهي تندب انهزام الديموقراطية في بلاد افريقيا وآسيا . وأخذت تتصور وجود أجناس بشرية ممتازة . فهي تقول احيانا انه يبدو ان الاجناس البشرية في اسيا وافريقيا لم تخلق على ســـبيل الاحتمال » للعيش في طرائق ديموقراطية للحياة . واستنتجت من كل ابحاثها ان الديموقراطية الليبرالية انما وجدت خصيصا لشعوب أوروبا الغربية ولبلاد القارة الامريكية الشمالية بوجه خاص ومن هنا انبثق ايمان صحيفة « التايمز » المحترمة بان بلاد افريقيا وآسيا لا تستطيع ان تقيم مطالبها في الاستقلال السياسي على انه رغبة أو طاقة على شد ازر الديموقراطية ونشرها ومن هنا يجب ان لا تطبق الديموقراطية على هذه البلاد الا بالقدر الضئيل الذي تسمح به أنظمتها الفاسدة وأميتها المنتشرة وعجزها الكلي عن التفكير تفـــكيرا صحيحا ومنسجما ، ومنطقيا لا عاطفيا . وليس ثمة من شك في أن هذه الاستنتاجات كانت قاسية وشاقة .

ولا يستطيع الانسان بالطبع ان ينسى تمام النسيان النكسات التي منيت بها الديموقراطية الليبرالية في أوربا ، حيث كان الاعتقاد سائدا بأن الثورة في طريقها كانت كاملة . فلقد حدثت مثلا تلك القضية الصغيرة المسماة بالثورة الروسية حيث يستطيع المرء ان يرى حكومة اطيح بها » بوسائل لا ينص عليها مذهب الديموقراطية الليبرالية فالاشرار من الناس وحدهم الذين يلجأون الى الاطاحة بحكومة بلادهم في عرف الليبرالية الديموقراطية باسلوب غير اسلوب صناديق الاقتراع (١) اما

---

(١) هذا هو الفرق بين النظامين الليبرالي والثوري — فالثورة في حد ذاتها هي انتفاضة على المذهب الليبرالي ، الذي مكن أصحاب النفوذ الحقيقيين في المجال الاقتصادي والاجتماعي من السيطرة على السلطان السياسي ، فغدا هـذا السلطان آلة مسخرة في ايديهم ، او حتى عاجزا من الخروج على ارادتهم حتى لو اراد هو هذا الخروج .
— المعرب —

اذا لم تكن هناك صناديق للاقتراع فهذا مجرد سوء طالع ليس الا على أى حال لم يكن هناك احد يفكر تفكيرا جديا بان روسيا بلد اوربى ، فصحيح أن القياصرة يتحدثون بالفرنسية ، والفرنسية هى لغة أوروبا بالطبع الا انه بالنسبة انى الاخرين فان الشك فى انهم من الاسيويين عميق ومتأصل .

وعندما زحف موسولينى على رومة بعد ثلاث سنوات من الحرب فجع اصحاب العقول الضعيفة الرقيقة وحدهم حقا بحركة التطور التى عقبت هذه الطرق المنحرفة .

ولم يتجنب الفرنسيون مؤخرا جدا كل التجنب اساليب العمل السياسى التى لا تقيم وزنا للحكم البرلمانى ، وقد اظهروا افتقارا كبيرا للاخلاص الى صناديق الاقتراع .

ولو حصر الانسان نفسه فى موضوع الديموقراطية الليبرالية فان فى وسعه ان يوجه سؤالين منفصلين اولهما يتعلق بدوافع هذه الديموقراطية والقوى المحركة لها وثانيهما يتعلق بالوسائل التى يمكن استخدامها للحفاظ على هذه الدوافع وضمانها .

ولقد كان الدافع الرئيسى لها من الناحية التاريخية الاعتقاد بأن الحكم الشعبى يجب أن ينسجم مع الحكم الطيب الخير . فالحكم الشعبى الصحيح تعبير على الاقل عن ارادة الشعب ، وكل نقد يوجه اليه ه هو من قبيل النقد الذاتى . وانسياقا مع هذا الراى يسمع المرء من يقولون ان الشعب ينال الحكم الذى يستحق ، لكن النقد الذاتى يعنى على أى حال الرغبة فى عمل الافضل ، وهو لهذا ينشد الفرصة التى تحقق هذه الغاية . ومن هنا تنبثق الضرورة فى ان تعود الحكومة المنتخبة انتخابا حرا الى جماهير المقترعين بصورة منظمة وبين آونة واخرى لاتاحة المجال امام كل انسان لتقويم اخطائها اذا اقتضى الامر وتكون وسائل الاثارة الوحيدة التى تسمح بها فى ظل الديموقراطية الليبرالية هى تلك التى يمكن وصفها بانها وسائل سلمية كارسال الرسائل الى المثلين المحليين أو الى الصحف أو السير فى مظاهرات احتجاجية سلمية • وقد يكون الصيام اللا محدود احتجاجا ، حالة متطرفة تنطوى على التهديد بشىء من التشهير اما حمل السلاح والاحراق العمد والتخريب المقصود فكلها اساليب تحظرها الديموقراطية الليبرالية .

وقد يتساءل المرء عن اساليب الاثارة المتاحة الى الشعوب الخاضعة المستعمرة التى لا تمثيل لها فى حكوماتها كما هى الحال فى المستعمرات الاسبانية والبرتغالية فى افريقيا والجزائر (قبل الاستقلال

طبعا !!) وجنوب افريقيا ، أو حيث لا يكون التمثيل كافيا كما هى الحالة فى اتحاد افريقيا الوسطى وكينيا .

ولقد قال من يعارضون فى منح الاستقلال للشعوب التابعة الآن، ان الحرية والديموقراطية الليبراليتين ، كمثلين من الامثلة العليا ، قد ظهرتا فى الغرب أول ماظهرتا . ويبدو ان المقصود من هذا القول ،ان هنـــاك أنظمة واجراءات معنية تؤمن الحرية ، وتمكن من تحقيـــق الديموقراطية فى المجتمعات الضخمة التى تضم الملايين العديدة وان هذه الانظمة والاجراءات قد ابتكرت عند الشعوب ذات الاصل الاوربى. واذا كان الانسان يضع التأكيد على حجم الشعب فان هذه الملاحظة لا تلقى أى وزن على الادعاء المتعلق باصول الحرية والديموقراطية . اما اذا وضع المرء التأكيد على الانظمة والاجراءات المعنية التى يعتقد بانها تؤمن الحرية ، وتمكن من تحقيق الديموقراطية فان هذه الملاحظة لا تلقى اى وزن على الاطلاق على هذا الادعاء الذى يمكن للمرء ان يشير الى مافيه من زيف واضح ، فليس ثمة من نظام أو مجموعة من الانظمة يمكن ان يقرن أو تقرن بالاهداف الديموقراطية ، وليس ثمة من نظام يصح ان يقال فيه دون الاشارة الى الاوضاع المحلية بانه فريد فى تحقيق الاهداف الديموقراطية ، وقد ارتبطت الفكرة القائلة بان هنـــاك انظمة ترتبط ارتباطا فريدا من نوعه بالغايات الديموقراطية عند الافريقيين بتوكيدين اساسيين اثنين فيقال أولا أن « الوطنية » من حيث انها نشـــدان للحرية والديموقراطية هى من الامور التى ادخلتها أوروبا الى افريقيا ، ويقال ثانيا ، ان ليس ثمة ما يمكن لاوروبا ان تتعلمه من افريقيا ومن هنا تكون المطالبة كما يقال احيانا ، بالحكم الذاتى مطالبة بالحق فى احتذاء حذو الغرب وتقليده . وهكذا فعندما تناقش الحجج التى تستخدم لتأييد منح الحكم الذاتى أو معارضته فان الانسان يقيم فى الحقيقة مدى ما يمكن منحه من حقوق للمستعمرات لتقليد الغرب .

وقد ربطت قدرة شعب من الشعوب على حكم نفسه بنفسه باربعة أشياء مختلفة فلقد قيل ان هذه القدرة هى الطاقة ، على تأمين الامن والطمأنينة للتجارة والصناعة الحديثتين . وتختفى وراء هذا القول العقيدة الاقتصادية للانسان ومن المفروض هنا ان يكون المعنى بالتجارة والصناعة الحديثتين ، تجارة الغرب وصناعته . ولاريب فى ان هذا المعيار شاذ كل الشذوذ وغريب كل الغرابة اذا كان القصد منه قياس طاقة الشعب على حكم نفسه بنفسه ، على ضـــوء احتياجات الآخرين فالطاقة على توفير الطمأنينة للتجارة والصناعة بالقدر الذى تحتاجان اليه ، ليست باكبر مطلقـا من الطاقة على الحفاظ على قوى النظام والقانون ، بل لعلها فرع مساعد لها ومن هنا يبرز التناقض ، وتظهر

القاعدة وكأنها لا ترمى الى تحديد القدرة على حكم الذات بل الى تحديد روح الاستعمار وجوهره وتبدو القاعدة أيضا وكأنها تحسر انقلاب عن بلورة الاهتمام الاوروبى بالشئون الاقتصادية وهو الاهتمام الذى يسمح بمنح الاستقلال السياسى اذا لم تتضرر بهذا المنح المصـــالح الاقتصادية للدولة المستعمرة فى المناطق التى كانت خاضعة لها ٠

ولا يقل الحساب الثانى عن الحساب الاول خطأ وتضليلا اذ انه يعود بقدرة الشعوب المستعمرة على حكم نفسها بنفسها ، الى طاقتها على تأمين الأمن الشخصى والحكم الطيب ، على أساس المعـايير الاوروبية الغربية وتحتــاج كلمة أوروبا الغربية هنا الى شيء من التعريف الا ان فرص تأمين الامن الشخصى والحكم الطيب ليست متساوية فى أوروبا الغربية نفسها ٠ وتختلف حقوق المواطنين الاوروبيين الغربيين وكذلك الاجراءات الحكومية باختــلاف البلد الذى يقيم فيه الانسان فى أوروبا الغربية أو أمريكا ٠ وهناك مناطق مستعمرة فى افريقيا ، يتمتع فيهـا المواطنون بحقوق أوسع من تلك التى يتمتع بها المواطنون فى البرتغال نفسهـــا أو فى أسبانيا أو فى بعض الولايات فى أقصى جنوب الولايات المتحدة (١) ٠

ويقال ثالثا ان القدرة على الحكم الذاتى تتمثل فى الطاقة على خلق عدد من الحكام الوطنيين القادرين على احترام القانون الدولى ٠ وهناك بعض القوانين الدولية التى يفترض المرء ان جميع البلاد وحتى اتحاد جنوب افريقيا تحترمها ، أما الحساب الرابع وهو اكثرها انحرافا فهو القول بأن هذه القدرة ليست الا الطاقة على تطبيق الانظمة التى تضمن تنفيذ الديموقراطية والحرية .

ولعل من المأمون القـــول بالنسبة الى الأنظمة أن لكل نظام هدفا معينا وأسبابا تجعل منه قوة مؤثرة . فلقد استدعى وضـع الانظمة السياسية وتخطيطها دائما بعض التمرين على مفاهيم التفكير. فالانظمه السياسية وتخطيطها دائما بعض التمرين على مفاهيم التفكير ٠ فالأنظمة ويتم هذا التكيف وذاك التأقلم طبقا للاوضاع والموارد المحلية ٠ ولـمـا كانت الاوضاع والموارد المحليـة عرضة للتغير فان النظريات السياسية توصى باحداث تبدلات موازية فى الانظمة بطريقة لا تضعف معها الصلة بالمثل السياسة القائمة ، بل تبقى على حالها او تسير فى طريق الزيادة

---

(١) يعنى المؤلف هنا حكم سالازار في البرتغال وفرانكو في اسبانيا كما يعنى الانظمة التى تطبقها بعض الولايات في جنوب الولايات المتحدة مع العبيد والزنوج وهى الانظمـة التى تبعد كل البعد عن كل تفكير ديموقراطى أو قواعد انسانية .

ـ المعرب ـ

وتعمل الضرورة فى اقامة الانظمة السياسية على اساس الموارد المحلية، عملها ايضا فى البلاد المستعمرة ومن الواجب ان تأخذ الانظمة فيها بعين الاعتبار الاوضاع المحلية لتكون مجدية وفعالة ، ولتستطيع الحفاظ على كرامتها وتختلف الظروف التاريخية لافريقيا عن ظروف اوربا تمام الاختلاف . وقد يتطلب تنفيذ المثل السامية والاهداف عن طريق المنظمات والحالة هذه مهارات تختلف من بعض النواحى عن تلك التى يتمتع بها الاوربيون والامريكيون اليوم فى اوساطهم ولعل فى وسع افريقيا وآسيا ان تحملا اوربا على ادراك هذه الحقيقة . ولعل فى الامكان ابتكار أنظمة مغايرة تستطيع أن تشتمل على نفس المثل فى ظروف مختلفة كل الاختلاف • وتختلف أنظمة الغرب نفسها باختلاف البلاد التى تقوم فيها وهذا امر لاريب فيه بالنسبة الى الاوضاع المختلفة السائدة •

واذا ماسأل سائل عن الانظمة والاجراءات التى تنفرد فى تأمينها الحرية وفى تمكينها من الديموقراطية يجد الانسان انها تضم فى العادة بعض التشاريع اللامتحيزة والخدمة المدنية ذات الكفاية والحكومة الدستورية ، والاحزاب الحسنة التنظيم ، والجماعات من أصحاب النفوذ والصحافة الحرة . وعلى الرغم من ان هذه الانظمة لاتحدد الديموقراطية أو تعرضها الا ان من الصعوبة بمكان عظيم اجتنابها تماما • وسواء أكان المجتمع قائما على نظام الحقوق الفردية أو على نظام الجماعية ، وسواء أكان قائما على نظام الحقوق الفردية او على نظام من الواجبات ، فان الديمقراطية تكون عسيرة على هذا النظام الا اذا صاحبتها تشريعات قضائية بعيدة عن التحيز وقد يكون من انعسير على هذه المجتمعات الخالية من وجود الدولة أن تتوقع الكمال فى اللاتحيز • والديموقراطية أمر عقلانى لأنها ترفض الالزام من ناحية كما ترفض الاغراء بالعطاء من الناحية الاخرى . واللاتحيز عقلانى ايضا . فهو يعنى المساواة الجوهرية ومهمة جهاز الخدمة المدنية ذى الكفاية أن يكون وسيلة فى التقليل من الالزام ومن الاغراء بالعطاء . ولكن عندما يتحول الجهاز الى بيروقراطية فان خوفه من التحول الى الاستبداديغدو خوفا عصبيا محموما ، وهو خوف أوتوقراطى النزعة فى حقيقته . والحكم الدستورى أداة مماثلة ولا يمكن اعتبار الاحزاب الحسنة التنظيم أمرا اساسيا بالنسبة الى الديموقراطية . واذا كان لابد من وجود مجموعة من الاحزاب فان حزبا قويا للمعارضة يغدو أمرا جوهريا ايضا . وعندما تكون ثمة مصالح قوية التضارب ، تمثل فئات مختلفة من السكان ، فان تنظيم الاحزاب يغدو وسيلة معقولة كل العقل ، لاضعاف عنصرى الاستبداد والاغراء بالعطاء . ولكن الاهمية الوحيدة لهذا الوضع تتمثل فقط عند ما يكون هناك حزب قوى او مجموعة احزاب

متحدة فى المعارضة تستطيع أن تؤلف خطرا حقيقيا على الحزب الحاكم أمام جماهير الناخبين . ولا تكون المصالح القوية والمنظمة لاقلية متطرفة مبررا لخلق حزب ينشد التحكم فى الامة كلها . ولعل من المعقول كل العقل أن تتفق أية بلاد ذات عدد صغير من السكان كل الاتفاق على القضايا القومية الكبرى ولعل ارغام الشعب على تأليف عدد من الاحزاب لا يقل استبدادا عن ارغامه على تأليف حزب واحد ليس الا . وقد لا تعنى المعارضة المنظمة بحكم انشرطية المفروضة وجود شعب ذى مصالح متناقضة . ولا ريب فى أن الاحزاب البديلة تزداد قوة عندما تكون منبثقة بصورة طبيعية . ولقد استدعى الحاكم العام فى تنجانيقا قبل بضع سنوات جوليوس نايرى (١) وقال له .. اسمع يا نايرى انك تقول انك تنشد الاستقلال . ولكن أين هى المعارضة لك؟ ليس فى وسعك أن تفوز بالاستقلال . بدون أن تكون هناك معارضة لك . ورد عليه نايرى ردا مفحما بقوله : « ولكننى لا أستطيع ياصاحب السعادة أن انظم معارضة لى » .

ومن الواضح كل الوضوح . ان ظهور مجموعة من الاحزاب فى أى بلد من البلاد لا يعنى وجوب منح الاستقلال لهذا البلد . ولهذا فالأفضل للجميع أن تتوحد الجهود فى جبهة واحدة » أو حركة للفوز بالاستقلال . وعندما يطالب حزب للاغلبية ملحقا ، بالاستقلال لا يبقى هناك مجال أمام حزب الاقلية الا أن ينسحب من الميدان ، وأن ينسجم مع حزب الاغلبية فى المجهود الوطنى وقد يكون حزب الاغلبية بالطبع اقل نضالية من حزب الاقلية . ولكن هذا يتوقف قبل كل شىء على تعاون الدولة الاوروبية . والاقتراع على أسس حزبية — حيث لا توجد خلافات جوهرية فلسفية أو دينية أو عقائدية — ادى قبل الحصول على الاستقلال الى تجزئة افريقيا . فى صور متناخرة وغير جدية ، كما أدى الى انهيار تأثير الضمير العام على القضايا الانتخابية . وعندهما لا تكون الفروق السياسية مستندة الى البرامج وانما مرتكزة على الاولويات أو حتى على الشخصيات بينما فى البلاد التى لا كثافة للسكان فيها والتى تكون نسبة التعليم فيها منخفضة جدا . لا يتوافر عدد كبير من الأكفاء ولا يكون فى امكان أى حزب سياسى احتكارهم كما هم ، ليعالجوا القوى الانقسامية اذ تفقد القوات السحرية كل تأثير لها .

وقد يكون الحزب فى بعض الاحيان التعبير السياسى عن أية طبقة

---

(١) جوليوس نايرى . زعيم تنجانيقا الوطنى ، وأول رئيس لجمهوريتها بعد استقلالها الكامل .

او مجموعة من الطبقات ، وهناك اذا لم تتعرض البـــلاد الى أية أزمة سياسية فان الحزب الطبقى الحاكم يشرع فورا وبهــدوء فى تثبيت اقدامه وتوطيد مصالحه . وقد يجد هذا الحزب فى اوبقات الازمات القومية ، الوقت الكافى لعمل أى شىء فى ســـبيل تثبيت اقدام طبقته ومصالحها . وفى افريقيا التى تعيش على تقاليدها ، لا يعنى التصنيف الطبقى ، تنوعا فى المصالح السياسية ، أو مصالح محصـــنة بالعمل السياسى . وهى لا تعنى أيضـــا وجود تعارض بين هذه المصالح . وعند ما تكون الاهداف سياسية فانها تكون جماعية فى مصلحتها ومن هنا تكون الاساليب جمــاعية القبول والاعتمـــاد ، حتى وان لم تكن جماعية الصورة مباشرة . ولعل هذا هو السبب الذى أدى الى ظهور بعض الوطنيين الافريقيين الذين استهجنوا نشوء الاحزاب السياسية كشىء مستقل عن الحركات الوطنية نفسها وفى الامكان اكتشاف مثل هذا الاحساس فى الجهود المتواصـــلة التى تبـــذلها بعض الاحزاب السياسية الناجحة للتوسع والانتشار على معـــايير الحركات الوطنية العامة .

ولا تؤلف مشـــاكل افريقيـــا الراهنـــة حوافز كبيرة للدوافع الانقسامية الغربية فهى تتعلق بوحدة افريقيا وتقدمها ، ولا ريب فى ان وحدة افريقيـــا أكثر أهمية لهـــذه الناحية من الناحيتين القـــارية الشاملة والمحلية ، من سيادة أية منطقة من المناطق ، ولا يمكن فى الوقت الذى تحمى به بقية انحاء العالم ، بأن مصـالحها مهددة وتتصرف وكأنها قد ابتلعت السم ، أن يشـــاء القدر الرءوم أن تظل افريقيا فى منجاة من الانزعاج من هذه المشاكل . وقد حاول الآخرون ايجاد بعض الحلول او على الاقل تخفيف حدة مشاكلهم عن طريق التجمع فى وحدات اكبر لأهداف تشكل النواحى العسكرية والاقتصادية والسياسية . تـرى هل تستطيع افريقيا فى أوضاعها التى لا مثيل لها اكتشـــاف طريقة جديدة ؟ وفى وسع افريقيا أن تعد نعم الله عليها . ولا ريب فى أن ايجاد عبقرى يحل لها مشاكلها عن طريق التجزئة ليس من هذه النعم مطلقا

وحيثما يكون حزب واحد ، لا يكون من الضرورى أن يكون هناك فى الداخل انسجام فى المصالح او ربط بينها عن طريق التمفصــــل ولا ريب فى أن التوفيق الذى تخلفه المصالح القطاعية المفصلة داخل الحزب الواحد يكون أكثر أهميـــة بالنســـبة الى ديموقراطية الامة وسلامتها ، من أى أثر قد تتركه المعارضة الضـــعيفة . وقد يخلف وجود معارضة ضعيفة تتميز بكثرة الضجيج والعجيج قبل الحصول على الاستقلال ، عدم التسامح والغلظة عند جميع الفرقاء . ولكى تكون المعارضة معقولة على هذا الصعيد وضمن هذا الاطار يتطلب الامر منها أن تكون قوية وذات حظ فى الكسب والفوز .

وليس ثمة من شك فى أن الميل فى افريقيا اليوم متجه الى قيام الدول ذات الحزب الواحد . ولقد أعلنت أحزاب المعارضة فى بعض المناطق احزابا غير مشروعة ، اما فى المناطق الاخرى فان وجود احزاب الاغلبية ذات القوة الطاغية انضخمة يجعل من احزاب المعارضة أن وجدت أحزابا لا وجود لها فى الواقع . وقد حقق التقسيم الاقليمى لافريقيا الفرنسية وهو التقسيم الذى نفذه الاطار القانونى شيئا من الاستقرار عن طريق تكتل الفروع فى أحزاب موحدة . ولعل غينيا هى أبرز مثل من هذه الامثلة الكاملة . ولقد توحدت الاحزاب بحرية فى مالى أيضا وبدون أى عنف اما الحكومات الائتلافية كما فى الفولتا العليا مثلا فى ظل اوفيزين كوليبا لى الموهوب . أو فى داهومى ، أو فى تشاد فى ظل بوغاندا الموهوب ، فقد كانت اضعف حالا من دول الحزب الواحد الصريحة والواضحة . وتسيطر الاغلبية سيطرة تكاد تكون كاملة فى ساحل العاج والسنغال . أما فى غانا وسيراليون ، فالاغلبية مسيطرة سيطرة فعلية كاملة . ويصدق هذا القول أيضا عن تنجانيقا التى نالت استقلالها مؤخرا وتطغى الاغلبيات الاقليمية طغيانا كاملا فى نيجيريا ، وهى تكاد تكون كاملة فى الاقليم الشمالى أما الكيان الاتحادى « الفيدرالى » فهو على الغالب العامل الخطير الوحيد الذى يحفظ توازن القوى ويصونه .

وهناك جماعات أصحاب النفوذ وهى لا تعمل جهارا وعلانية وانما من وراء الكواليس ، وهى بعيدة كل البعد عن الأنظمة الديموقراطية . وليست جماعة أصحاب النفوذ فى الحقيقة الا قلة تنشد الضغط ، وفرض قوتها على الاغلبية وتكون مصالح هذه الاقلية خاصة وعلى الرغم من أن هذه المصالح قد تحتل أحيانا المكانة الأولى فى تسلسل المصالح القومية ، الا أنها يجب أن تظهر بوضوح على أنها ذات المكانة الأولى فى هذا التسلسل . ومن الواجب أن تظل واضحة وان لا تكتنفها سحب من الشك والغموض . أما اذا اكتنفتها هذه السحب فانها تصبح فى موقف التعارض الكلى مع النظام الديموقراطى .

وكان موضوع الصحافة الحرة ، هو البند الاخير من البنود التى ذكرت بالنسبة الى منظمات الديموقراطية واجراءاتها . ويقال بالنسبة الى تطبيق هذه المادة على المواضيع المتعلقة بالاستقلال . ان غالبية البلاد التابعة فى افريقيا هى فى المناطق التى تسودها الأمية وفى الامكان وضع القواعد المتعلقة بهذا الموضوع على النحو التالى : ليس ثمة من جدوى للصحافة الحرة والحسنة الاطلاع بالنسبة الى الشعوب التى تغلب الامية عليها ، ولما كانت الصحافة الحرة والحسنة الاطلاع ضرورية للديموقراطية ، فان الشعب الجاهل الذى تسوده الامية ، لا يستطيع

أن يحقق الديموقراطية . وعلى الرغم من اهمية الوصول الى المعلومات الصحيحة وحرية النقاش للديموقراطية الا أن في الامكان تأمينهما بطرق أخرى غير طريق الصحافة الحرة والحسنة الاطلاع . فالاذاعة التى تعتمد على الاصوات والاشرطة السينمائية ، وحتى قرع الطبول من المنادين فى القرى وحتى نشر الشائعات ونقلها ، كلها وسائل تفضل الصحافة الحرة فى المجتمعات الجاهلة التى تسودها الامية فلهذه المجتمعات وسائلها الخاصة فى الاعلام وفى نشر الانباء . والصحافة الحرة والحسنة الاطلاع وسيلة تلائم بصورة خاصة الشعوب المتعلمة . ولو تطالع المرء بدقة الى الامور وتحرى عن صحافة العالم . فانه يدرك على الفور ، بأن الصحف لا تنشر فى الواقع الا القليل أو أقل من القليل اذا ما قسنا ذلك بالامكانات ، من المعلومات الصحيحة والدقيقة ولا تعمل الا القليل فى قيادة الرأى العام وتوجيهه نحو الخير وكذلك فى الدفاع عن الديموقراطية وتثبيت مواقفها وأقدامها . وتبدو صحيفة الديلى ميرور ، فى بريطانيا العظمى لا صحيفة «التايمز» أو « الديلى تلجراف» أو حتى صحيفة « الجارديان » المغمورة الى حد ما هى أقرب الصحف الى تحقيق هذه الغاية ومن المعروف أن « الديلى ميرور » لا تسلك سلوكا مهذبا ، فى موضوع التفكير تفكيرا صحيحا بالمبادىء التى تقد عرضا وهى تتحدث حديثا مباشرا وصريحا ، فى المواضع المتعلقة بمثل النوايا الديموقراطية دون أن تتأثر بالجماعات من ذوى النفوذ وهى جماعات جمة النشاط ذائبة الحركة ولعل أقرب صحيفة لها فى فرنسا هى صحيفة « لوموند » وتؤلف الصحافة الحرة فى البلاد التى تقل فيها نسبة المتعلمين خطرا معينا وهو خطر الاغراق فى الاهتمام بمصالح الفئات المتعلمة وهى فئات تميل ميلا طبيعيا الى الانضواء فى طبقة معينة حسب العرف الماركسى . ولا تحقق الصحافة الحرة عند الاقلية نظرية ارسطو وهى النظرية التى تقول بأن رجلا واحدا لا يمكن أن يلم بالحقيقة الكاملة من جميع اطرافها ، وان هذه الحقيقة هى ثمرة اسهام عدد من الرجال يمسكون بنواح وجوانب مختلفة منها .

ومن واجب المرء عند الحديث عن الشعب المتعلم أن يكون واضحا كل الوضوح فى التعابير والاصطلاحات . وهناك كثيرون يرون أن الجهل عند شعب تابع مستعبد يبدو معادلا للجهل فى بلد أوروبى باحدى اللهجات الاهلية الدارجة وهناك بالطبع عدد غير محدود من الاشخاص فى البلاد التابعة أو فى البلاد التى كانت تابعة حتى عهد قريب لا يعتبرون أميين بالنسبة الى لغاتهم وان كانوا أميين بالنسبة الى الفرنسية أو الاسبانية أو البرتغالية أو الانجليزية .

وقد دأب الناس على الحديث عن الشعوب التابعة . وكأنهاصفحات

ناصعة بيضاء ، لم يسبق لقـلم أن جرى عليها ، ولهـذا فهى على استعداد للتأثر بما تخلقه الدول الاوروبية عليها من آثار . وكثيراً ما قيل أيضا أن من الافضل أن تقطع عمليات «التغريب» و «الاستشراق» مراحل كبيرة وفى أقصر وقت ممكن ، حتى تتمكن الشعوب التابعة، من أن تجد ما يصلح لها ، قبل أن تترك وشأنها لابتكاراتها وكأنها شعوب مستقلة · وقد يكون «التغريب» فى بعض المناطق متصلا ، الى حد كبير ، بالاساليب والمهارات أكثر من اتصاله بملكوت القيم . وهو الملكوت الذى يستطيع المرء عن طريقه على أى حال تقييم قيم المهارات نفسها وتقديرها ، ومن الممكن أن يتصور المرء بلادا مستقلة لها وجهات نظرها الخاصة بها فى بعض الامور · وتقترض بعض المهارات المعينة من مجتمعات أخرى بطريقة تقف معها هذه المهارات المستعارة ، منسجمة مع الاطار الاكبر ، وبطريقة أيضا ، لم يعد فيها مكان للعثور على الخصائص المميزة لاى شعب من الشعوب ، وقد يقـال بالطبع أيضا أن عملية «التغريب» ليست مجرد عملية انتقاء أو اختيار . ومن المحتمل أن يكون هذا القول صادقا الى حدما . ولكن يجب أن لا يعنى هذا بحكم الضرورة أن درجة « التغريب » وآثارها المحتملة وتواؤمها مع كل ما هو أهلى أصيل فى البلاد المستغربة ، كلها أمور يجب أن تظهر بالعين المرئية ٥ أو أن عملية « التغريب » نفسها يمكن أن توجه وتراقب . وبالطبع يمكن أن تسير عملية التغريب على أساس تخطيط منظم وأن تكون خاضعة للارادة والقرار . وما يصح قوله عن التغريب يمكن أن يقال بالنسبة الى الاستشراق .

واسترخى البريطانيون والفرنسيون فى منح المناطق التى يقيم فيها المستوطنون الاوروبيون استقلالها بعض الاسترخاء . أما الاسبانيون والبرتغاليون فيبدو أنهم لم يفكروا حتى فى الموضوع كل التفـكير · وعلى المرء عندما يبحث فى موضوع اسـتقلال المناطق الافريقية التى يقيم فيهـا المستوطنون الاوروبيون ، أن يأخذ بعين اعتباره الحقيقـة المجردة وهى أن الديموقراطية لم توجد لخير الاقليات وحدها ، ولا ريب فى أن احاطتها بسياج من الاختراعات المبتكرة ، التى لا قصد لها الا ارضاء الاقليات يعتبر تخطيا لأسس الديموقراطية القائمة على التكافؤ ، ومساعدة للبعض على الكثرة واضفاء حقوق خاصة على الاقليات خارج نطاق الاطار العام للحقوق المشتركة يعتبر تجاوزا لمصالح الاقليات المشروعة وبالتالى مناقضة صريحة لأسس الديموقراطية · ولعل من أبرز خصائص الديموقراطية ، هو أن المزايا النفعية كلون البشرة ومسقط رأس الجدود قبـل نحو من قرن ، لا تحمل أى مبرر للتمييز أو التفضيل .

ويعتبر نظام التمييز فى الاقتراع ، وهو النظام الذى ابتـكره أحد عباقرة السـياسة ، هداما بدوره للديمقراطيـة .. وهداما أيضـا للروح

البشرية . فتحديد سن الناخب باحدى وعشرين سنة على الاقل: تحديد تقليدى متوارث ، يتطابق تمام المطابقة مع المسئوليات القانونية للراشدين . ولكن عندما يقوم تحديد الاقتراع على أسس ضمن سن الرشد . فان هذا التحديد يغدو جائرا وظالما ، فمن الصعب كل الصعوبة على المرء أن يتصور حالات فجائية من الوصول الى المسئولية والحكمة ، ضمن سن الرشاد وهى مسئولية وحكمة ، كان الافتقار اليهما فى سن الواحدة والعشرين يجعل الشخص غير أهل للاقتراع . ولقد اكتسب تعبير « الاقتراع العام للراشدين » مكانته الثابتة على أساس عبارة « الراشد » ولكن هل سمع انسان من قبل ، بشىء غريب كتعبير « الاقتراع العام لمن هم فى أوسط العمر » ؟ ويدرك كل انسان أن هذا الاصطلاح ليس الا واحد من الابتكارات التى وضعت لحماية امتيازات المستوطنين . وليس ثمة من شك فى أن جميع البلاد الافريقية ككينيا ونياسالاند وروديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية وانجولا وموزمبيق وأفريقيا الاسبانية والجزائر وجنوب أفريقيا ستستقل فى النهاية (استقلت الجزائر وبعض هذه البلاد والحمد لله) . وسيبقى المستوطنون فيها . وليس ثمة احتمال فى قيام أية هجرة جماعية للاوروبيين والآسيويين من أفريقيا . فلهؤلاء المستوطنين من المصالح الكبيرة والعميقة ما يجعل من المتعذر عليهم فصم هذا الرباط القوى الذى يشدهم الى أفريقيا . ولكن هذه الحقيقة تجعل من المتعذر على المرء أن يفهم التناقض الغريب الذى يدفع الدول الاستعمارية الى محاولة الحفاظ على هذه المراكز المتميزة التى تحتلها الاقلية المستوطنة بوسائل فيها الكثير من الجور والاكراه والتمييز ، اذ من المفروض أن هذه الاقليات تود أن تستمر فى العيش فى أفريقيا بأمن وسلام ، ولكن الضمانات الاضافية الخاصة ، لا تؤدى الا الى استثارة السخط والحنق . لكن المهارات ستظل موضع التجلة . وستبقى مرموقة فى أفريقيا . وحيازة هذه المهارات فى أى مكان فى العالم ، ضمان طبيعى لمستقبل أصحابها . أما الاقليات التى لا مهارات لها فتستطيع الحصول على الضمان فى الحقيقة الواقعة ، وهى أنها لا تملك شيئا تخاف عليه من الضياع .

ويقال أحيانا ان توسيع حق الاقتراع فى البلاد التى يفوق عدد الافريقيين فيها عدد المستوطنين الغرباء الى حد كبير ، يعنى حرمان هؤلاء المستوطنين من أفريقيا . ومن الاقوال الشائعة ايضا ، أن المستوطن لم يكتف بالعيش فى أفريقيا لعدة حقب وأجيال فحسب ، بل انه رفع من شأن أفريقيا وأوصلها مما كانت عليه كأرض قاحلة جرداء ، الى ما هى عليه الآن . ولكن اذا كان المستوطنون قد عاشوا فى أفريقيا حقبا وأجيالا ، فان الافريقيين عاشوا فيها قرونا لا عد لها ولا حصر . وعندما يتحدث الانسان عن بناء المستوطن لافريقيا ، ترى هل يأخذ فى حسابه ما للعمل

نفسه من قيمة ؟ وما دمنا فى موضع الحديث عن العمل ، فان فى وسعنا أن نقول ان حكومة جنوب افريقيا تحظر حق الاضراب على الافريقيين . وليس ثمة من شك فى أن الجهد الذى بذل والعرق الذى سال فى بناء أفريقيا ، لم يكن جهدا أو عرقا أوروبيا ، بل كان جهدا أفريقيا وعرقا أفريقيا . ونحن لا ننكر أن الاوروبيين قد أسهموا اسهاما كبيرا بمهاراتهم . لكن الحقيقة التى لا تنكر هى أن الافريقيين هم الذين بنوا أفريقيا فعلا ، وأن الافريقيين هم الذين سيواصلون بالطبع عملية بنائها .

ومن مبادىء القومية الافريقية وعقائدها ، أن الاستقلال السياسى شرط أساسى للثورة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والروحية . لكن أنصار فكرة اتحاد أفريقيا الوسطى ودعاتها ، يعارضون هذا الرأى تمام المعارضة بالطبع . ولكى أكون واضحا ، أود قبل كل شىء القول بأن فكرة « الاتحاد التعاونى » لا تعنى بحكم الالزام ، الشرور والمساوى فهناك اتحادات تعاونية معروفة « نشرت العظمة والرخاء والاستقرار على أعضائها واذا ما أقررنا بهذه الحقيقة الواقعة ، بات فى وسع الانسان أن يدرك ، أن الظلال تقوم دائما بين المفاهيم والوقائع ؛ ويقدم أنصار اتحاد افريقيا الوسطى الحجج التالية لدعم رأيهم ، وهى أن الاتحاد أولا ، سيأتى بالرخاء والازدهار الى الافريقيين وانه ثانيا سيحول بين روديسيا الجنوبية وبعين الاتجاه نحو اتحاد جنوب افريقيا ، وانه ثالثا سيحول بين المنطقة كلها وبين الاذعان للشيوعية ، ولم تكن روديسيا الجنوبية فى حالة يسر اقتصادى عندما ظهر الاتحاد الى حيز الوجود ، فلقد كانت فى حاجة الى المزيد من اليد العاملة الطيعة والرخيصة ولا ريب فى أن اكتظاظ سوق العمل ، بالايدى العاملة العاطلة من نياسالاند ، على الاخص كان فرصة عظيمة لا تفوت لروديسيا الجنوبية ولمنطقة انتاج النحاس فى روديسيا الشمالية أيضا . ولكن فرض « الاتحاد » دون موافقة الافريقيين وعلى الرغم من رغباتهم ، مع أن نسبتهم العددية بالنسبة الى الاوروبيين تبلغ (١٨٤) الى واحد ، لم يؤد ، كما يعرف كل انسان الى ادخال سبعة ملايين افريقى فى هذا المجتمع الذى يعيش فى فيض عميم . ولهذا فان المنافع الاقتصادية التى نجمت عن الاتحاد ، كانت لمصلحة المستوطنين الأوروبيين على الغالب . ولقد فشل الاتحاد فشلا ذريعا فى تحقيق أهدافه . ولعل المرء يذكر أن ادارة نياسالاند وروديسيا الشمالية كبلدين منفصلين قبل قيام الاتحاد ، لم تؤد الى اثقال عاتق الخزانة البريطانية بالاعباء وتحميلها أية خسائر . ولا ريب فى استحالة الادعاء بأن الاتحاد أزال أى عجز كان يظهر فى ميزانية هذين البلدين .

ولم تكن روديسيا الجنوبية فى يوم من الأيام بعيدة عن جنوب افريقيا ، ولا كانت سياسة الاضطهاد العنصرى دائما تنفذ فيها بشكل أعنف من تنفيذها

فى جنوب افريقيا . ولعل هذا يظهر فى أن ادارة مدرسة داخلية جعلت طالبة افريقية تعيش وحيدة فى قاعة كبرى من قاعات النوم لئلا تختلط بزميلاتها من بنات المستوطنين الأوروبيين ووصف الأوروبيون المستوطنون مجلس الشئون الأفريقية الذى ألفته الحكومة البريطانية والذى أسماه أحد وزرائها ، أوليفر ليتلتون بأنه قلعة حصينة لا يمكن الوصول اليهـا بالحمق والغفلة ، ويبـدو أن ويلينسكى(١) بما عـرف عنه من صراحة وصلافة قد تمكن من الغاء هذا المجلس . ولا يمكن لأى اتحاد أن يستند فى وجوده ، الى مجرد الحجج ، أو العواطف أو الولاء وقد فشل الاتحاد فى تنفيذ أى من وعوده ، ويثير فشله هذا التساؤل ، عما اذا كان الاتحاد فى أى يوم من الأيام مخلصا فى اغداقها أو راغبا فى تنفيذها . ولعل الخطر الأكبر الذى يواجه الأفريقيين هو أن تستقل هذه الأقطار الثلاثة التى يتألف منها الاتحاد قبل أن يكون الأفريقيون قد وصلوا الى مراكز الحكم والسلطان فى كل منها .

والاستعمار من الناحية الجوهرية الأساسية عدوان صريح . ومن واجب المرء فى متابعته حركته النضالية طلبا للاستقلال أن لا يخجل من الظهور بمظهر التطرف فلقد كان غاندى مثلا متطرفا فى موقفه الصلب والمنتصر على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى أن موقفه الصلب هذا ، كان بعيدا كل البعد عن العنف ، اذ أنه يقـوم على سياسة اللا عنف . ومن الواجب أن تستمر الحركة النضالية من أجل الاستقلال على سبيل الحكمة والتروى ، وان أمكن ذلك ، بأساليب اللا عنف ولكن هــذه الأساليب اللا عنفية يمكن أن تستمر وأن تمضى الى حدود التطرف ، وكثيرا ماتتطلب هذا التطرف لتكون فعالة ومؤثرة . وتتلخص فكرة الأوروبيين عن الانسان اليوم ، بأنه حيوان اقتصادى ، ولا ريب فى أن من واجب الوطنيين الأفريقيين أن يرجعوا الى هذا الاعتبار كثيرا فى جهودهم طلبا للاستقلال . وقد تكون أساليب اللا عنف التى تهدد المصالح الاقتصادية للمستوطنين أجدى وأقوى فى النضال الاستقلالى من بلاغة القول وحجج المنطق ، وقد يكون من الشاق فى بعض البلاد المستعمرة ، كالجزائر (كان هـذا قبل استقلالها) ، وجنوب افريقيا وانجولا وموزمبيق وافريقيا الأسبانية ، نشدان الاستقلال عن طريق وسائل اللا عنف هذه لأنها تتطلب ابتكارا لاسيما وأن الحكومات الاستعمارية البعيدة النظر قد اتخذت احتياطياتها المسبقة ، فحظرت القيام سلفا بأى عمل من أعمال اللاعنف . فالاضرابات

---

(١) السير روى ويلنسكى ، زعيم المستوطنين في روديسيا الجنوبية ورئيس حكومة الاتحاد وهو من أشهر أنصار الاضطهاد العنصرى . ومنفذى سياسة الاستعمار . ناصر حركة تشومبى الانفصالية في كاتانجا ومن أشد أنصار اسرائيل .

ـ المعرب ـ

مثلا فى الجزائر محظورة تماما • ومن حسن الحظ أن الاثارة الديموقراطية والسلمية مازالت ممكنة فى البلاد المستعمرة الأخرى ، وان كان سيرها بطيئا كل البطء وصعبا كل الصعوبة •

وليست القومية الافريقية حركة عنصرية • وان كانت قضايا العنصر تفرض نفسها فرضا عليها • وتتجه القومية الافريقية من ناحيتها الخارجية الى تدعيم الاستقلال بالنسبة الى البلاد التى حصلت عليه ، والى استعادته بالنسبة الى البلاد التى مازالت مستعمرة • فالنظام الذى تعتمد فيه ارادة شعب من الشعوب كل الاعتماد على ارادة شعب آخر يعتبر من الناحية الرئيسية الشعب الأول أو يعامله على أساس أنه عاجز أو لا يملك حقا فى تقرير شكل الحكم الذى يريد العيش فيه • وقد فشلت المحاولة فى تطبيق نظام التحليل الاقتصادى للانسان على القارة الافريقية • ولم تكن الطريقة التقليدية المألوفة فى افريقيا أن يحلل الانسان على أساس أنه حيوان اقتصادى ، فعندما يقال بأن الشعب الجائع لا يشغل فكره بقضايا الديموقراطية ، فان هذا القول المأثور لا ينسجم مع نشدان افريقية لاستقلالها ، وانما يحسر النقاب عن مذهب كلبى مرعب يقوم على الشك فى كل شىء • وليس صحيحا القول مطلقا بأن لكل انسان ثمنه الخاص به • ولم تعد نسمع بالرأى القائل بأن الاستعمار يقوم على أسس وحوافز انسانية محضة.وان كانت قصة تلك السيدة التى ذهبت الى المستعمرات فى الهند ، وأعلنت بكل صراحة ، ان الحياة بدون شعوب مستعمرة شىء لا يطاق ، ماثلة فى الآذان حتى الآن .

وخيل الى عدد من المتعلقين بحبال النظريات وأوهامها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، أن فى وسعهم توقع ظهور الانسان العاقل الصادق ، كظاهرة عالمية بحيث يتميز بالمعرفة ورقيق الاحاسيس والتحرر من كافة مشاعر الولاء الاقليمية الصبغة . وكان لابد لاعمال هذا الانسان أن ترتكز الى فكرة الاخوة العالمية لبنى الانسان دون تمييز أو فوارق • ويبدو أن الأمل فى ظهور هذا الطراز من الانسان فى الحياة السياسية قد خاب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وفى أوائل هذا القرن •أما أولئك الذين كرهوا هذا الطراز من الرجل العالى النزعة فقد رأوا فيه انسانا قاسيا جم الاعتماد على العقل ، مفرط الركون الى الادراك ، معزولا كل العزل عما فى الحياة من دفء وعواطف ، أما أنصار فكرة هذا الانسان فقد كانوا يرون فى بعث المشاعر القومية رجعية وراثية أو حتى وحشية بشرية •

ولم تختف فكرة الأخوة العالمية لبنى الانسان تمام الاختفاء ، فهى مازالت ماثلة فى الامم المتحدة ، وفى البنك العالمى وغيره من الوكالات والمنظمات الدولية الاخرى •

والقومية حتى في حالة عودتها الى جذورها ، ليست بالطبع رجعية وراثية أو وحشية بشرية . وفي الامكان التوفيق بينها وبين النزعة الدولية العالمية ، فهذه النزعة هي التي توحي بالقومية . ولا ريب في أن هــذه القومية هي التي تضمن أن يكون التطور والتقدم في العالم على نطاق علمي شامل .

ومن الطبيعي أن القومية تعود الى التحدث عن الجذور المشتركة عندما تكون القوى الانفصالية العاملة على التجزئة قوية الى حــد كبير . وقد يكون الاهتمام بالجذور أمرا تاريخيا . ولكنه لا يخلو من العملية من ناحية أخرى ، لاسيما وأنه يخلق أساسا للاشتراك ووحــدة الهدف . ويؤدي وجود لغات مختلفة ، تستعمل استعمالا فعليا في المناطق التي تمت الى بلد واحد ، الى التجزئة والتفرقة ، ما لم يحسر النقاب عن وجود وحدة بعيدة الاعماق . وتعتبر هذه الوحدة البعيدة مدينة بشيء من وجودها الى الحقيقة الواقعة وهي ان الاقاليم المختلفة كانت تدار في الحقبة الاستعمارية كبلد واحد (١) . ولكنها قد ترتكز ارتكازا أهم وأضخم على الوحــدة الثقافية ، فالهدف الواحد أكثر أهمية بالنسبة الى القومية من الاصل الواحد والجذور التاريخية الواحدة (٢) .

والقومية الافريقية فكرة نضالية . وان كانت لا تحمــل طابع العدوان أو العصاب « الشوفيني » . ولعل التحول من النزعة القبلية الى النزعة الافريقية الجامعة عن طريق الاقليمية ، هو تأكيد لهذا الرأي ولو كانت القومية الافريقية عدوانية او عصابية شوفينية لتوقفت عند حدود الاقليمية وعلى صعيدها . ولا تتطلب القومية خلق مجتمع مغلق غير متفتح وان كان من الطبيعي أن تنطوي على شيء من الاساطير . وهناك دائما

---

(١) من المعروف عن الاستعمار أنه نظام ذكي يتقن التكيف طبقا لظروفه الموضوعية التي يحتاجها للحفاظ على مصالحه ، فهو يتظاهر بالرأفة المصطنعة أحيانا اذا كان فيها مايحقق له غاياته ، بينما يلجأ الى الشدة المفرقة التي تبلغ حدود الوحشية أحيــانا أخرى اذا رأى فيها مايضمن له الحفاظ على هذه المصالح . واذا كان قد أتبع في بعض أنحاء افريقيا سياسة التوحيد بين بعض الاقطار التي لاتربطها جذور تاريخية مشتركة فانه قد اتبع في أنحاء أخرى ولاسيما في الوطن العربي سياسة التجزئة للوطن الواحد والشعب الواحــد ليضمن الحفاظ على مصالحه عن طــريق تفــرقة الاجــزاء الواحدة من الوطن الواحد .

ـــ المعرب ـــ

(٢) يخلط المؤلف هنا في تحديد مقومات القومية بين المفهوم المادي والمفهوم الروحي للقومية وتكون وحدة الهدف فعلا قوة فعالة عندما تكون مستندة الى جذور تاريخيــة واحدة اما عندما تنعدم هذه الجذور فانها لاتؤلف وحدها الاساس للوحدة القومية الا على ضوء الاشتراك في المصالح المادية ليس الا .

ـــ المعرب ـــ

عنصر من الاسطورة فى كل ثقافة ، وتتعرض القومية عندما تعالج موضوع الجذور التاريخية الى خطر الانطواء على شيء من الاساطير ، ولعل هــذا هو السبب الذى دفع فينوبها بهافان الهندى الى تحطيم ما قد يسببه الجموح فى القومية من انعزالية ومن تعصب ، عندما استبدل أسلوبه فى التحية من « حى الهند » الى « حى العالم » .

ولم يكن السوفيات بالطبع مفتقرين الى العناية بأحداث افريقيا وواقعها ، فلقد كانوا الى حد ما متوقعين لبعض هذه الاحداث تمام التوقع وقد طبقوا نظريتهم عن التطور ، تطبيقا مباشرا على قارتنا وتتعلق أولى هاتين النظريتين بالمجتمعات بينما تتعلق النظرية الثانية بالافراد، وتخطط النظرية الاولى لمجتمعاتنــا ، طريقة من التطور تنتقــل بهذه المجتمعــات انتقالا تقليديا كلاسيكيا من الجماعات البدائية الى المجتمعات التى يسودها نظام الرق عبر سلسلة متلاحقة من الاقطاع والنظام الرأسمالى والاشتراكية، وهى العقبات الموصلة الى فراديس الشيوعية وكان المؤرخون السوفيات مفتقرين الى شيء من الجزم فى موضوع الدقة فى الانتقال من احدى هذه المراحل الى المرحلة التى تليها . ويلمح بعضهم تلميحا غامضا الى أن هذا الانتقال قد يتم بصورة سريعة ومتقاربة فى بعض الحالات ويقــال شرحا لهذا الرأى ان السلافيين الشرقيين انتقلوا فورا وبصورة مباشرة من مرحلة الجماعية البدائية الى مرحلة النظام الاقطاعى ؛ ويقال أيضا ان بعض المناطق المتخلفة فى الاتحاد السوفياتى نفسه قد انتقلت بسرعة الصاروخ وعن طريق الاجراءات الثورية من البنيان الاقطاعى الى البنيان الاشتراكى لكن بعض المولعين بدقة الالفاظ يرفضون تقبل هذا الخروج على القاعدة ويصر جوكوف مثلا على النقيض من زميله جريكون على حتميـــة النسق الماركسى ، اللينينى فى التحول من مرحلة الى مرحلة .

وتقول النظرية السوفياتية التطورية بالنسبة الى الانســان الفرد أن الانسان يبدأ كمخلوق لا سلطان له على الظواهر الطبيعيــة ولذا فهو يقضى حياته فى فزع دائم منها . وينمو مع الانسان ــ رغبة منه فى كبت هذا الفزع والتغلب عليه ان أمكنه ذلك ــ اعتقاد بالسحر والشعوذة والسحرة والمشعوذين . وترفض هذه النظرية الدين على أنه فلسفة للسحر لاسيما وان هذا الدين نفسه ، يمر فى فترة تحول وانسلاخ انقلابى من الشرك الى الوحدانية ، وسرعان ما تتخلى النظرية أيضا عن المفاهيم المثالية للمجتمع والطبيعة ، كما تتخلى عن فكرة الوحى والتكشف الدينى لتأخذ بدلا منها بفكرة التحول الى « العقلانية » وهم يقولون أن « العقلانية » قضية مادية مجردة ولذا فانها تتناقض مع الدين كل التناقض .

وقد تميزت آراء السوفيات فى افريقيا بالتوجيه التابع عن موقفين

يتخذونهما من هذه القارة ، وأولهما موقف النظر اليهـــا كمجموعة من المجتمعات الوجودية التى تعترض عدة نواح مختلفة من الجدل الدياكلتيكى الماركسى ، وثانيهما موقف النظر الى افريقيا على انها أثر فلسفى من آثار أوروبا . وقد طبقت نظريتا التطور على افريقيا ضـــمن محتوى الموقف الاول ، أما التوجيه بالنسبة الى الموقف الثانى ، فقد استمد ايحاءه من آراء لينين فى الاستعمار . واستخدم السوفيات مجهر التحليل التطورى فى نظرتهم الى افريقيا فرآوا انها تمثل مجموعة من المجتمعات لا تزال تعيش فى القرن التاسع عشر وان كان النظام القبلى فيهـــا قد شرع فى التحلل والذبول . وعلى الرغم من ظهور جماعات من الاغنياء وأخرى من الفقراء الا أن هذه الجماعات لم ينظر اليها قط على أنها تمثل طبقـــات متنافسة اذ أن الشئون الجماعية ظلت وقفا على تصريف الجماعات العشيرية ولم تكن هناك بالنسبة الى وجهات نظر السوفيات أية تنظيمات تحمل طابع الدولة وان كانوا قد أبدوا اعجابا منقطع النظير ببطولة شاكا ودنجان الاول لخلقه امبراطورية عسكرية موحدة والثانى للجهود التى بذلها فى طريق ضمان مركزية الحكم وقد ادعى السوفيات أنهم يرون فى هذه التبـــدلات تحقيقا للبرنامج التطورى الماركسى — اللينينى وكان كل مايجب على الناس فى رأيهم أن يفعلوه هو أن يستكينوا ويستسلموا الى الاسترخاء وانتظار العمليـــة الجدليـــة الدياكلتيكية ، لتستنزف قواها بنفسها اذ لم يكن الاستعمار ويا للاسف قد انقض على كل شيء أمامه وكأنه النسر الجارح وهكذا فان السوفيات يقولون بأن الاستعمار الاوروبى وسياسات الارض الاستعمارية قد تمكن عن طريق تفتيت الجماعات ذات الاصـــل العرقى الواحد فى أقاليم مجزأة من التدخل تدخلا فعالا فى عملية التطور الطبيعى على الرغم مما فيها من حتمية ومن هنا يظهر ما لدى السوفيات من اظلام محير للفكر عند هذه النقطة بالذات اذ انهم يبدون وكأنهم يفكرون بأن الحكم الاستعمارى قد أدخل فى الواقع الانتقال السريع من مرحلة الجماعات البدائية الى مرحلة النظام الاستعمارى المباشر متجاهلا كل التجاهل الهوى المضايق الدياكلتيكية الواسعة التى تفصـــل بين المرحلتين . ولكن الا تفرض الاوضاع نفسها بين آونة وأخرى فى أى مكان فى العالم سرعة التطور ذاته ومداه ؟

ولقد عالج السوفيات فى محاولتهم انقاذ ما يمكن انقاذه من البرنامج المرسوم لعملية التطور التاريخى المتجمدة وغير المتعجلة الذى اختارته هذه العملية لنفسها ، نظام مزارعة الاراضى التقليدى فى افريقيا ، وكأنه فى مجموعة نظام اقطاعى ، على اعتبار ان هذا النظام الافريقى يبـــدو وكأنه يلجأ الى استخدام مفاهيم التصرف والحق والالتزام بدل اصـــطلاحات البيع والشراء والعمل والاجور . وكان الحفاظ على منطق المشيخة

القبلية ، حافزا آخر دعا السوفيات الى اطلاق صفة الاقطاع على النظام التقليدى الافريقى . وكانت قوة الحافز على اطلاق العملية التطورية معنوية بالطبع ، اذ انها هدفت الى طمس معالم الاجحاف ابان الانتقال من مرحلة الى مرحلة وكان هذا الاجحاف يبدو لسوء الحظ بصورة دائمة ومستمرة على الصعيد الاقتصادي وكان منطق المشيخة القبلية فى حد ذاته اقتصادى الصبغة . وهكذا كان فى امكان السوفيات عن طريق تسمية النظام التقليدى بالاقطاع مع ما تتضمنه هذه التسمية من فروق اقتصادية أن يقبلوا الطبيعة الاقتصادية دون الطبيعة الدينية لنظام المشيخة القبلية وهكذا ظهر الشيوخ على الفور مصدرا للشقاء الاقتصادى الدائم والمستمر .

وهنا اصطدم السوفيات عند هذه النقطة بحقيقة مزعجة لهم كل الازعاج وهى قوة القوى التقليدية فى افريقيا وتحتم عليهم أن يعترفوا بأن الزعيم القبلي لم يكن الا أداة ذلك الجهاز الضخم الذى يمثله الاقطاع ويمثل تسلطه على الجماعات البدائية ، وتطلب هذا السبق فى التنظيم وفق النظرية الشيوعية السير جنبا الى جنب مع سبق مماثل نحو الواقعية ونحو العقلانية . ولكن السوفيات يغرقون العقلانية فى حوض الاقتصاد . وقد انعكس السير فى طريق العقلانية الذى يمثله الاقطاع على الجماعات البدائية فى الاقتصاد أكثر من انعكاسه فى الطبيعة الدينية وهى المنطق الذى يعتمد عليه الشيخ القبلى فى تثبيت سلطانه .

وقد رأى السوفيات الاهمية المستمرة للشيخ كجزء من القوى التقليدية الباقية ولكنهم فى الوقت نفسه شكوا فى أن يكون الاستعمار هو الذى دعم مركز الشيوخ عن قصد وعمد لخدمة أهدافه وغاياته . ولا سيما فى أفريقيا البريطانية التى ظل سلطان الشيوخ فيها أقوى منه فى المستعمرات الفرنسية أو البرتغالية أو الأسبانية أو البلجيكية . وقد قنعت جميع هذه الدول المستعمرة باستثناء بريطانيا بحكم مستعمراتها فى أفريقيا حكما مباشرا . أما البريطانيون فقد هدتهم حاسة الشم عن طريق أنوفهم الحساسة والبارزة الى وجوب المكر فى احداث التبدل ، فاخترعوا طريقة الحكم المباشر عن طريق الشيوخ القبليين المحليين (١)

---

(١) ليست هذه الطريقة التى ابتكرها الانجليز في افريقيا ، والتى لمسها السوفيات بالجديدة عليهم فقد طبقوها فى البلاد العربية التى حكموها ، كما طبقوها في الهند ، ممثلة فى ملوك العرب وأمرائهم وسلاطينهم ومشايخهم ومراجات الهند وأمرائها . وقد غالى الانجليز في تطبيق هذه الطريقة الى درجة « اختراع » الشيوخ والامراء ، حيث لم يكن لهم وجود ، كما حدث فى العراق عن طريق توزيع الاراضي الاميرية عليهم ليصبحوا سادة اقطاعيين يمثلون الدمى فى أيديهم أو كما عملوا في سلطنات وامارات الخليج والجنوب العربيين .
— المعرب —

وهكذا بدلا من أن يستنزفوا طاقاتهم في مقارعة القوى التقليدية العميقة الجذور أخذوا يستخدمون هذه القوى لمصلحتهم ويسخرونها في خدمتهم ويرجع الفضل في هذا الموقف الذي وقفوه الى عقلائهم من علماء الأجناس البشرية الاجتماعيين وبينهم بالطبع راترى ·وقد استغل لوجارد اكتشافا اجتماعيا في هذا العلم كل الاستغلال ولم يغال السوفيات كل الغلو في تقديرهم للدعم الخفي الذي قدمته بريطانيا في مستعمراتها الافريقية لنظام المشيخة القبلية ، وان كانوا قد قللوا من أهميته نظرا لاعتقادهم بأن ما في المواقف الدينية التي ترتكز اليها أفريقيا التقليدية القديمة من تعقيد يحتل مكانة ارفع وأعلى في ايضاح القوى الاجتماعية المحركة للشيوخ القبليين ، وقد أبرزوا كأمثلة على رأسهم هـذا حكم الامراء في نيجيريا الشمالية وحكومة هوبهوى — بوينى في ساحل العاج ·

ولم تكن القوى التقليدية هي التي استفزت السوفيات وحدهم واستثارت غضبهم وانما استثارت أيضا عقول الصينيين الذين استفزتهم كذلك الطبقات الافريقية المثقفة وسببت لهم الكثير من القلق فصحيح أن التناقضات الذاتية الداخلية في صفوف الرأسماليين والاستعماريين قد أوضحت نفسها في المستعمرات وكشفت عن سريرتها في الصراعات التي قامت بين الدول الاستعمارية وكان من المتوقع أن تعصف بالاستعمار وقواه ، ولكن السوفيات رأوا في هذا الصـدد أن من واجب الثورات نفسها أن تساعد على سير العملية التطورية وأن تمضي بها · ولا ريب في أن السوفيات رأوا في هذا الصدد أن من واجب الثورات نفسها أن تساعد على سير العملية التطورية وأن تمضي بهـا · ولا ريب في أن السوفيات قد أبرزوا ونشوة الفرح تغمر نفوسهم الصراعات التي قامت بين الدول الاستعمارية على الرغم من مؤتمر برلين — الذي قرر اقتسام أفريقيا بين الدول الرأسمالية كما أبرزوا الجهود التي بذلتها الولايات المتحدة الأمريكية لاحباط مشاريع الفرنسيين عند اعلان استقلال ليبريا في نهاية القرن التاسع عشر ·

وكانت الفكرة السـائدة أن التحرر الوطني لا يمكن أن يتحقق بالطرق السلمية المشروعة (١) وليس ثمـة من شك في أن صحة هذه

(١) يبدو أن المؤلف ميال الى سياسة النضال السلمي التي اتبعها غاندى في تحرير الهند ولكنني أرى أن الظروف الدولية وخروج بريطانيا من الحرب الكونية الثانية وهي اقرب الى الهزيمة على الرغم من انتصارها هي التي أرغمتها على منح الهند استقلالها · كما أن التجارب التي مرت بها حروب التحرير في أفريقيا وآسيا قد أثبتت أن الاستعمار لايستسلم بسهولة وأن الكفاح ضده لابد وأن يتسم بطابع العنف ·

— المعرب —

الفكرة تعتمد أولا وقبل كل شيء على المحتوى الفعلى للقانون فى أية منطقة من المناطق فهناك أساليب مشروعه للاثارة وخلق الهياج . وان لم تكن هذه الأساليب بحكم الضرورة قانونية ، فالعصيان المدنى مثلا مشروع ، وعلى الرغم من أن القانون قد سمح به فى أفريقيا البريطانية الا أنه كان مخالفا للقانون فى جميع المستعمرات البرتغاليه والاسبانية والبلجيكية فى أفريقيا ولا ريب فى أن حكومة اتحاد جنوب أفريقيا لم تسن قانون مكافحة الشيوعية الا بقصد مقارعة هذا الأسلوب النضالى وكان السوفيات يرون أن الثورة الايجابية بمعناها العسكرى هى خير سبل النضال بل ولعلها فى رأيهم السبيل الجوهرى له . ولكن هذه الفكرة لم تعد الرأى الذى يصر عليه السوفيات الآن ، وقد نفاها خروشوف نفيا قاطعا فى الآونة الأخيرة ..

ومازال العالم الشيوعى يؤمن بما فى الثورات البورجوازية من مكر وافتقار الى الاستقرار وهم يعنون بهذا الاصطلاح الثورات ، التى تعلن من على منبر مؤتمر مائدة مستديرة . وليس ثمة من يشك فى أن القيـــادة البورجوازية لأية ثورة وطنية قادرة على أن تسرق الثورة وعلى أن تحرمها من الاستقرار ولكن اعتبار هذا الاحتمال ، الذى قد يقع أو لا يقع أساسا لمعاداة هذه الثورة هو تعصب جنونى لفكرة خاطئة . واصرار السوفيات على أن الطبقات العاملة وحدها فى أى مجتمع من المجتمعات هى المخلصة للتحرر الوطنى وهى القادرة دون غيرها على السير بهذا التحرر اصرار يرتبط بسوء فهم السوفيات لاحتمالات الثورات وامكاناتها . ولست أشك فى أن أية ثورة سياسية فى أفريقيا لن يكتب لها النجاح دون تأييد العمال لها ، ولكن العمال ليسوا وحدهم العنصر الثورى أو الثورة كلها . وقد أودع لينين آراءه فى احتمالات الثورات وامكاناتها فى كتاباته عن القوميات وسياساتها . فلقد أوضح فى هذه الآراء أن الثورة هى ثورة البروليتارية العالمية وحدها ، ونص على وجوب قمع الأمانى القومية عندما تقف موقف التعارض مع حاجات الثورة البروليتارية العالمية كما وقع فى المجر مثلا . ونصت آراؤه أيضـــا على أن من واجب المفاهيم القوميـة أن تستعيض بالعمليات السياسية عن النواشز العنصرية واللغوية وكانت ثمرة مفاهيم لينين هذه الشعار الذى رفعه ستالين فى عام ١٩٢٣ .. « اشـتراكى المحتوى وطنى الشكل » .

وهكذا نرى أن السياسات السوفياتية تجاه الحركات الافريقية الوطنية وحركة الوحدة الافريقية لم تكن مستقرة او ثابتة تمام الثبات فلقد رحب السوفيات مثلا بكل حركة تؤدى الى تحطيم قبضة الاستعمار على اعتبار ان هذه الحـركة ستعمل على تقـويض نفـوذ الرأسـمالية وسلطانها . أو انها ستكون على الاقل نقطة وثوب مثالية فى معركة هزم

الرأسمالية والانتصار عليها . ومن هنا كان ابطال الحركات الوطنية وقادتها يظهرون فى بعض الاحيان وكأنهم يمثلون ادوارا لا تكاد تصدق ولكن السوفيات سرعان ما عثروا على الطريقة التى يعزون انفسهم بها وهى أن هذه الادوار مهمة على أى حال . لكن تحول الطاقات الافريقية نحو الوحدة الافريقية الجامعة لم يكن ليعجب السوفيات ابدا كما أنه لم يعجب الغرب اطلاقا ، فالسوفيات يرون فى هذا التحول نزعة تمثل خطر القفز فوق اخدود الثورة البروليتارية العالمية بدلا من المضى فى اداء المهمة الاساسية وهى ازالة ما للرأسمالية والاستعمار من سلطان فى كل مكان . ومن هذا المنطلق مال السوفيات الى النظر الى حركة الوحدة الافريقية بعين الخيال الرومانطيقى لانهم كانوا دائما اكثر اهتماما بتصفية الغرب وقواعده منهم باعادة بناء افريقيا وتقدمها . أما الغرب فيرى فى حركة الوحدة الافريقية شيئا رهيبا اذ ان قيام افريقيا موحدة يؤلف خطرا اقتصاديا مباشرا على مصالحه بينما يؤدى وجود افريقيا مجزأة الى اضعاف نفسها تلقائيا عن طريق التنافس على ود الغرب ومساعدته .

وانا أرى فى سياسة لينين عن القوميات محاولة حقيقية لتوسيع ما ينطبق على البلاد كبلاد وتحويله الى طابع الشمول على أساس تطبيقه على صعيد عالمى . فهناك امبراطوريات متعددة القوميات . وهناك جامعات للشعوب متعددة القوميات ايضا كما ان هناك احلافا أو عقائد متعددة القوميات ولكن ليس ثمة دولة واحدة متعددة القوميات، وانما هناك دول قومية ليس الا (١) ولا ريب فى ان محاولة اعتبار

---

(١) أعتقد أن المؤلف قد غالى في اطلاق هذا التعميم فالاتحاد السوفياتى نفسه مثل على وجود الدولة المتعددة القوميات اذ أن فيه بالاضافة الى الشعب الروسي عدة شعوب أخرى مختلفة القوميات كالاوكرانيين والروس البيض والقوزاق والتتار والشركس والارمن والتركمان والجورجيين والمغول ، وكانوا كلهم خاضعين للامبراطورية الروسية في عهد القياصرة ثم أصبحوا في نطاق الاتحاد السوفياتى بعد الثورة الشيوعية وقد يقال ان العقيدة الشيوعية هى التى تجمعهم في دولة واحدة ، ولكن هذا القول يبطل عندما نرى أن القوميات الاخرى التى دانت بالشيوعية بعد الحرب الكونية الثانية لم تنضم الى الاتحاد السوفياتى وانما ظلت جمهوريات اشتراكية قائمة بذاتها وان شدتها الى الاتحاد السوفياتى سياسة واحدة هى سياسة الجبهة الاشتراكية وسواء اصح مايقوله الغرب من أن القوميات التابعة للاتحاد السوفياتى هى في حكم الشعوب المستعمرة أو صح مايقوله الاتحاد السوفياتى من أن هذه القوميات انصهرت في بوتقة المصلحة المادية المشتركة وارتضت بواقع المشاركة في الحكم المتمثل في الاتحاد السوفياتى كدولة متعددة القوميات فان الشيء الثابت والمؤكد أن الاتحاد السوفياتى دولة متعددة القوميات كما أن الولايات المتحدة تضم قوميات عدة انصهرت في بوتقة الدولة الواحدة وها نحن نرى أيضا أن فكرة قيام ولايات متحدة أوروبية تضم عدة قوميات آخذة في النمو ، ولعل السوق الاوروبية المشتركة هى اول مظهر عملى من مظاهرها ، بالنظر الى قوة العامل الاقتصادى في تكوين الوحدات الدولية . — المعرب —

الاقليات الصغيرة داخل اية دولة من الدول كجماعة قومية خيانةلاساس الدولة وفكرتها ، وكانت هذه هى المحاولة التى قامت بها فرنسا فى الجزائر لتثبيت اقدامها كما انها هى السبب فى فشل بريطانيا فىتشديد قبضتها على كينيا وروديسيا الشمالية وجنوب روديسيا وكذلك فى معالجة مشاكل المستوطنين فى مستعمراتها .

وقد باتت معظم ارجاء القارة الافريقية مستقلة الآن من الناحية السياسية وقد بات لديها احساس معين بالرغبة فى المبادرة فى القضايا السياسية المجردة ، ولكن عندما يكون للقضايا السياسية تأثيرها الخطير على الآمال الاقتصادية فان السياسية لا تعكس فى مثل هذه الحالة الاستقلال الكامل . ويصبح فى وسع الانسان ان يعلق الكثير من الاهمية على الابتسامات الودودة التى يقابل بها فى خارج افريقيا . ولقد كان من الشائع فى افريقيا ان عيون العالم باسره تنظر الى قارتنا . وكانت ثمرة هذه النظرة من الناحية العملية، انها جردتها من الاخلاص والاتزان فعيون العالم كله ليست مركزة على افريقيا ، ولو تمكنا من تحويل عيون الافريقيين الى بلادهم ، وتوقفنا عن عقد المقارنات التى لا اساس لها مع القارات الاخرى . فان المعجزة الافريقية تتحقق حتما . ولا يمكن لاستقلال افريقيا ان يعتبر شيئا مهما الا اذا كانت افريقيا تركازية فى عملها . وفى الصورة الذاتية التى تقبلها لنفسها .

بعث افريقيا

المشاكل الاقتصادية ـ الموارد الاقتصادية ـ فضائل الوحدة الافريقية ـ المشاكل السياسية ـ الحزب الثورى ـ الامانى المتشابهة ـ مشـاكل الحكم ـ دور المثقفين ـ الحياد ـ جامعة الشعوب البريطانيـة ـ الثـورة والاخلاق ـ أهداف التربية والتعليم ـ نهضة افريقيا ـ شعار الوحـدة الافريقية .

من حق افريقيا أن تشكر الايام لانها حبتها بأشياء كثيرة . فعليها أن تحمد وتشكر . لان تجارة الرقيق قد الغيت فى النهـاية . بعد ان توطدت اقدامها ، وعليها أن تحمد لان المدارس قد اقيمت فيها ، ولان سـبل التعليم قد توافرت لها ، ولانهـا زودت بمعـاهد الطب العلمى ومعاهد الزراعة العلمية ومكافحة الاوبئة والحشرات ، وعليها ان تشكر للبعثات التبشيرية ما قامت به من اعمال فى ميادين التبشير بالمسيحية، والاصلاح والتربية والتعليم والطب ، وان تحمد للمكتشفين والجوابين كشفهم لمجاهل قارتهم وخفاياها ، وعملهم على ربط اجزائها بشـبكات واسعة من طرق المواصلات ، ولموظفى الحكومات المختلفة نكرانهم الذات فى ادائهم اعمالهم الادارية (١) .

لكن هـذا التعبير عن الاعتراف بالجميـل يجب أن لا يوحى بأن «الوجود» الاوروبى فى افريقيـا لم يكن الا لخـدمة افريقيـا نفسـها ويجب أن لا يعمى هذا الشعور بالحمد اعيننا عن الحقيقة الواقعة، وهى أن بعض المشاكل التى تواجهها أفريقيا اليوم ليست الا ثمرات لاتصالها بأوروبا . وتنبع كثير من هذه المشاكل من الافتقار الى التخطيط ، ومن

---

(١) انا اختلف مع المؤلف كل الاختلاف ، فى هذه التعابير عن الشـكر والاعتراف بالجميل حتى وان كان بين فى الفقرات التالية حقيقة الاهداف التى حملت الاوروبيين على أن يفعلوا هذه الاعمال التى يرى المؤلف أنها جديرة بشكره . فلايمكن للانسان أن يشكر على عمل ، هدفه منه تحقيق مصالحه هو ، حتى وان عاد هذا العمل ببعض الفائدة على الآخرين وليس ثمة من ينكر أن كل مافعله الاستعمار فى افريقيا هو لخدمة مصـالحه لا لخـدمة الافريقيين .

ـ المعرب ـ

الافتقار الى اية جدية فى تناول قيم النظم الافريقية الخاصة بها . ويرى الافريقيون ان موقف أوربا من قارتهم كان موقفا تعوزه الدراسة . بل موقف الهواة المفتقر الى القواعد والمبادىء ؛ لا سيما وهم يرون أن اوروبا قد حملت اليهم الآراء العنصرية .

وقد كيف الاستعماران البريطاني والفرنسي نفسيهما كثيرا، تجاوبا منهما مع النظرية الاقتصادية عن الانسان، فتأخر الدولتين الاستعماريتين فى اعطاء الاستقلال للجزائر وكينيا ، انما نجم عن دوافع ومخاوف اقتصادية ، تتلخص فى الخوف من انتزاع الملكيات من الاقليات البيضاء عن طريق حصول الاغلبيات الافريقية على حق الاقتراع . وقد يكون من الضرورى عند حصول هذين البلدين على استقلالهما اجراء اعادة توزيع للمواد الطبيعية ، اذ ان هذا الاجراء ، هو السبيل الوحيد لتحقيق شيء من العدالة الاجتماعية التى لا وجود لها فى هذين البلدين. وكل ما هنالك ، هو أن يسعى الساسة فى هذين البلدين الى شراء استقلالهما عن طريق التعهد بمنح التعويضات الكافية فى حالة تعديل التوزيع الذى يعنى انتزاع الملكيات من الاقليات البيضاء (١) .

ويعتمد مستقبل افريقيا على حاضرها ، وليس الحاضر الا ثمرة من ثمار الماضى ، ويود المرء ان يربط بالحاضر نتيجته العملية القائمة من جراء الامتزاج بين قوى أفريقيا التقليدية القديمة وبين القوى التى أدى الاتصال مع اوربا الى اطلاقها من عقالها على قارتنا . ومن واجب الانسان أن يوضح بشيء من التفضيل الثقافة التى كانت أوروبا على اتصال بها ، حتى يستطيع أن يقدم الصورة الحقة للمشاكل التى تواجهنا. والصورة الحقة هى التى تمكننا من تشخيص العلة تشخيصا صحيحا، وآنذاك تكون وصفة العلاج التى نضعها على ضوء هذا التشخيص الفرصة الصالحة للنجاح فى العلاج .

وتتلاحم موارد افريقيا الطبيعية مع مشاكلها تلاحما وثيق الوشائج وبعض هذه المشاكل ذاتى الوجود اى قائمة فى قلب افريقيا ، وبعضها وصفى ، اى لا علاقة له بجوهر الوجود . وتوجد المشاكل الوصفية فى ذلك الطراز من التبدلات التى تواجهها افريقيا اليوم . وفى سرعة

---

(١) اختلف مع المؤلف في حديثه عن شراء الاستقلال فالاستقلال يؤخذ ولا يعطى ولم تشتر الجزائر استقلالها بضمانات يصدرها أبناؤها لمنح التعويضات الكافية الى المستوطنين كما يقول المؤلف وانما اشترتها بالدماء الزكية دماء شهدائها الابرار ، الذين فاق عددهم المليون ، وبعد كفاح استغرق سبع سنوات أو يزيد ، وينطبق هذا القول أيضا عن كينيا التى جاهدت طويلا وضحت بألوف الارواح من أبنائها للحصول على الاستقلال .

— المعرب —

هذه التبدلات وغذ سيرها . وقد اجتذبت مشاكل التبـــدل أو التحول فى افريقيا عناية علماء الاجتماع . وعلماء الاجناس البشرية ، ورجـال التربية والاطباء وعلماء النفس والاطباء النفسيين والمرضات والكنائس والحكومات ورجال الادارة ، وتظهر أعراض الانتكاسات المؤلمة الناتجـة عن هذه التبدلات بصورة طبيعية ، عن طريق الثقافات الافريقيةالمحلية، وما لم يقم المرء بتحليل هذه الاعراض تحليلا صحيحا ، فان عمله لا يقوم ولا يمكن ان يقوم على اسس صحيحة . وما لم تعتبر الثقافات التقليدية القديمة التى ما زالت مؤثرة فعالة ، مؤثرات ثابتة ومستمرة فان التقدم الذى نبغيه يغدو مجدودا ملتويا ، بدلا من ان يكون معقولا ومستمرا.

ويمكن تصنيف المشاكل الناجمة عن هذه التبدلات فى عدة فئات : منها الاقتصادية ومنها السياسية والاجتماعية والتربوية . ويعتمدتقدم افريقيـا على قدرتها على فهم مشـاكلها هـذه وعلى معالجتها علاجـا صحيحا .

ولقد تركت أوروبا بالاضافة الى ادخالها الى القـارة الافريقيـة احتمالات جديدة فى مجالات الاقتصاد والسياسة والتنظيم الاجتماعى ، والتربية والتعليم ، آثارا تفسيخية مؤثرة . وقد جاء هذا التفسيخ مع الديانة المسيحية ومع الاقتصاد الاوروبى ، وانظمة المواصلات وقوانين أوروبا وأنظمة الحكم فيها . فالديانة المسيحية باصرارها على محاسبة الفرد امام ضميره وامام الله ، تركت فى أفريقيا أثرا تفسيخيا يؤدىالى تصدعها ، وأدى التنظيم الاقتصادى الاوروبى بربطه بين الاجر والجهد الفردى ، وظهور الطرق والسكك الحديدية والمواصلات المائية والهوائية. واتساع مدى الاتصال بين النـاس وسرعته ومعـدل الاتصـال الثقافى وما لحق به من تبدل ، وحشد مجموعة من القبـائل فى وحـدة ادارية اقليمية واحدة وخلق فرص الهجرة من مكانالى آخر الى آثارتفسيخية فككت التنظيمات العائلية والعشيرية عند الافريقيين . وأدى ادخـال نظام كسب الاجور على اساس النشاط وحده ، الى التدخل فى انوشائج التقليدية القائمة فى الحياة العائلية والى ايجاد الفرق بين العملوالملكية، وادت الهجرات سعيا وراء الاجور الى ايهان الروابط العائلية ، كما ادت الى تزايد اجراءات تعدد الزوجات لان الازواج لا يستصحبون زوجاتهم معهم فى رحلاتهم سعيا وراء الاجور واكتساب الرزق .

ويرجع التنوع فى المشاكل فى افريقيا حتى بعد تصنيفها فى فئاتها المختلفة الى حد كبير الى الفـروق فى السـياسات التى اتبعتها الدول الاستعمارية فى مستعمراتها ، واعنى بها بريطانيا التى كانت تسيطرعلى نحو من أربعة ملايين ميل مربع من الاراضى ، وفرنسا التى كانتتسيطر

على مثل هـذه المساحة ، وبلجيكا التى تسيطر على مليـون ميل مربع والبرتغال التى تبلغ مساحة مستعمراتها سبعمائة وخمسين الف ميل مربع واسبانيا التى تسـيطر على مائة وسـبعين الف ميل . وكانت السـياسـة البريطانية قد اتجهت منـذ ايام ماكولى (١) نحـو ضمان الاستقلال لمستعمراتها على الرغم من ان السير فى هـذا الاتجـاه كان بطيئا كل البطء (٢) وكانت الفكرة تقوم فى زراعة الحضارة البريطانية فى افريقيا عن طريق تطعيمها فى ثقافات افريقيا وتقاليدها ولغاتهـا وعقائدها ، ان كان ذلك ممكنا . اما فرنسا فقد اتبعت سياسة تتعارض مع هذه السياسة تعارضا قطريا وعكسيا ، اذ آمنت بايجاد شكل مركزى من اشكال الحكم الاسـتعمارى ، ولم تشجع فرنسـا نظام المشيخات القبلية ، اذ انها لم تر دورا يستطيع الشيوخ ان يؤدوه فى عملية دمج المستعمرات بها وكانت ترى أن رعاياها يمكن أن يصنفوا في فئتين : فئة الصفوة المختـارة ، وفئة الجماعات «البلدية» من اهل البلاد . وكانت تدأب على تثقيف أفراد الفئة الاولى بالثقافة الفرنسية . وتعلمهم عـلى عاداتها واساليب حياتها ليغدوا فرنسيين قلبا وقالبا . أما ابناء البلد فلم يكونوا يتلقون الا شكلا خفيفا من اشكال التعليم الاولى ، فى مدارس اقرب الى «الكتاتيب» منها الى المدارس . ومن هـذا يبدو بجلاء ان الفرنسيين آمنوا بسياسة الاقتباس آى وضع الامور كلها على اساس قياس واحد معين ، بينما لم يؤمن البريطانيون بهذه السياسة اطلاقا. واتبع البلجيـكيون خطا لا يختلف عن الخط الفرنسى ، بتمييزهم بين الصفوة المختارة وابناء البلد ، وأن اختلفوا عنه فى أنهم كانوا يرون فى ممتلكاتهم الافريقية مجرد شيء يملكونه . ولم تسـاورهم الفكرة التى ساورت الفرنسيين فى ان يدمجوا مسـتعمراتهم ببـلادهم فرنسـا ،

---

(١) اللورد توماس ماكولى (Thomas macaulay ١٨٠٠ – ١٨٥٩) مؤرخ وسياسي بريطاني معروف درس في كلية ترينيتى في جامعة كمبردج . شرع يكتب في صحيفة «ادنبرة ريفيو» ثم انتخب نائبا في البرلمان في عام ١٨٣٠ ، عين عضوا في مجلس الهند الاعلى حيث اشترك في اعداد قانون الجزاء الهندى . عاد الى بلاده بعد خمس سنوات ثم انتخب نائبا واصبح وزيرا للحربية في عام ١٨٣٩ ، اهم كتبه « تاريخ انجلترا » .

(٢) أختلف كل الاختلاف مع المؤلف في قوله هـذا . فقد عرف عن بريطانيا في القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين انها كانت زعيمة جبهـة الدول الاستعمارية وكانت دائبة السعى لتوسيع امبراطوريتها الاستعمارية لا في افريقيا وحدها بل وفي آسيا ايضا ، ولقد كان استعمار بريطانيا لمصر والسودان في هذه الآونة كما كان استعمارها لأجزاء كبيرة من الوطن العربى بعد عهد ماكولى بكثير . ومن هنا لا يجوز مطلقا القول بأن بريطانيا فكرت في منح الاستقلال لمستعمراتها منذ أيام ماكولى ، وذلك لأنها كانت طيلة هذه المدة دائبة التفكير في توسيع امبراطوريتها الاستعمارية .

ــ المعرب ــ

ولا الفكرة التى ساورت البريطانيين فى ان تقف هـذه المستعمرات على اقدامها فى وقت بعيد . ولم يكن هنـاك فى المسـتعمرات البلجيكية أى تعليم بعد حدود التعليم الاولى . أما البرتغاليون والاسـبان فقد رأوا بعين انظمتهم الحاكمة فى بلادهم ، فى المستعمرات الافريقية مجرد مواد طبيعية وأولية يستغلونها بشىء من التجرد عن الانسـانية ، بل وبشىء من الوحشية تماما كما يستغلون اية مواد طبيعية تقع فى متناول أيديهم . وينطبق هذا الوصف الاخير على الالمان عندما كانت بلادهم فى عداد الدول التى تستعمر افريقيا .

وتعيش هذه الفروق فى مواقف الدول الاوروبية الاستعمارية من افريقيا اليوم فى المشاكل التى تواجهها القارة فى عملية تحولها الجديدة بكل ما فى هذه المشاكل من خطورة وتعقيدات .

ولا يقوم السبب فى ان افريقيـا قد استقلت بصـورة مفاجئة ، لتجد نفسها مثقلة بأعباء المشاكل التى لم تفكر من قبل حتى فى رسم أى مخطط لها ، فى جذور السياسات الاستعمارية واعماقها ، اذ على الرغم من ميثاق الاطلسى بنقاطه الثمانى (١) وهو الميثاق الذى وقعته بريطانيا وأعلنت عزمها على تطبيقه بالنسبة الى افريقيا ، فان التكهنات حتى عند أصدق العارفين ، لم تكن تتوقع حلول اسـتقلال افريقيـا قبل مضى ستين عاما أو مائة عـام على الاقل . وانى لاذكر مقـالا نشرته صحيفة « تايم اند تايد » فى عددها الصادر فى العاشر من فبراير عام ١٩٤٠ ، عن « مستقبل المستعمرات » عرض فيه كاتبه نبوءة سبقت صدور ميثاق الاطلسى ، واعلن ، وهو الدكتور دبليو . بى ممفورد ، أن مشروعا يوضع لمنح المستعمرات استقلالها فى غضون ستين عاما . ولم تتوقع اللجنة الامريكية لشئون افريقيا التى عقدت جلساتها فى عام ١٩٤٢ ، لدراسة أهداف الحرب والسلام ، ان يحصل الجيل الذى ينتمى اليه امثـال قوامى نكروما وآكو ادجيبى وروسى لوهر وابانجا أودوا كابيو ، الذين قدموا اليها المذكرات باسم بلادهم غانا وسيراليون ونيجيريا على استقلال افريقيا ، وحريتها ، او حتى ان يطالبوا بهذا الاستقلال .

وتحدثت ماجيرى بيرهام فى سلسـلة مقـالات نشرتها فى صحيفة «التايمز» اللندنية فى عام ١٩٤٢ تحت عنوان « امريكا والامبراطورية »

---

(١) ميثاق الاطلسي ، هو البيان الذى أصدره كل من تشرشـل وروزفلت ابان الحرب الكونية الثانية فى آب عام ١٩٤١ اثر اجتماعهما على بارجة في المحيط الاطلسي ، وقد تضمن الميثاق ثمانية مبادىء اهمها تلك التى تعلن حق الشعوب كلها في تقـرير مصيرها . — المعرب —

عن الاخطار التى قد تنجم عن سوء فهم امريكا لنوايا بريطانيا . وعن الحاجة الى تحديد هذه النوايا وايضاحها فقالت :

« أكثيرا علينا أن نأمل فى طلوع صوت من هذه البلاد ، يحمل طابع القيادة يعلن للعالم خطة صريحة وواضحة عن التقدم الذى نبغيه والذى يجب أن يستهوى رجل الشارع فى بريطانيا وفى المستعمرات . ويدعوه الى العمل مع اخوانه هنا وهناك فى تعاون وثيق لتحقيق هذا التقدم ؟ هناك مصاعب واخطار فى اعلان الخطط وأذاعتها . اما اليوم فهناك مصاعب واخطار فى عدم اعلانها . فمن السهل أن تفهم هذه اللغة التى نقترحها فى امريكا ، وان تعمل على كسب ذلك التعاون الكامل الذى يتعذر بدونه توقع أى استعادة لممتلكاتنا الضائعة ، أو ضمان مستقبل امبراطوريتنا وجامعة شعوبنا ورخائها . وقد يطلق البعض على اقوالى هذه صفة الانهزامية ، لكنها واقعية لا انهزامية » ان نعترف بالتضييق النسبى لحدود مركزنا العالمى ، وهو تضييق يختلف كل الاختلاف عن تدهورنا الكلى المطلق . وسيكون مركزنا أقوى وأشد اذا نقلنا مواقعنا من الدعائم غير السليمة الى اخرى سليمة وثابتة » .

ومن المحتمل انه كانت هناك اوضاع ثلاثة مكنت حملات الاثارة السياسية لتحقيق استقلال افريقيا من النجاح » وكانت حيازة بعض الدول الاوروبية ، وبينها دول ضعيفة بالطبع كالبرتغال واسبانيا لمستعمرات فى القارة الافريقية ، مع حرمان بعض الدول القوية جدا كألمانيا مثلا منها ، حافزا دائما للحرب وشنها . ولقد أشار مالينوفسكى الى أن الزحف على أفريقيا بعد الثورة الصناعية فى أوروبا لم يكن بالشىء العارض الذى لامسبب له . فقد أتاح هذا الزحف لاوروبا فرصة السيطرة على موارد افريقيا وعلى الايدى العاملة الرخيصة فيها . ولقد لقيت أوروبا فى زحفها هذا العون والمساعدة من الامريكيين المتشبعين بالحرص على المصالح المالية والتجارية . وفى وسعنا أن نضرب مثلا بالكونجو ، اذ لولا العون الامريكى لما تمكن ليوبولد ملك بلجيكا من وضع هذه المستعمرة فى جيبه ، ولقد عثرت اوروبا فى افريقيا ، على مصدر ضخم للموارد الاولية » وعلى سوق مستسلم لتصريف منتجاتها » ولم يكن فى وسع المانيا ان تسمح بعد الحرب الكونية الاولى بضياع تصيبها فى هذه المستعمرات ، وان يستمر هذا الضياع. وبدا حل الامبراطوريات كحل بديل عن الزحف الجديد على افريقيا . يضاف الى هذا ان الامبراطوريات كانت اوسع بكثير من ان تتمكن صاحباتها من الدفاع عنها فى وقت واحد .

ولقد اوضحت فى مكان سابق ، ظهور روسيا كدولة عالمية جديدة وكقوة غريبة بالنسبة الى الغرب . أما تأثير امريكا على الدول صاحبة الامبراطوريات فلم يكن يختلف كثيرا فى الواقع عن موقف الروس . ولا ريب فى أن نجاح الغرب فى الفصل بين الاستقلال السياسي والاستقلال الاقتصادى يجب أن يعتبر بحكم الطبيعة والواقع حافزا كيمائيا يحلل الموقف السياسى نفسه .

اما وقد تحقق لافريقيا الآن استقلالها السياسى ، بكل مايصاحب هذا الاستقلال من مشاكل يمكن تصنيفها لمشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية وتربوية ، فقد بات لزاما عليها أن تقرر ما تصنعه بهذه المشاكل ، والطريقة التى تعالجها بها .

ولقد كانت بعض المشاكل الاقتصادية ثمرة عارضة لتحول القاطعات والاقاليم بصورة تفجيرية الى دول ذات سيادة . وفى وسعنا أن نحسب المشاكل الاقتصادية اللازمة لعملية التمدين ، أى الاسكان فى المدن ، من ضمن هذه المشاكل ففى أفريقيا لم تكن عملية التحول الى المدن مصحوبة دائما وبصورة عامة بالتصنيع أما فى غير افريقيا فقد كان التصنيع دائما سببا من اسباب التحول الى المدن . وقد ادى الافتقار الى هذه الصلة فى افريقيا الى اثارة قضايا متعددة عن طاقة المدن الاقتصادية فى تأمين الحياة لاعداد من السكان تتزايد باستمرار . ولقد اتيح لكثيرين من النازحين الى المدن ان يكسبوا المال ، وان يحولوه الى القرى التى ينتمون اليها . وهذا يعنى أن جزءا فقط من دخولهم أو مكاسبهم على الاصح ، يتوفر لحاجاتهم الفورية فى المدن التى انتقلوا اليها . وكثيرا ما يقيم هؤلاء النازحون فى أطراف المدن الكبيرة وفى مساكن متناهية فى الفقر والوضاعة . وأدى انتشار التعليم فى افريقيا أيضا الى التحول الى حياة المدن كعامل من العوامل الرئيسية فيه ، فهناك الفروق الشاسعة فى مستويات العيش بين المناطق المدينية والريفية ، وهناك ايضا ما يحفز اليه التعليم من ايثار للحياة الاولى أى فى المدن وأدى انخفاض عدد السكان فى افريقيا مصحوبا بالاساليب البدائية فى اعمال الزراعة وصيد الاسماك ، الى خفض الوفور الفائضة من المواد الغذائية التى يمكن تزويد المدن والبلدان الكبيرة بها . ومن هنا نشأ وضع مضحك فى افريقيا كل الاضحاك ، وهو انها فى امس الحاجة فى كل وقت الى استيراد المواد الغذائية من الخارج .

ومن الصحيح ، ان النشاط الاقتصادى فى افريقيا قد ازداد زيادة هائلة وعجيبة فى عهود ضياع الاستقلال ، ولكن تركيب هذا النشاط كان عجيبا ومليئا بالمفارقات وقد اعتصرت جهود ارباب الحرفه

فى افريقيا فى هذه العهود كل العصر ، اذ على الرغم من ان السكان فى افريقيا ، قد باتوا اكثر استقرارا بل وأوفر عددا ، الا ان منتجات حرفهم هذه لم تحظ بأى تمدد معقول فى أسواق التصريف . فلقد كان هناك من يعملون فى حياكة الملابس وصناعة الغزل ، وصبغ المنسوجات وحلج الاقطان ، وتصميم الابنية ، ومقاولة البناء وصياغة الذهب والفضة والحدادة ، وصناعة الارائك والخزف وصيد الاسماك والزراعة. وقد انضم الآن الى صانعى الارائك عدد كبير من النجارين والمنجدين الذين يحظون بأسواق داخلية واسعة ومزدهرة . وتحظى صناعة الذهب والفضة أيضا بأسواق مماثلة . أما حاكة الثياب ، فقد افلحوا ، بتركيز نشاطهم على الانواع الاكثر جودة وبذخا من القماش ، فى تحديد الاسعار العالية التى يريدونها . وحمل الاوروبيون الى افريقيا سلعا جديدة وحاجيات من النوع الذى يفوق فى اتقانه الموجود منه فى افريقيا . ويتولى التجار الاوروبيون تزويد الاسواق الافريقية بهذه السلع مستعيدين الى أوروبا جميع الاموال التى تستنزف على صناعتها وتجارتها . ونشأت الاحتكارات بكل ما تعنيه من تحديد استبدادى للاسعار ، واستغلت الارباح البسيطة التى يجنيها المحتكرون فى افريقيا ، فى اقامة صناعات تنتج السلع التى تحدثنا عنها — ونمت الاجراءات القيدية بصورة ضخمة ، اذ أرغم الصناعيون الاوروبيون تجار افريقيا على ان يدركوا بأن لهم وكلاءهم التجاريين فى افريقيا .

اما بالنسبة الى التطور الصناعى فى افريقيا . فقد ترك امره الى الشركات الخاصة التى اظهرت بعض التمنع عن طريق دفن رساميلها وعدم اظهارها ، اذ ان نسبة الفائدة لم تكن مرتفعة الى الحد الكافى ، وكانت مجالات الربح اكثر اشراقا بالنسبة الى الاستثمار المباشر. ولم تكن المصلحة الاجتماعية ذات وزن كبير ، ولذا لم يجر تطوير طرق المواصلات على نطاق قومى واسع . ولم تتطور السكك الحديدية ولا الطرق البرية أو الطرق المائية تطويرا كافيا . ولا سيما الاخيرة منها فقد ظلت مفتقرة الى اى تطوير . وعوضا عن ذلك فقد قذف بأموال ضخمة فى حفائر المناجم ، اذ أن الشركات الخاصة كانت تأمل ، ولها الحق فى هذا الامل ، فى اسرع المرابح وأوفرها عن طريق هذه المناجم . واتجهت الجهود فى الحقل الزراعى الى انتاج الحاصلات لتصديرها لا لاستهلاكها محليا . واتسعت مثلا ، زراعات البن والشاى والكاكاو والقطن ، اتساعا كبيرا ، بينما ظل الافريقيون يعانون من نقص الغذاء . وعلى الرغم من ان افريقيا محاطة من جميع جهاتها بالمحيطات ، فانها تضطر الى استيراد الاسماك المحفوظة والمعلبة من الخارج ، ونحن نرى أساطيل الصيد اليابانية والاوروبية تجول فى مياه الساحل الغربى

لافريقيا حاملة ما تصيده منها الى بلادها ، حيث يجرى تعليبه ، ويعاد تصديره فى صفائح حمراء الى افريقيا الغربية نفسها . ولم يجر أى تطوير للمهارات الصناعية فى القارة . أما اليد العاملة الافريقية فيستنزف نشاطها ، وتبتز حيويتها فى الاعمال العادية فى المزارع والمناجم .

واحتياجات افريقيا الاقتصادية ضخمة كل الضخامة ، فهى فى حاجة الى المدارس والجامعات والكليات والمعاهد الفنية ، والى المستشفيات والطرق والسكك الحديدية ومشاريع المياه والكهربا والغذاء واستغلال الثروات المعدنية . ولا يستطيع الافريقيون الاعتماد على انفسهم كثيرا فى تأمين حاجاتهم . اذ ان دخولهم الشخصية ضئيلة بينما الاسعار مرتفعة كل الارتفاع . ومن هنا اصبح من واجب الدولة ان تؤمن الخدمات للناس على نطاق غير مألوف فى كثير من البلاد . ولذا بات لزاما تأمين الاموال اللازمة للانفاق على هذه الخدمات . وبات من الضرورى ايضا أن تنتج افريقيا الثروة التى تحتاج اليها .

وليس ثمة من شك فى ان هذه المشاكل هى من الشدة والخطورة بحيث تتطلب حلا جذريا . والحل الجذرى هو التصنيع ، وسيؤدى هذا التصنيع ايضا الى توسيع منتجات افريقيا الاولية . وهناك طريقان مفتوحان للتصنيع : احدهما زراعى والآخر صناعى . وعلى افريقيا أن تقوم بعملية تقييم صحيحة لمواردها فى كل من السبيلين لتقدير امكانياتها . ويبلغ عدد سكان افريقيا مائتى مليون فقط، بينما تبلغ مساحتها نحوا من ثمانية عشر مليونا من الاميال المربعة ، وهى مساحة تعادل اوروبا والولايات المتحدة والهند والصين معا . ومن الواضح أن أرضا مساحتها فى مثل هذا الاتساع لا يمكن أن تكون مشكلة لافريقيا . ففى القارة مساحات شاسعة من الاراضى الشديدة الخصب، والتى لا تحتاج الى وسائل كيماوية لتأمين خصوبتها . وفى افريقيا موارد هائلة من الاحراش والحيوانات والمواد المعدنية ، ولكن عدد العمال الفنيين فيها محدود ، ولذا فهى مفتقرة الى اليد العاملة الفنية والى الرساميل . وقد لا تكون الحاجة فى الصناعات الزراعية كبيرة الى اليد العاملة الفنية بقدر ما تحتاج اليها الصناعات المصنوعة .

وفى غابات افريقيا الوسطى كميات كافية من الاخشاب لاستهلاك الافريقيين وللتصدير ايضا . وهناك كميات وفيرة من الاخشاب التى تستخدم فى استخراج الصباغات ومن الاخشاب اللازمة لصنع الخزائن . وفى الامكان اعداد وديان افريقيا وسهولها وهضابها لزراعة الخضر والحبوب والفواكه . وفى الامكان ايضا زراعة كميات ضخمة من الطباق

والبطاطس والشوفان والشعير والبن وقصب السكر وجوز الهند والنباتات التى تخرج الزيوت والذرة والطماطم والبصل والفستق والتوابل والكاكاو والمطاط والقطن وعشرات أخرى من الحاصلات المهمة . وفى الامكان كذلك أن تصبح المساحات المزروعة فى افريقيا الشرقية وحدها معادلة للولايات المتحدة ، وان تزرع بمحاصيل البلاد الحارة والمعتدلة لتصديرها . ويمكن عن طريق تنويع الفواكه المتوافرة الآن تأمين الوفور اللازمة لاعدادها للتصدير . فالأناناس الذى ينتج فى افريقيا الغربية يعتبر من اجود انواع الاناناس فى العالم ، ولكن طاقته على البقاء مدة طويلة غير متوافرة ولو امكن العثور على طريقة لحفظه، فانه سيجد سوقا عظيمة للتصدير ولا شك .

وليس ثمة من شك فى ان هذه الاهداف الزراعية تخلق بالطبع المشاكل الخاصة بها ، سواء منها التقنية أو الثقافية . وفى الامكان حل جميع المشاكل التقنية . وأما اذا أخذنا بعين الاعتبار أن نسبة كبيرة من العمال الافريقيين قد امتصتهم الاعمال التى لا علاقة لها بانتاج المواد الغذائية فاننا ندرك اننا اذا استثنينا الكاكاو فان جميع ما ينتجه فلاحو افريقيا يستهلك فى إطعام كاسبى الاجور من الافريقيين . وهناك اجراءات زراعية معينة لم تؤد الى اية نتيجة . وقد ادت طريقة تحويل الزراعة من مكان الى آخر ، وتوسيع مساحة الافدنة لكل فرد الى الاضعاف من خصوبة الارض فى بعض المناطق الافريقية . ولما كانت المساحات بالافدنة التى يملكها الناس آخذة فى الازدياد ، فان الفائض من الاراضى آخذ فى النقصان ، كما ان الفترة الزمنية التى يسمح فيها ببقاء قطعة من الارض فى حكم «المراحة» للاستجمام من عناء الفلاحة، استعدادا لاعادة زراعتها تنخفض انخفاضا كبيرا يضاف الى كل هذا ما تحدثه عوامل التعرية الطبيعية فى الارض من سلب لتربتها. وما لم يسارع الافريقيون إلى استخدام الوسائل الفعالة لحفظ التربة وزيادة خصوبتها عن طريق الاسمدة الكيماوية ، فان الزراعة التى يقوم بها الافريقيون انفسهم ستسير فى طريق الاضمحلال والانحطاط ، ويحتاج الافريقيون الى وسائل محسنة للبذار والتعهد والحصاد ، للحصول على نتاج اجود وافضل ، ولما كانت الاسمدة الكيماوية باهظة التكاليف فان فى الامكان استخدام الاسمدة العضوية بكميات أوفر ، كاجراء اقتصادى يوفر المال ، وقد اجريت التجارب والبحوث العلمية فى مواضيع اختيار المحاصيل وتحديد الدورات الزراعية لانتقاء المحصول الذى يصلح لكل شكل من اشكال التربة . ولا ريب فى ان الافريقيين قد استخدموا نظام الدورات الزراعية حتى قبل توغل الاوروبيين فى بلادهم ، وهم يستخدمون على سبيل المثال الذرة والقطن والفول السودانى والفول

فى دورة زراعية كاملة، ومحاصيل الدورة الزراعية هى الوسيلةالفعالة للحفاظ على محاصيل جاهزة دائما فى افضل مستويات الاسعار بسبب عامل الموسم الزراعى ، كما انها وسيلة من وسائل تقليل الفترةالزمانية فى اراحة الارض الزراعية .

وتصلح المناطق الجافة من افريقيا كشمال غانا ونيجيريا والفولتا العليا وغيرها . كأراض للمراعى أكثر من صلاحيتها للزراعة . وفى وسع الاكثار من تربية الحيوان فىهذه المناطق وفىغيرها ككينيا وتنجانيقا مثلا أن ينتج كميات كبيرة من الحيوانات التى تستخدم فى استخراج الحليب وتأمين اللحوم ، اكثر من حاجات افريقيا نفسها . وصحيح ان هناك جماعات من الرعاة فى أفريقيا يحسبون مواشيهم بما يملكونه من رءوس منها بدلا مما ينتجونه من حليبها ، وهؤلاء تحول تقاليدهم شبه الدينية بينهم وبين تسويق حيواناتهم أو بيعها . ولكن هناك اماكن اخرى فى افريقيا كافية لتربية اعداد كبيرة من الماشية . وصحيح ايضا أن تربية المواشى فى افريقيا كافية لتربية اعداد كبيرة من الماشية . وصحيحايضا أن تربية المواشى فى افريقيا تتعرض لنكبات من الاوبئة المنتشرة كالحمى الاستوائية والبول الدموى وامراض المثانة والجمرة والطاعون البقرى وحمى الساحل الشرقى . ولكن فى الامكان التغلب علىجميع الاوبئة عن طريق خلق المناعة أو التطعيم أو الفصد او العزل . وقد ازداد عدد الماشية فى كينيا واوغندا حيث ارتقت أساليب مكافحة الامراض الحيوانية رقيا كبيرا بنسبة هائلة . ويمكن حل مشاكل المرعى عن طريق تربية أجود انواع الماشية لانتاج الحليب واللحوم وكذلك عن طريق السيطرة على عمليات الرعى للحيلولة دون ضياع تسهيلاتالمرعى ضياعا كليا عن طريق أضعاف المراعى ، وكذلك بزيادة هذه المراعى فى المناطق القاحلة والمجدبة . وفى وسع مشاريع الرى أن تؤمن المياه للاراضى الصالحة للمرعى حيث يتوافر العشب ولكن ينعدم الماءالصالح للشرب وتحصل بعض الماشية فى جنوب افريقيا على الماء من الاجران التى يختزن الرعاه المياه فيها ، وينتظر من بعض المواشى أيضا أن تختزن الماء فى ابدانها عندما تصل الى احد الجداول . ولا ريب فى ان تحويل تربية الحيوانات الىعملية اقتصادية نافعة عند قبائل «الانكول» فى افريقيا ، يخفف الضغط على الاراضى التى تستخدم فى الرعى .

وفى الامكان ايضا حل المشاكل الزراعية ، اذ انها تتعلقعلىالغالب بالموقف العام من الارض . وكثيرا ما تعقد المقارنة بين الحقوق الفردية للمزارعة وبين الحقوق الجماعية فى الارض لمصلحة الاولى طبعا . ويقال ان الحقوق الجماعية تنطوى على بعض المخاطر التى تهدد أى تطوير خاص بالارض ، بينما يقال ان الحقوق الفردية فى المزارعة تدفع

اصحابها الى اتباع سياسات بعيدة المدى لتطوير الارض . ويقال ايضا ان الانسان اكثر اندفاعا فى اقتراض المال لتطوير الارض التى يملكها منه لتطوير الارض التى يسمح له مجرد سماح باستخدامها . وقد يطلق على هذه النظرية الانمائية اسم نظرية السيارة الخاصة مقابل نظرية سيارة الباص التى يستخدمها الفرد فى تنقلاته .

ولكن النظام التقليدى لمزارعة الاراضى لا ينطوى على اى اخطار تهدد استقراره وضماناته ، لان تخصيص الارض للاسرة كان دائما فى حكم الالتزام المدنى وقد اوجد استغلال الاراضى دائما حقوقا تفصيلية أو ايثارية . ففى روديسيا الشمالية مثلا حيث سنت الحكومة نظاما لايجار الارض ، نجد ان المتصرفين بالارض يجدون فى عدم وثوقهم من تمكينهم من دفع قيمة الايجار فى السنة التالية سببا للامتناع عن القيام بعمل كبير فى الارض التى يتصرفون فيها فى هذا العام . ولاتقوم المشكلة الرئيسية فى وجود اخطار تهدد اطمئنان المرء لبقاء الارض فى حيازته ، وانما تقوم فى توفير القروض وفى طراز هذه القروض التى يمكن توافرها. وهناك دائما خطر ماثل فى ان القروض التى يتم الحصول عليها من مصادر بعيدة لا علاقة مباشرة لها بالزراعة كالمصارف مثلا ، قد تستخدم فى الانفاق على أغراض أخرى غير الاغراض الزراعية . وتكون نتيجة مثل هذا الوضع ان المزارع بدلا من أن يعمل على تحسين مزرعته وبالتالى على زيادة دخله ، يكتفى بمجرد تقدير ما قد تنتجه ارضه من دخل فى محصولها المقبل ، ويرهن هذا الدخل مقابل الحصول على قرض أقل منه بكثير ، وذلك لان الفرق يستنفد فى دفع فوائد القرض نفسه ، وقد اضاع عدد كبير من المزراعين مزارعهم ، بعد أن استولى عليها المرابون الشريرون . والذين يعيشون على المضاربات من هذا النوع .

وهناك من يقول انه يجب ان يعهد بكافة اراضى الدولة الى الحكومات المركزية بوصفها السلطة الجديدة المطلقة فى المنطقة ، ولكن مثل هذا الاجراء يؤدى الى المغالاة فى اضعاف الاتجاهات التصديعية والتفسيخية للوشائج القبلية ، وحتى لو تحقق هذا الرأى ، فانه سيجعل من الادارة شيئا مستحيلا ، ويؤدى الى قيام اكثر الانظمة البيروقراطية تعسفا وظلما ، لاسيما وأن وسائط النقل فى أفريقيا ما زالت فقيرة بوجه عام . وسيكون من المستحيل بالنسبة الى اية حكومة افريقية ولا سيما فى البلاد التى يسود الاجحاف فيها توزيع الارض كما هى الحال فى كينيا مثلاً أو فى جنوب افريقيا الا تصادر الارض لتتولى اعادة توزيعها بشكل اكثر عدالة وانصافا .

وفى وسع نمو التعاونيات الزراعية ان يحدث ثورة زراعية فى

افريقيا وفى مكنة هذه التعاونيات ان تضمن تحسين الاحوال الزراعية عن طريق قيام الزراعة الآلية والمشتركة فى مساحات اوسع من الاراضى . وتؤدى الاساليب التعاونية ايضا الى تبسيط مشاكل النقل عن طريق امتلاك التعاونيات لسياراته ، وتستطيع الانظمة التعاونية أن توفر القروض للمزارعين وان تشرف على ادارتها وتوزيعها بحيث تضمن أن جزءا كبيرا منها على الاقل سيصرف على مشاريع تحسين الزراعة. وفى وسعها ايضا ان تملك الآلات التى تستطيع ان تؤجرها الى المزارعين بأسعار ارخص من تلك التى يدفعونها فى الوقت الحاضر للحصول على اليد العاملة لزراعة اراضيهم ، مع ما يعنيه ظهور هذه الطبقة من دوامات اثقال عاتق الفلاحين بالديون والاجور التى يدفعونها .

وسيكون من الضرورى بالنسبة الى أية حكومة افريقية فى شرق افريقيا وجنوبها ان تحصل على الارض لتوزيعها توزيعا عادلا . وعندما تفعل اية حكومة ذلك ، فانها تجد نفسها مضطرة بصورة طبيعية الى التعويض على الملاك السابقين على ما قاموا به من تحسينات للارض . ولكن عندما ترتفع قيمة اية قطعة من الارض المملوكة ملكية خاصة ، بسبب التحسينات التى ادخلتها الحكومة عن طريق المشاريع العامة . فان الحكومة المشترية للأرض لا تجد نفسها مضطرة الى دفع هذه الزيادة الالزامية للمالك الذى لا فضل له فى رفع سعر ارضه . ويذكر القارىء انى قلت فى مكان سابق ، ان الأنظمة التقليدية الافريقية كانت تفرض دفع التعويض للفريق المتضرر من سرقة او اذى ، لا بالنسبة الى قيمة سلعته المسروقة أو ملكيته المتضررة فقط ، بل وبالنسبة الى ماكان سيحصل عليه من أرباح محتملة ومعقولة من هذه السلعة أو تلك الملكية ، وهى التى حرم منها الآن نتيجة السرقة او الضرر ، وذلك بالنسبة الى الفترة الواقعة بين ارتكاب الجريمة وتسوية القضية بصورة نهائية . لكن هذا النص لا يدخل فى الحساب على أى حال أية تقديرات مستقبلة للمدة التى تقع بعد التسوية . وهكذا لما كانت أية زيادة فى قيمة ملكية خاصة ، ناجمة عن عمل تطويرى قامت به الحكومة فى منطقة قريبة من تلك الملكية الخاصة ، وانفقت عليه من الموازنة العامة . تعتبر منطقية فى حكم التقديرات المستقبلة ، فان العدالة الاجتماعية القديمة لا تسمح بدفع هذه الزيادات فى قيمة الملكيات الخاصة عند تقدير التعويضات التى يجب على الحكومة أن تدفعها لاصحاب هذه الملكيات .

وتحتل احتمالات الموارد الناجمة عن مشاريع التصنيع مكانا مشرقا كل الاشراق . وفى افريقيا تنتج أكبر كميات من الصفيح فى العالم . وقد أفادت أساليب الانتاج المكثف فائدة كبرى من الكوبالت الافريقى ، الذى لم يكن غنى عنه فى يوم ما فى صناعة الفولاذ اللازم للآلات السريعة ،

واذا ما استثنينا الموارد السوفياتية ، فان الكونجو وكندا ، هما المنطقتان الوحيدتان في العالم اللتان تنتجان الكوبالت بكميات كبيرة ومهمة ، وتقوم أضخم مخزونات للنحاس في افريقيا وذلك في الهضبة المنتجة للنحاس في كاتانجا وروديسيا الشمالية ، وتمثل مخزونات الراديوم في الكونجو ستين في المائة من موارد الغرب من هذا المعدن الثمين النادر . وهناك كميات ضخمة من الذهب في جنوب افريقيا وفي غانا ، وتعتبر ماسات افريقيا من أجود أنواع الماس وأضخمها في العالم. وفي غانا وسيراليون كميات كبيرة من الماس الصناعي ، وتنتج افريقياثلث انتاج العالم من معدن الكروم والفنديوم ، كما تنتج خمس الانتاج العالمي من المنجنيز . ويمكن القولبأن أراضي غانامجبولة بالمنجنيز والبوكسيت ولا تعتبر افريقيا مفتقرة الى الحديد الذي يوجد متوافرا في جنوب السودان وجبال افريقيا الشرقية ، وفي القارة بعض الفحم والنفط . وليست هناك منقارة حبتها الطبيعة بالموارد الطبيعية كما حبتافريقيا. ولا تفتقر الا الى شيئين هما المهارة الفنية ، ورأس المال ، وهذانالعاملان ضروريان كل الضرورة لتحويل الموارد الطبيعية الى منتجات جاهزة . ولو قدر لافريقيا أن تحسب مواردها على صعيد قاري ، فان في وسعها أن تقول بأنها تملك ثقافة موحدة وسكانا صالحين ونشاطا ومخزونات معدنية ، واحتمالات زراعية ، وحسن نية دولية ضمن حدودها. وتملك افريقيا في داخلها كالاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة جميع الموارد الأولية التي تحتاج اليها في مشاريع تصنيعها الصناعية .

وفي وسع افريقيا أن تقلل من خطورة افتقارها الى الرساميل عن طريق تحسينها لزراعتها وتجويدها . ويمكن اعتبار نقص السكان في القارة على هذا الصعيد موجودا له قيمته الناقصة ، اذ أنه يوحي بالتصنيع الزراعي كوسيلة من وسائل التقدم الاقتصادي ، وتعتمد الدانمارك ونيوزيلنده مثلا على الاقتصاد الزراعي كل الاعتماد ولقد ساعدهما نقص السكان في أراضيهما على بناء مثل هذا الطراز من الاقتصاد ، اذ سهل عليهما تجميع كميات كبيرة من الفائض لتصديرها. وهناك في الواقع مزية للصناعة الزراعية وهي ان المهارات الفنية التي تتطلبها أكثر بساطة ، وأسهل على التوفير اذا ماقورنت بالمهارات التي تتطلبها صناعة المواد الصناعية على المدى الطويل . كما ان المنتجات الزراعية أسهل على التصريف من السلع الصناعية .

وهناك اجراءات أخرى اكثر حماسة يجب على افريقيا اتباعها اذا كان لا بد من علاج النقص الخطير في الرساميل . ومن الواجب اتخاذ الخطوات اللازمة للتأكد من عدم الاغلاق على الرساميل التي يملكها أناس من افريقيا في صناديق المصارف الاجنبية وعلى افريقيا أن تؤمن

لنفسها مصارف كبيرة ذات طابع قارى ، لتسد النقص الظاهر فى النشاط عن طريق تامين الموارد الاضافية اللازمة للنشاط المتزايد ، أما بالنسبة الى عمل المصارف الاجنبية فى افريقيا ، فان مبالغ محدودة من المال الذى تجمعه هذه المصارف يحتفظ بها محليا فى هذه المصارف لفتح الاعتمادات وتامين السلف بينما ينقل القسم الاكبر منه الى أوروبا. ولعل الطريقة المثالية فى اصلاح هذا الخلل تقوم فى انشاء مصارف للدولة ، ومصارف تعاونية تتولى اقراض الافريقيين ما يحتاجون اليه للنهوض باقتصادهم .

ومن الواجب تشجيع التوفير فى المصارف الافريقية ، شريطة أن يحرص كل الحرص على اضعاف الاثر الحصرى الذى يتركه التوفير على عمليات الاستثمار ، اذ أن توفير المال يعنى عدم استثماره ، ومن الصحيح على اى حال ان المصارف الرسمية والتعاونية تستطيع أن تستخدم ما يجمع من الودائع فى اقراض المشاريع الاقتصادية النافعة (١) .

ويعتبر الاشراف على تحديد الارباح اجراء آخر من الاجراءات التى يمكن اتخاذها لمساعدة الرساميل على التكون . اذ طالما ان الارباح التى تجنى من الارض الافريقية تتسرب الى خارجها ، فان هذه الارباح تضع قيدا منظما على نمو الرساميل فى افريقيا . ومن الواجب ايجاد التناسب أيضا بين الاجور والانتاج ، فحيث لا يبلغ الانتاج الحدود القصوى ، يجب ألا ترفع الاجور من قبل الدولة ، لما يؤديه رفعها من عرقلة لنمو الرساميل . وقد يكون من الشاق فى بعض الحالات بالطبع، تخمين ما يحققه العمل من انتاج ، والجهاز الحكومى ، والمكتب السياسى والجهاز الاكاديمى ، هى المجالات الثلاثة التى تقدم الامثلة على استحالة تحديد الانتاج وقياسه تحديدا وقياسا معقولين ، وعندما يتحدث المرء عن الانتاج ، يتحتم عليه أن يقول بأن التنظيم العائلى فى أفريقيا لا يؤدى بأية حال من الاحوال الى خفض الانتاج وهبوطه .

واستكمالا للبحث فى الامثلة عن الطرق التى يمكن بناء رءوس الاموال بوساطتها « أرى أن اقول » أن من واجب افريقيا ، ألا تكون

---

(١) يبدو من هذا القول ومن الاقوال التى تليه ، ان المؤلف قد حصر تفكيره في النظام الاقتصادى الراسمالى ، الذى يعتمد المشاريع الفردية أو القطاع الخاص اساسا له . وهو يبدو من هذا القول ، وكأنه يريد ان تتولى الاموال العامة تزويد القطاع الخاص فقط بما يحتاج اليه من الرساميل لمشاريعه الاقتصادية ، بينما يقضي النظام الاشتراكى، وهو الاصلح كما ثبت علميا للبلاد الافريقية ، بأن تستخدم الاموال العامة في تمويل القطاع العام ، الذى يعود نفعه على المجموع بدلا من الافراد .

— المعرب —

شديدة الخجل ، وأن لا يحول خجلها دون اقدامها على الاقتراض ، من الواجب دعوة الرساميل الاجنبية الى العمل فى افريقيا ، شريطة أن تدار بأيد افريقية ، وذلك عن طريق ضمان الحماية الوقائية اللازمة للاسراع فى اقتباس الافريقيين للمهارات الفنية .

ويجب اقامة عدد من مراكز التوزيع لتصريف بعض المستودعات الاستهلاكية القادمة من أوروبا ، ولقد قيل بأن الصناعيين الاوروبيين كانوا يرفضون فى الماضى تحويل بعض صادراتهم الى وكلاء تجاريين من الافريقيين مرتكبين خطأ كبيرا فى اظهار ايثارهم للوكلاء الاوروبيين الموجودين فى افريقيا . ولكن فى الامكان تحطيم هذا الطراز من الايثار الاحتكارى ، فلو أخذ المرء السيارات على سبيل المثال ، أمكن خلق هيئات افريقية لتوزيعها ، تتولى الحكومة ضمانها ، وفى وسع هذه الهيئات أن تتفاوض مع الصناعيين الافراد فى أى بلد من البلاد لتصريف ماينتجونه من سيارات ، فلو فرض الاتحاد البريطانى لتجارة السيارات وصناعتها مثلا اجراء مثل هذه المفاوضات مع الهيئات الافريقية ، كان فى مكنة هذه الهيئات أن تتفاوض مع شركة رينو الفرنسية للسيارات أو مع شركة فولكسفاجن الالمانية أو مع منظمات انتاج السيارات الصغيرة فى روسيا أو ايطاليا ، ولا ريب فى أن أية واحدة منها على استعداد لعقد الاتفاقات اللازمة مع الهيئات الافريقية ، وسيكون فى الامكان عن هذا الطريق الاحتفاظ ببعض الارباح التى تجنى من توزيع السيارات داخل افريقيا لتأمين الرساميل اللازمة للمشاريع الاقتصادية. وسيكون من الخطورة بمكان عظيم استخدام هذه الطريقة بأسلوب جماعى بالنسبة الى جميع المستوردات الاستهلاكية ، اذ انها قد تؤدى الى الخفض من الكفايات فى التوزيع وقد تشجع على قيام الاحتكارات لكل ما فى هذه الاحتكارات من شرور (1) ولكن فى الامكان على أى حال اللجوء اليها كأسلوب ناجح بالنسبة الى نماذج متفرقة من السلع المصنوعة .

وحرى بالمرء عند دراسة المشاكل السياسية فى أفريقيا أن ينظر الى اشكال المنظمات السياسية التى نشأت فى القارة وترعرعت ، اذ أن هذه المنظمات هى التى ستتولى حل هذه المشكلات السياسية ، وان ادراك هذه المشاكل وتصويرها لايقومان الا على صعيد هذه المنظمات وضمن

---

(1) برهان جديد على التفكير الرأسمالى المسلط على المؤلف اذ أن قيام القطاع العام عن طريق المؤسسات العامة بهذه العملية يزيل المخاوف التى تساور المؤلف ، أما موضوع الكفايات ، فتفكير يشير الى شىء من العقد والمركبات النفسية التى يجب أن تتحرر افريقيا منها تمام التحرر . — المعرب —

مجالاتها ، وهناك مشكلتان أساسيتان ماثلتان في أعمـــاق السياسات الوطنية الافريقية ، أولاهما مشكلة الســـلطان ، وثانيتهمـــا مشـكلة الوحدة أي مشكلة الطريقة التي تتمكن بواسطتها جماعة فرعية من أمة أو في بلاد من الحصول على السيطرة التنفيذية والتشريعية ، ومشـــكلة الطريقه التي يمكن بواسطتها الحفاظ على ولاء الشعب او ضمان تسليمه بالامر الواقع على الاقل ، وقد شغلت المشكلة الاولى أذهان المنظمـــات السياسيه الافريقية أكثر من المشكلة الثانية ، وهذا شـــأن الحركات الوطنيه دائما . فهذه الحركات تفرض باستمرار شـــكلا من أشـــكال الانسجام والوحدة الوطنية . وحدة تضـــم الصفوة ، وانســـجاما في السياسات الوطنية . ومن هنا تنشأ المقارنة الجديدة التي باتت مألوفة بين الاحزاب الظهيرة المناصرة وبين الاحزاب الجماهيرية ، والتي تعتمد أسلوب التنظيم ، بعد أن كانت تعتمد في الماضي وجود الصفوة في هذا الحزب والجماهير في الحزب الآخر .

وتسيطر الاحزاب الجماهيرية في أفريقيا اليوم سيطرة كاملة لاشك فيها ولا جدال . وكان السائد على الاعتقاد قبل بضع سنوات أن أحزاب الصفوة فيما كان يدعى بأفريقيا الفرنسية هي التي تسيطر على المسرح بدعم من الادارة الفرنسية . ولكن بانتصار الحزب الديمقراطي لســاحل العاج ، انتهى عهد سيطرة أحزاب الصفوة في أفريقيا الفرنسية ، ونحن نطلق على هذه الاحزاب اسم « الصفوة » لانها منظمة حول عدد من الشخصيات من ذوي النفوذ والمكانة ، ولانها لاتحصل على ولاء الاتبـــاع لها عن طريق التجاوب المباشر مع رغباتهم ، بل عن طريق مافي أســماء الشخصيات الاقليمية التي تؤلف هذه الاحزاب من هالات سحرية ، وما تستثيره هذه الهالات من ولاء ، ولكن لما كانت أحزاب الصفوة تهمـــل تفاصيل البيانات التي يستخدمها أشخاص كراعي كنيســـة «بري» في تهدئة المناطق التي ينهبونها ويسلبونها ، وتهمل أيضا تثبيت أقدامهـــا على صعدان الفروع المحلية ، فان هذا الاهمال يؤثر تأثيرا خطيرا عـــلى استقرارها ، اذ أن الضعف الذي قد تصاب به شخصية مركزية من هذه الشخصيات يؤدي الى ضعف الدوامة التي يثيرها صاحب هذه الشخصية ضمن نطاق حزب الصفوة الذي ينتمي اليه ، ويتخذ النقاش داخل هذه الاحزاب ، في أوقات الازمات صورة لامنطقية ، ويتحول الى شكل مهاترات تتعلق بالتشهير بالشخصيات الحزبية بدلا من المجادلات المنطقيـــة التي تتناول حسنات الحزب ومساويه . ويتخذ سلوك الاتباع المحايين للحزب صورة هستيرية حقيقية . وهنا يعرض الحزب صورة من صور العقد والتناقضات التي تطبعه بطابعها ، وهي الافتقار الى الانضباط المنسق الذي تتميز به الاحزاب الجماهيرية ، كما يعرض ميلا واضحا الى الانقسام

الجنونى . وتتمثل الشخصيات التى يركز حولها تأليف أحزاب الصفوة فى أفريقيا ، فى صورة الشيوخ القبليين ورجال الاعمال الناجحين ، ولعل أصدق الأمثلة على أحزاب الصفوة هذه حزب «الاتحاد النيجيرى للمستقلين وانصارهم» فى النيجر وحزب مؤتمر الشعب لشمال نيجيريا فى نيجيريا وهنـــاك أحزاب عنصرية يمكن أن تحسب فى هـــذه الزمرة من أحزاب الصفوة لانها تستند الى الاحاسيس الرياسية للكيانات القبليـــة . ومن أمثلة هذه الاحزاب العنصرية «حزب التضامن السنغالى» الذى يضم كبار الشخصيات الريفية فى البلاد . وقد تكون أخطار القبلية فى التجمعات الكبيرة وهى التى انتشرت هذه الايام فى أفريقيا أكثر منها فى أى وقت آخر ، جسيمة كل الجسامة ، وهى تنبع على الغالب من تنظيم الأواصر العنصرية فى قوى سياسية فعالة . ويمكن تفسير انتصار هذه القوى السياسية بأنها تغليب لتجمع عنصرى معين ، وهنا تثور النزعات الانفصالية الكامنة عند الشعوب الافريقية الواسعة الخيال ، وتشتد خطورة هـــذه الأحزاب العنصرية حقا فى كينيا وأوغندا والكونجو ، لان هذه البلاد هى من المناطق التى لم تتمكن فيها مثل هذه الاحزاب من احراز الأغلبيـــات الحاسمة ، أما فى اتحاد نيجيريا حيث ترتبط الاحزاب بالتجمعات العنصرية فان هذه الاحزاب تمكنت على الصعيد الاقليمى من احراز أغلبيات ساحقة تكاد تشبه الاجماع ، ومن هنا لم يعد لوجود التجمعات العنصرية الصغيرة أية أهمية بحيث تؤلف مشكلة للوحدة الاقليمية فحزب العمل مثلا مرتبط بقبائل اليوروبا فى غرب نيجيريا ووجود أقلية ضئيلة من «الايبو» فى هذا الاقليم تؤيد المجلس الوطنى لنيجيريا والكمرون ، وهـــذا الحزب المرتبط بقبائل (الايبو) لايثير أية مشكلة خطيرة بالنسبة الى حزب العمال وليست الاحزاب العنصرية دائما من أحزاب الصفوة ، اذ أن كلا من حزبى «المجلس الوطنى لنيجيريا والكمرون» و «العمل» يستندان على الرغم من زعامتهما التقليدية على تأييد الجماهير .

ويمكن القول بالنسبة الى أحزاب الصفوة ، ان الروابط الداخلية بين فروعها روابط ضعيفة دائمـا وان تخصصها سيء كل السوء ، وانها إذا ماقورنت بالاحزاب الجماهيرية ، فانها تبـدو مفتقرة الى الانضباط ، والى الاسهام المباشر من أعضائها فى أعمالها اذ أنها تعتمد فى الغالب على الأنصار والمؤيدين أكثر من اعتمادها على الأعضاء ، وكثيرا ما تتعارض الطبيعة الشخصية لقيادة أحزاب الصفوة هذه مع نمو عضويتها بانضمام شخصيات الصعدان المحليـــة اليها . وكثيرا ماتحـــدث المشاجرات والانقسامات فى صفوف هذه الأحزاب ، وتكون غالبا نتيجة صـــدام بين شخصية محلية كبيرة ، وبين زعيم قومى ، وهنا لابد وأن تنشق جماعة تؤيد تلك الشخصية على الحزب وتخرج منه ويحدث أحيانا خـلاف بين

بعض الصغار من القادة المحليين ، وهنا تكون النتيجة الطبيعية ، أن يمنى الحزب بالخمول والكسل ، بعد النشاط والحيوية . وهنا لابد وان يشتغل قادة الحزب انفسهم بالاضافة الى أعمالهم الاساسية فى اتخاذ القرارات بالتوفيق بين المتخاصمين ، ووضع حد لهذه الخلافات المحلية . ولا ريب فى أن افتقار أحزاب الصفوة هذه الى الانضباط والى الانسجام الداخلى الوثيق ، هو الذى يستهوى عناصر الزعامة والمشيخات القبلية الى الانضواء في صفوفها ، ويؤدى عدم تنظيمها في الوقت نفسه الى الحيلولة دون وصول أي صوت من المستويات الخفيضة للحزب ، الى صف قيادته الكبيرة ، وتتجاوب هذه الاحزاب دائما مع آراء قادتها ، لان هؤلاء القادة يمثلون الرأى العام الوحيد لها ، ولذا فلا يمكن بها أن تضع سياسات تتجاوب مع الخير المباشر والفورى للجماهير . ولما كان شيوخ القبائل قد عثروا فى هذه الاحزاب على فرصتهم الوحيدة فى تثبيت سلطاتهم التقليدية الآخذة في الانحلال والتدهور بسرعة هائلة ، فانهم يقبلون على الانضواء اليها وتبنى أهدافها . وهنا ترى السلطات الاستعمارية فيها ؛ أى فى هذه الاحزاب ، الهيئات التى تمثل ميول الشعب واتجاهاته ، وينال الثقل المحافظ الذى يحمله الشيخ الى حزب الصفوة الذى ينضم اليه محاولا انقاذ مايمكن انقاذه من سلطاته القبلية ، اعجاب السلطات الاستعمارية وتقديرها وتأييدها ، ولكن هذه الاحزاب مالبثت أن منيت بالهزائم الشعبية أمام الاحزاب الجماهيرية . ففى عام ١٩٥٦ هزم حزب الاتحاد السودانى الجماهيرى أحزاب الصفوة في مالى ، كما هزم حزب غينيا الديموقراطى الجماهيرى أحزاب الصفوة فى غينيا ، وحمى وطيس النضال على خطوط موازية فى البلاد التى كانت أحزاب الصفوة تحتل فيها المكانة البارزة ، وقد اتجه النضال أول مااتجه وبصورته الرئيسية ضد التبعية السياسية . وقد حاولت عناصر الشيوخ فى أحزاب الصفوة هذه أن تؤكد حقوقها فى المركز السياسى في الاقاليم التى تنتمى اليها . وفى الوقت نفسه كانت العناصر الجماهيرية تنضم الى أحزاب الصفوة هذه عن طريق تبعيتها لشيوخها وزعمائها طلبا لحمايتهم ولكن هذه العناصر مالبثت أن رأت في الاستقلال السياسى ثورة اجتماعية لاعودة الى الاوضاع التاريخية القديمة ، ووجدت فيه قفزة طويلة الى الامام لا استمرارا للحلقة التى كانت تدور فيها ، وليس ثمة من شك فى أن الجماهير هى التى تفوز فى مثل هذه الصراعات التى تدور مع عناصر الصفوة المختارة فقد تغيرت الأوضاع فى أفريقيا اليوم . وباتت عناصر الصفوة معرضة للهزيمة كل الهزيمة اذ أنها لاتستطيع أن تعد الجماهير بغير الحذر وضبط النفس ولغة الوعى الطبقى ، بينما يستطيع قادة الجماهير أن يعدوها وعودا كلها تفاؤل وخير ، وان يثيروا فيها نوازع الارادة ، ويستفزوا فيها

مشاعر الاحساس بالسلطان ، ويمنوها بالحياة الكريمة التى يتوافر فيها الخير وتسودها الراحة والطمأنينة وهكذا توجه وعود قادة الجماهير اتباعهم الى المبتكرات الاشتراكية ، ومع ذلك لم يستطع حزب سوابا فى النيجر وحزب المجلس الوطنى لنيجيريا والكمرون فى نيجيريا الشمالية، وهما حزبان من أحزاب الجماهير ، ان يقررا مصير النضال مع أحزاب الصفوة لمصلحتهما •

ومن الأمثلة على الاحزاب الجماهيرية الناجحة ، حزب غينيا الديموقراطى ، وحزب مؤتمر الشعب الغانى والاتحاد السودانى فى مالى والحزب الديمقراطى فى ساحل العاج وحزب العمل فى نيجريا والمجلس الوطنى لنيجريا والكمرون فى نيجريا أيضا . ومن بين هذه الاحزاب يضم حزب مؤتمر الشعب الغانى فى عضويته نحوا من مليونين ونصف المليون يدفعون اشتراكات عضويتهم بانتظام ، من مجموع سبعة ملايين يؤلفون سكان البلاد كلها . ويدعى الحزب الجماهيرى دائما وبصورة واضحة تمثيل الشعب كله • أما الأسس التى يرتكز اليها فى ادعاءاته هذه فمتنوعة ومتعددة • ولنضرب على سبيل المثال حزب العمل فى نيجريا ، فهو يتميز بالانضباط الشديد ، وبالتمفصل ، أى الارتباط الوثيق على مختلف المستويات ، وفى وسع أعضائه أن يضعوا السياسات مباشرة وأن يؤثروا تأثيرا مباشرا فى تطبيقها • وليس ثمة من جمود بين أعضائه : وانما يتميزون بالحركة التلقائية الدائمة • ويصور حزب غينيا الديموقراطى مثلا آخر ، بينما يصور الاتحاد السودانى مثلا ثالثا • وقد ادعت هذه الأحزاب الثلاثة بحكم مظهرها هذا انها تمثل ارادة شعوبها ولا شك فى أن مثل هذا الادعاء يقوم على الارقام والحسابات ، التى كان فى الامكان التأكد منها دائما وبصورة مباشرة عن طريق الملاحظة والحساب. ولكن كان هناك شكل آخر من أشكال الأساس ولا علاقة له اطلاقا بالعمليات الحسابية • فقد ارتكز الادعاء هنا بتمثيل الشعب كله : وبتجسيد الارادة الوطنية على أفكار وعقائد ذات طبيعة طليعية وقيادية بالنسبة الى الحزب الجماهيرى • وهنا يكون التأكيد على قيادة الحزب لا على أتباعه وأنصاره • وعلى هذا الصعيد وحده ، يمكن مقارنة هذه الاحزاب بأحزاب الصفوة التى أشرت اليها • فقيادة الحزب تستند الى ادعائها مالها من سلطان على الحزب • ومن ثم تدعى دون أى تحقيق ، تمثيلها لمصالح الشعب ودفاعها عنها ، وتروح بعد ذلك فترسم للشعب مصالحه ، ثم تشرع باسم الشعب فى المطالبة بتحقيق هذه المصالح التى هى الواضعة لها نيابة عنه ، وهنا لابد وان ينمو الميل الى اعتبار الشعب والدولة شخصية متفوقة ، بل شكلا من أشكال الظواهر اللاحقة التى ينظر اليها بعين الاجلال والخوف ، بل ظاهرة بدائية يمكن لنا أن نسميها أيضا

بالظاهرة التي تثير الرثاء ، ولكن الفروق العملية بين الرأيين عند الاحزاب الجماهيرية ، سرعان ماتختفي وتزول مع مضي الزمن ولا يبقى منهـا الا القليل ، وذلك لان هذه الاحزاب تتحول مع الوقت الى الرأى الثانى الذى تعتبر الاحزاب الشيوعية مثلا صارخا له • فالاحزاب الشيوعية تشبه أحزاب الصفوة في حصر عضويتها المباشرة ، ان كانت تشبه الاحزاب الجماهيرية فى دقه انضباطها ومتانة تركيبها ، لكن الانسجام فى قيادتها لايزيد فى كماله على الانسجام الذى يقوم فى قيادات أحزاب الصفوة • ويكون الحماس الثوري الذى يصـل بالحزب الجماهيرى الى مرحـلة الاستقلال السياسى ، والذى تحفزه الرغبة لافى اعادة السلطان الى البلاد فحسب بل والى الشعب أيضا ، ثورة مزدوجة فى حد ذاته ، انه ثورة على الارادة الاستعمارية كما انه ثورة على السيطرة المشيخية القبلية ، وعندما يتحقق الاستقلال السياسى ، يتولى الحزب الجماهيرى قيادة البلاد ، ومن هنا تبدأ عملية التنويم المغناطيسى للشعب تحت ستار التحدث باسمه ؛ ولاستكمال هذه العملية بما فيها من سلطان ، تصبح القيادة متركزة فى أيدى الطليعة السياسية الجديدة ، وكلما كان عدد الرجال القادرين على وضع السياسات باسم الشعب وللشعب كله ، أقل ، كلما كان ظهور الطبيعة الالزامية لذلك الاسم الذى يتخذ صفة سحرية ، أقوى وأشد •

ولكن هذا الادعاء بتحول حقوق الشعب وطاقاته الى أيد جديدة ؛ قد يؤدى الى أعمال وحشية مرعبة • فسرعان مايقال بأن ليس ثمة من فرد يفوق الشعب فى عظمته ومن هنا فان الشعب بأسره ، فرادى ان لم يكن جماعة ، تنحط قيمته بصورة لطيفة عن طريق معجزة ، تقترن باسمه وتحمل هذا الاسم . اما الحقيقة الواقعة وهى أن الشعب يتألف من أشخاص ، فانها تصاب باهتزاز ينقلها الى حدود الغيب التى لاوصـول اليها • ولكن هناك فى أفريقيا على أى حال ، كثيرا من التقاليد البـلدية التى لو حوفظ عليها ، فانها تصون الشعب من أخطار الثورة العاتية وقد باتت أفريقيا الآن فى وضع يمكنها من الامساك بالمشكلة من احد جانبيها فمستقبل أفريقيا يعتمد على مجموعة من الثورات التى تسير فى خطوط متوازية •

ولا ريب فى أن ماضى القارة يكسب الثورات واقعها وصحتها، فالعقلية الانسانية القائمة على المساواة والتى اتسمت بها المنظمات الافريقيـة الاجتماعية التقليدية تستطيع أن تخرج مبادىء يمكن الحكم على صعيدها على أهدافها ووسائلها ، كما يمكن التثبت من صحتها واصالتها ، فلا ريب فى أن هناك أهداف أفريقية الطبيعية من حيث أنها تقف صحيحة ثابتة ومن حيث أن التقاليد الافريقية توصى بها ، ولا بدع والحالة هذه ان كانت

هناك وسائل افريقية الطبيعية أيضا : وفى الامكان اظهار بعض الطرق المتبعة فى التنفيذ على أنها طرق افريقية . ولا يعتمد نجاح الثورات على عظمة أهدافها فقط ، وانما يعتمد اعتمادا كليا أيضا على طرق تحقيقها .

وفى مكنة المثل الثورية التى تعتنقها الاحزاب الجماهيرية أن تحقق الكثير بالنسبة الى ضخامة عدد أتباع هذه الأحزاب . ولكن ضخامة هذه الاحزاب لاتتضح اتضاحا كافيا من حدة مثلها وصرامتها فقط . فمدى تأثير الحزب الجماهيرى يسير فى خط مواز ، مع تعدد فروع هذا الحزب والمنظمات التابعة له . فلكل حزب من هذه الاحزاب منظمات للشباب وأخرى نسوية ، ويكون عادة مرتبطا بالحركة النقابية كما يتولى اصدار الصحف الخاصة به ، ويكون للحزب عند ايضاح مجالات نشاطه ، موضوع وعكس لهذا الموضوع ، وتركيب له ، فهو يميل من ناحية مجالات اهتمامه الضيقة لهيئةسياسية ، تركيبا أو تفاهما عنطريق تخفيف حدة التضارب بين المصالح والحوافز والدوافع أو ازالتها ، وهو من ناحية مجالات نشاطه الثانية ، يغذى نفس الانقسام الموجود بين المصالح. ويوثق نفسالوحدات والولاءات الضيقة ويغذيها ، وكأنه يدعو الى موضوعه والى عكس هذا الموضوع . ولعل هذا هو مفتاح النشاط بالنسبة الى الاحزاب الجماهيرية فى أفريقيا ، فالفرص المتاحة لجميع اعضائها للاسهام اسهاما كاملا فى نشاطها واسعة وشاملة .

وحتى عندما تبدأ الاحزاب الجماهيرية كأحزاب ثورية ، فانها تبدو ميالة الى التسليم بالمسئولية عن الثورة الى أيدى القلة المصطفاة من طليعتها القيادية ، وعلى لرغم منأن هذه الطليعة هى نبتة الحزب الجماهيرى الا أنها سرعان ماتعزل نفسها قلبا وقالبا ، وروحا وعملا ، وان لم يكن لسانا عن الحزب ، ويغدو من الصعب على المرء أن يرى فى النشاط الشخصى لاعضائها انعكاسا صادقا عن المثل الثورية التى يجب أنتوجههم ولا يمكن لمثل أى حزب جماهيرى نما فى أوضاع من العوز والفاقة الفردية والجماعية والمرض والجهل والجوع ، ان تتنكب عن سبيل الاشتراكية . وخير سبيل لقياس اصالة الاحزاب الجماهيرية وصدقها بعد أن تكون قد أنبتت طلائعها القيادية هو فى تبين المدى الذى يمكن به تفسير حياة هذه الطلائع وبرامجها على الصعيد الاشتراكى . وليس فى حكم الحتمى أن تتألف الطلائع الجديدة للأحزاب الجماهيرية من أولئك الذين تأثروا عاطفيا أبلغ التأثر فى ظل الحكم الاستعمارى بالتمييز العنصرى أوالثقافى أو الاجتماعى أو المهنى، أو من أولئك الذين تألموا أشدالألم من هذا التمييز لانهم كانوا فريسة للعجز الذى فرضه هذا التمييز ، ولانهم كانوا قادرين فى الواقع على الافادة من الحريات التى كانوا محرومين منها فكثير من هؤلاء كانوا أحيانا ينقمون على الدول الاستعمارية استغلالها لشعوبهم،

وما تتعرض له مصائرهم صدفة من جراء هذا الاستقلال . وكانت نقمتهم تشتد من جراء الحرمان الذى تعرضوا له هم ، وعانوا منه أشد العناء ولكن بعض هؤلاء كانوا أحيانا يبقون في الطلائع الجديدة التى انبثقت من الأحزاب الجماهيرية . وعندما كانوا فى أيامهم الثورية ، كانوا يحسون بلهفة عارمة الى العدالة الشاملة التى تترجم نفسها فى اتجاهات اشتراكية من النوع الذى يعطى للاشتراكية أوسع المعانى والذى تسود فيه العدالة على نطاق شامل واسع ، معبرة عن نفسها وعن وجودها بأسرع الطرق والوسائل ، ولكن أفراد الطلائع سمحوا فى بعض الحالات لهذه اللهفة التى لها كل مايبررها بأن تفسد وتتحول الى مجرد مطامع ضيقة فارغة ؛ ولكن هذا الافساد للمثل لم يكن على أى حال ناحية من نواحى الحركات الاستقلالية .

وقد يفهم هذا الوهن الذى لحق بالمثل ، على ضوء ماأصاب الاسهام الجماهيرى المباشر فى العمل العام من ضعف . وذلك بعد اقامة جهاز بديل يختلف فى توجيهه عن جهاز الجماهير كل الاختلاف . وعندما تمت اقامة هذا الجهاز ، أضحى عدد المؤتمرات الحزبية أقل ، بل واختفى بعضها من الوجود كل الاختفاء ..

ومع ذلك فهناك أوضاع نفسية لهذا الضعف الذى أحاق بمثل الأحزاب الجماهيرية . فعندما كان يحدث مثل هذا الوهن فى الماضى ، كانت هناك أولا فروق فى مستويات التعليم بين أعضاء الطليعة أنفسهم . اذ عند اشتراك التعليم كعنصر ذى أهمية فى تكوين الطليعة ، فان عنصر التكافؤ المبجل بين هؤلاء الأعضاء يتعرض الى الخطر . وكانت هناك ثانيا فروق أخرى فى السن بين أعضاء الطلائع ولا سيما بين الزعماء السنغاليين فى القسم الفرنسى من الاتحاد الدولى للعمال ، وكان هذا الفرق فى السن أو بين جيلين هو الهزة التى أحدثت الانفجار فى المؤتمر المتحد لساحل الذهب ، وهو الانفجار الذى أدى الى التفاف الاعضاء الشبان حول الحزب الصاعد : حزب مؤتمر الشعب الغانى ، وكانت هناك أخيرا فروق فى العقيدة ، وان لم تكن واضحة كل الوضوح بحيث تتحول الى خلافات عقائدية . وعندما لايكون فى هذه الفروق شىء كثير من التعقيد أو حتى من الوضوح ، فانها تعنى فروقا فى الأذواق لا فى العقائد ومن المعروف أن برامج الحزب الديموقراطى الغينى وحزب الاتحاد السودانى تستمد وحيها من الماركسية ، أما البيانات الرسمية للاتحاد التقدمى السنغالى فمستوحاة من الآراء الاشتراكية المسيحية ، وتسير بوحى وتوجيه من

سنغور(١) أما حزب الائتلاف الافريقي فقد يكون تروتسكي النزعة. ولكن من الخطأ كل الخطأ أن نحاول الياس هذه الاحزاب الافريقية كل ما بين الماركسية والاشتراكية المسيحية والتروتسكية من خلافات مذهبية، وكل ما أفهمه أن هذه الاحزاب لم تضع بعد برامجها الواضحة لتحقيق الفردوس المنشود ؛ ولذا فهي لا تقبل بجميع التفاسير التي تتألق من الناحية النظرية في هذه الرؤى العقائدية التي تحلم بها ولا ترفضها .

ولازالة مافي هذه الفروق من تأثير ، تحتم على أفــراد الطلائع القيادية أن توجه جهودها نحو المزيد من الغايات الذاتية ، وتمثلت محاولة الحفاظ على مابين هؤلاء الافراد من تكافؤ ومســاواة ، عن طريق الاثرة والعناية بالذات .

وعلى الرغم من أن الاحزاب الجماهيرية ، كانت تفقد الكثير من حماسها الاشتراكي بهذه الطريقة ، الا أنها أدت أدوارا هامة في القــارة الافريقية ، فلقد كانت من الناحية الاولى تتجاوب مع الرأى العـــام في بلادها ، وعلى الرغم من أنها مازالت تتجاوب مع هذا الرأى الى حدما ، الا أن هذه الجماهير التي تحاول الطلائع الاستمرار في التجاوب مع آرائها آخذة في التقلص وقد أشـبه الاحزاب الجماهيرية أيضا التطلعــات الذاتية في افريقيا ، ولا ريب في أن هذه التطلعات هي أيضا ثمرة للطريقة التي اتبعتها بريطانيا وفرنسا في ادارة مستعمراتها الافريقية . فلقــد كانت قوات بريطانيا البرية المرابطة في أفريقيا قليلة نسبيا ، بينمــا كانت تحتل بلادا مساحتها لاتقل عن أربعة ملايين ميل مربع ، ولم يكن في وسع مثل هذه القوات القليلة ولا سيما في المناطق المفتقرة الى طرق المواصلات ، أن تعيد الأمن الى نصابه اذا ماتعرض هذا الأمن لاضطرابات خطيرة في مناطق واسعة . ورغبة منها أى من بريطانيا في سد هــذه الثلمة في اجراءاتها ، امتنعت عن تغيير الأنظمة التقليدية القائمة على قدر الامكان معتمدة في حفظ النظام في مستعمراتها على سلطة الشيوخ المحليين وهكذا ظلت تحكم عن طريقهم ، وتحافظ على الأمن والنظام بوساطتهم وهكذا تمكنت بريطانيا من منع المشاعر الوطنية عنـــد الشعوب التي تحكمها من الاتجاه حقا ضدها . وعندما بدأ سلطان الشيوخ يتهـــاوى ويتدهور فيما كان يوما يدعى بأفريقيا البريطانية ، وذلك ابان الفترة القصيرة من الهيجان في طلب الاستقلال ، ومع بقاء القوى التقليدية على حالها عن طريق حكم بريطانيا اللامباشر ، اتجه الشعب الذي لم يعــد الآن يمثل مجموعة من القبائل المنفصلة عن بعضها ، وانما يمثل بــلدا

---

(١) رئيس جمهورية السنغال ، وهو مثقف ثقافة فرنسية عالية ومن أرق الشعراء باللغة الفرنسية .
ــ المعرب ــ

ذا وعي ذاتي الى الهدوء ، وبدأت ظواهر وحدته ووجوده تنصهر انصهارا كليا في المحتوى الجديد الاكبر ، وقد حملهم الضغط الذي انطوى عليه هذا الاتجاه ، الى البحث عن وجود قومي جديد على صـــعيد الأمة ، أما الفرنسيون فعلى الرغم من تحطيمهم لسلطان الشيوخ ومحاولتهم حمـل رعاياهم في المستعمرات على التطلع الى فرنسا ، فان هذا التوجيه ظـل محصورا في القلة المثقفة واتسم الطابع العام للمستعمرين السابقين بحالة من الهدوء تفوق ماكان عليه أقرانهم في المستعمرات البريطانية السابقة وأخذوا في الانضمام الى النقابات والاحزاب السياسية بشيء من الاستعداد والمثابرة .

وكانت نظرية العشيرة كما رأينا من قبل ، تلحق الناس بقبائلهم وعشائرهم حتى من قبل أن يولدوا ، وذلك على أساس مافي جذورهم من قوة العوامل الروحية ، ولم يكن من السهل أن يضع المرء «وجوده» على هذا الصعيد أو يهزه · وقد شجعت هذه الفكرة عن وجود العوامل الروحية حتى قبل مولد الانسان ، وعن وجود «الوجود» حتى قبل ظهور الفرد الى قيـــد الحياة ، اثارة قضـــايا الوجود على نطاق ضخم في أفريقيا وقد باتت القضايا المتعلقة بالوجود قبـــل المولد ، وبالوجود العـــائلي والعشيري والقبلي مهمة كل الأهمية بالنسبة الى النشاط الانســـاني وكذلك بالنسبة الى تحليل الاعمال البشرية ، وباتت المسئولية عن الاعمال أكثر أهمية من تصنيف هذه الاعمال نفسها .

وليس ثمة من شك في أن هذه المسئولية كانت تلقي ضوءا عـلى التصنيف بالذات · ومن هنا كان اقتراف عمل ما ، يعرض مقترفه أحيانا الى العقاب ، بينما لايتعرض له مقترف آخر ، اذ أن المسئولية تتعلق بمن اقترف العمل وشخصيته · ولم يكن هذا الاجراء تعبيرا عن المحاباة أو التحيز · وكانت النعوت الاخلاقية تلصق بمقترفي الاعمال ، لا بالاعمال ذاتها · وهكذا كانت الاعمال تصنف عادة للنوايا التي كان المرء يجد من الطبيعي أحيانا ان يقرنها بفاعليتها ، الذين يختلفون في شخصياتهم وأخلاقهم ، ولم تكن شخصياتهم هذه انعكاسات لاعمالهم ، وانما كانت هذه الاعمال ، نابعة بل وصادرة عن شخصياتهم ·

ولم يؤد تحلل التبيان التقليدي القديم الى انهاء الانشغال بهذا «الوجود» بصورة مفاجئة · فهذا الوجود جزء من أسباب النجاح الذي حققته المنظمات النقابية والاحزاب السياسية لاسيما وقد كانت الروح النضالية في افريقيا ، قوية وكانت مصدرا للوجود والولاء الكامنين ، ولا ريب في أن هذا هو معنى «الانتماء» الجديد ·

وتتزود النقابات والاحزاب السياسية الافريقية مما فيها من طبيعة

شمولية بالحوافز الإشتراكية القوية ، وبينما كانت الاشتراكية تحمل طابع الاصلاح فى أوربا وامريكا نراها فى أفريقيا تمثل الوضع البدائى المتخذ شكل الحياة الجماعيــــة التى سبق لى أن شرحتهــــا ، وليست الاشتراكية الا محاولة لتحديد الاهمية الاجتماعية السياسية وحصرهـــا فى تلك الفروق الحياتية القائمة بين الاجناس البشرية ولهذا مالت الفروق الطبقية فى اشتراكية أفريقيا التقليدية الى أن تكون من النوع الجمـــالى وأن يكون القصد منها الزينة ليس الا · وقد حمـــل الافريقيون القول الاكانى المأثور بأن جميع الناس هم عيال الله وان ليس هناك من هو ابن الارض على محمل الجد ، وكان هذا القول من المبادىء الموجهة فى جميع الانظمة الاجتماعية ـ السياسية · ولا يعنى هذا أن الوئام والانسجام كانا يسودان المجتمعات الافريقية المجموعية · فلقد كانت هناك فروق معترف بها بين الناس ، ولكن الانظمة التقليدية لم تكن تسمح لهذه الفروق بأن تكون موجودة فى بعض المجلات . ومن هنا كانت الاشتراكية الافريقية متناهية فى انسانيتها · ولم تكن قائمة على عقيدة مادية ضيقة الحدود والمجالات وانما كانت تفكيرا اجتماعيا ـ سياسيا فالفرد مسئول عن الكل ، كما أن الكل مسئول عن الفرد ، واشتراكية افريقيا أخلاقية لانها موجهة نحو العدل الاجتماعى والحرية وروح الزمالة ، ولا يمكن فى المحتويات الافريقية الجديدة ، السماح ببقاء الإشتراكيــــة رهن ارادة الحماس الدينى ، وانما يجب تنظيمها على الصعيد الحكومى ، ولم يعد فى وسع الاشتراكية الخاصة القائمة على سياسة «الحرية» والتى تسود المجتمعات اللاقنية أن تعيش ، إذان ادخال التقنيات الجديدة الى أفريقيا قد أفقد التوازن بين مايستطيع الأفراد الذين يتركون وشأنهم ، جمعه من أموال بطرقهم الخاصة الاشتراكية المركزة والموجهة هى الســـبيل الوحيد لضمان بقاء الفرد قادرا على الحصول على الحـد الأدنى من السلع والخدمات ·

ويود المرء أن يعرف ان عاجلا وان آجلا المجال المتروك لحرية الفرد فى كل هذا ·

على الانسان أن يعترف أولا ، بأن لكل مجتمع من المجتمعـــات أساليبه الخاصة فى الارهاب ، وتكون هذه الأساليب فى بعض المجتمعات أكثر دهاء وخبثا منها فى غيرها من المجتمعات ، وتبتكر حتى المجتمعات الحرة والديموقراطية أساليبها المتقنة والخاصة للارهاب ، سواء تمثلت فى موعظة دينية تلقى على منبر الكنيسة أو فى طغيان النقابات ، أو فى الانضباط الصارم لحزب من الاحزاب السياسية أو فى الجراح التى تحدثها الاصطدامات بين الحكومة والاحزاب المعارضة أو فى الفضائح وحملات التشهير التى تشنها الصحف ، أو فى مجالات السخرية من الاصدقاء أو

الابعاد من الزملاء ، أو في اظهار علامات الدهشة برفع الحواجب ، أو ضم الشفاه وفتحها أو هز الاكتاف أو تحريك الذقن بشكل متجهم عابس أو غيرها من الوف الابتكارات . والارهاب شيء كريه وممقوت دائما وبالطبع ، ولكنه فعال في التأكد من أن سلوك الفرد لن يتحول الى الاغراق في الغرابة ، ومن أن الحرية لن تنحط وتتدهور الى حد التطرف الجنوني الاحمق . ولا يعتبر الفرد وحدة فوضوية ، انه يعيش في أجواء منظمة ، ويؤدي نظام محيطه الى المطالبة بشيء من التبعية والانضباط ، ولا سيما في الاماكن التي لم يقم التعليم فيها بواجبه في خلق الاستجابات المرغوبة وعندما تكون هذه التبعية وذلك الانضباط ماكرين ، كما هي الحال في المجتمعات الحرة والديموقراطية ، فانهما يمثلان قفاز الطفل الذي يحاول مواجهة قبضات من الحديد . وكثيرا ماتتحول لطائف الارهاب البيقراطي الى قناع يخفي الوحشية والاثرة ، ولكن ارهابات المجتمعات الديموقراطية والحرة بالطبع ، هي اكثر أنواع الارهاب انسانية في العالم(١) اذ حتى ولو انهزم الفرد امامها ، فان هزيمته لا تكون إلا بعد أن تتاح له الفرصة الكافية للنضال والصراع .

وهناك طريقة للنظر الى البلاد المتخلفة على أي حال ، وهي أن نعتبرها في حالة حصار دائم . وقد زودتها النظريات السياسية الغربية بالفكرة القائلة بان البنيان السياسي لاية بلاد يمر في مراحل انحصار الخرجة ، وفي حادث الطوارىء مهما كان شكلها بتغيير مشروع ذي طبيعة محدودة أو مؤقتة . ويمكن تقييد بعض الحريات أو الحقائق مؤقتا أو وضعها في صيغ مخالفة تماما . أما البلاد التي تمر في حالات مماثلة من التطور السريع ، فانها قد تصبح ، كما يقال ، في نفس الوضع لفترة زمنية محددة ، وتتطلب الأزمات اجراءات استثنائية لمواجهتها . وتواجه البلاد المتخلفة اليوم جميع مشاكلها في آن واحد ، بينما واجهت البلاد الأخرى عين هذه المشاكل بصورة متتابعة ، وأعني بها مشاكل التعليم والمواصلات والصحة والتغذية والماء والمجتمع والاقتصاد والقبلية الجموحة والمعوقة وتماثل الصدوع القبلية في بعض البلاد الافريقية الصدوع السياسية التي تقوم في بعض مناطق النفوذ ، وكذلك الصدوع الاقليمية التي توجد في بعض الكيانات الاتحادية ففي بلاد كنيجيريا مثلا ، ليس ثمة من خطر

---

(١) لا ارى أي معنى لهذا التعبير اذ لا يمكن الجمع بين ضدين كالارهاب والانسانية فلا يمكن أن نطلق على الارهاب صفة الانسانية مطلقا حتى ولو على سبيل المقارنة ، ولكن المؤلف كما يبدو حريص على الدفاع عن وجهة نظره التي تخرج عن فكرة الحياد كما يبدو بوضوح من اتجاهاته الفكرية في الكتاب فابتدع هذا التعبير الذي لامعنى له ، وكان في وسعه لولا هذه المغالاة في الحرص أن يقول انها أقل أنواع الارهاب وحشية بدلا من أن يقول انها أكثر انواع الارهاب انسانية . — المعرب —

في بعث القبلية اذ لما كانت كل مجموعة عرقية مسيطرة في ناحية من نواحي البلاد ، فان العنف الذي تولده المرارات الطويلة يموت في مهده قبل أن يتفجر ٠

ولا تتشابه الحكومات في الوقت نفسه في الواقع ، في درجة اخلاصها ، حتى ولو كان من العبث أن تعمل هذه الحكومات على أساس الافتراض بأن جميع الحكومات تسلك سلوكا لا معقولا ٠ ومع ذلك فان الحكومة وحدها هي صاحبة الحق وصاحبة السلطان في أن تعلن حالات الطوارئ في البلاد ، ولا تسن القوانين الا عندما تتبين الضرورات لسنها وعندما يكون القانون من النوع الزجري ، فان الوضع يظهر وكأن هناك حقا قد اغتصب أو ألغي ٠ وقد يقوم الانسان بعمل من نوع ما ، ولا يعتبر عمله جريمة أو جنحة ، ولا يعاقب على عمله هذا ، ولكن عندما يسن القانون الزجري الرادع يغدو عمله جريمة يستحق عليها العقاب ، ولكن التشريع قد يكون في الواقع بقصد حماية حق من الحقوق ، وتعاني حكومات البلاد المتخلفة من شتى الضغوط الهائلة التي تتعرض اليها ؛ فقد يطلب اليها أن تنظم الحقوق ، وأن تسوى بينها وأن تحمى الحقوق والمصالح المشتركة ، يتطلب هذا كله منها شيئا من الحساب الكيفي الدقيق الذي يحملها على تجاهل حق من الحقوق لمصلحة حق آخر ، أو لمصلحة ذلك الكسب أو تلك الفائدة ٠ ولكن عندما تشرع الحكومة في اعتبار نفسها ، يد الشعب العاملة وضميره وارادته ، وحتى نيته فانها تعرض نفسها لاغراءات خطيرة ، وتبدأ في فقد اتصالها بنبض الشعب وأحاسيسه ٠ ولكن مجرد الاحتمال باساءة السلطة لايعتبر في حد ذاته نقدا ، فمن طبيعة المنجزات وظواهرها أن تتعرض الى الافساد أو ألا تصيب الهدف ٠ ولا يعتبر الاحتمال دليلا على الامكان أو الترجيح ٠ وللحكومة نفسها مجموعة من الحقوق فهي ملزمة بأن تعمل ضمن الدستور ، وهي لاتستطيع الخروج عن نصوصه كما أنها عاجزة عن مخالفته ٠ وفي البلاد السريعة التطور حيث الثقافات تصطدم بالثقافات ، وحيث الميوعة تسود كل شيء ، يجب الحفاظ على الشكليات ذات الحدود الصارمة المتزمتة ٠

ويغدو دور المثقفين في مثل هذه الأوضاع دقيقا كل الدقة ٠ وهم يتعرضون في البلاد المتخلفة أو السريعة النمو والتطور لنوعين من أنواع الجذب ، أولها الجذب الذي يشترك فيه جميع المثقفين ، والقائم في الفكرة القائلة بأن الثقافة عالمية الشكل والصورة وليست قومية الطبيعة أما الجذب الثاني الذي يتعرضون له فهو التطلعات القومية الخاصة بالامة التي ينتمون اليها ، وتصح تسميتهم بالمثقفين القوميين أو المثقفين الوطنيين طبقا للمدى الذي يستجيبون فيه لقوة الجذب هذه ٠ ويخلق هذا الازدواج

في الجذب الذي يتعرض له المثقفون نوعا محتملا من التناقض في الدور الذي يؤدونه • وقد يجد المرء بعض المثقفين مثلا ، يؤكدون الجانب العالمي لكفاياتهم ومؤهلاتهم كما قد يجد المرء بعض المثقفين الآخرين يؤكدون الجانب القومي من هذه الكفايات ولا سيما عندما تكون بلادهم تمر في مرحلة التطور السريع أو تعيش في وضع من أوضاع التخلف ، ولا يشبه المثقفون في فترات الانتقال بشكل من الاشكال العلماء والجوالين في أوروبة العصور الوسطى أو المثقفين في العهود الاسلامية القديمة ، من المشائين الذين لايعترفون بقومية خاصة بهم(1) وهم على النقيض من ذلك، يجدون أنفسهم مرتبطين ببلادهم حتى عندما يأخذ المرء بعين الاعتبار أولئك القريبين من تقاليد القرون الوسطى الذين يبحثون عن العمل مع هيئة الامم المتحدة، ويحصلون عليه معا• وليست الصورة العامة صورة مثقفين من الآسيويين والافريقيين ينتقلون من بلاد الى أخرى ، يعملون كصحفيين في بعضها ، ووزراء في البعض الآخر ، ثم ينتهون على الغالب كمؤرخين في بعض ثالث • وتكون حياتهم على الغالب معتمدة على ارتباطهم بمناطق معينة ، وتكون عالميتهم على الغالب من ذلك النوع الذي يتابع الدراسات العلمية والأكاديمية ، كأن يغرقوا أنفسهم في الدراسات الفلسفية أو في الظهور كخبراء في أدب شكسبير في وقت تحتاج فيه بلادهم اما بسبب تخلفها أو بسبب تطورها السريع الى جهودهم وطاقاتهم في مجالات ذات أهمية آنية • ومن الواجب على أي حال تمييزهم عن المثقفين في المجتمعات الثابتة المستقرة الذين اما أن يؤدوا دورا يحتاج اليه مجتمعهم كدور الكهنوت في مصر القديمة مثلا ، أو كدور متابعة الدراسات العلمية في أوضاع قومية لايكون فيه ثمة افتقار الى التقنيين أو الموظفين المدنيين أو غيرهم • ولا يعتبر مثقفو أوروبا الغربية وأمريكا أو حتى الاتحاد السوفياتي من التقنيين ولكنهم أشخاص يستطيعون أن يغدوا من المثقفين الذين يؤلفون حلقة تستطيع بلادهم أن تعتمد على الاختيار منها في أوقات الحاجة ، كما حدث بالفعل في الحرب الماضية ، عندما غدا أساتذة الجامعات يعملون في مهام تستند الى التخصص ، وان كانت تختلف في الوقت نفسه كل الاختلاف عن الاعمال التي تدربوا عليها أو المهن التي يحترفونها ولا ريب في أن هذا التقلب ليس الا ثمرة المؤهلات لا التوجيه الذي يتلقاه المثقفون

---

(1) اعتقد أن المؤلف لم يفهم تمام الفهم طبيعة العصور الاسلامية فلقد وقع الازدواج في العصور العربية الذهبية في أيام الامويين والعباسيين بين العروبة والاسلام وكانت ثقافة هذه العصور اسلامية الطابع • لان المفاهيم القومية الحديثة لم تكن معروفة بعد • ولذا لا يمكن الفصل بين العروبة والاسلام بالنسبة الى هذه الثقافات .

في المهن التي يحترفونهـــا ، والمثقفون عنصر لاغنى عنه في كل مجتمع موضوعي .

ومن المؤسف كل الاسف أن يغدو المثقفون في المجتمعات المتخلفـة متعبين مجهدين . ويطلق على المثقف نعت المتعب المجهد عندما تفوته فرصة الوصول الى افكار جديدة دافقة بالحماس والاثارة . والمثقف هو طراز من الخبراء ، وما الخبير الا انسان تنبع منه الأفكار بسهولة وبساطة . وهذا يعني بالطبع أن المثقفين يميلون الى الاعتماد على ذاكرتهم وعلى عاداتهم وعلى كل ماأشغلوا أنفسهم فيه وألفوه . ومع ذلك فان المثقفين وحدهم هم الذين يستطيعون أن يكونوا حساسين اجتماعيا بالنسبة الى الاحتمالات والاخطار المرتبطة مع التطور السريع بأقـل مايمكن من الاتلاف وبأكثر مايمكن من الإقتصاد . وقد يكونون في البلاد السريعة النمو والتطور أكثر فائدة منهم في أي مكان آخر .

ويعتمد كل مجتمع في بقائه على درجة ملحوظة من الموضوعية ، ولا ريب في أن الادوات الناقدة واللاعاطفية التي يستطيع المثقف استعمالها في تحري المسائل والمشاكل ، قيمة كل القيمة . فالنقاش البناء يوجه دائما نحو الموضوعية .

ويمكن تقسيم سياسة أفريقيا الخارجية الى قسمين : قسم يتعلق بأفريقيا نفسها ، ويوجه نحو توثيق الوحدة في تلك القارة . وقسم يتعلق ببقية أنحاء العالم ويعتمد على سياسة مثابرة من الحياد . أما بالنسبة الى أفريقيا ، ففي وسع المرء أن يقول ان مستقبل القارة الافريقية يمكن أن يكون أكثر اشراقا اذا تحققت لها وحدتها . وما دامت أفريقيـــا مجزأة لامن الناحية الاقليمية فحسب ؛ ولكن من ناحية المنافسات على المكانة والشهرة أيضا وهي المنافسات التي تصل أحيانا حد العــــداء بين بلاد وبلاد ، فان تلك القارة ستظل مفتقرة الى القوة والأهمية اللتين تخولهما اياها مساحتها وثروتها الطبيعية ، ولعل أفريقيا هي أغنى قارة في العالم وهي كالاتحاد السوفياتي، وكأمريكا القارة ، تضم في داخلها كل ماتحتاج اليه لتطورها الصناعي باستثناء المهارة الفنية ورأس المال .

وليس الحياد رفضا «عكسيا» للخيار بين الخير والشر . فليست له أية علاقة على الاطلاق بمثل هذا الخيار . والخـــلافات القائمة بين الرأسمالية والشيوعية التي تتمخض كما يبدو عن زوبعـــة ، ليست في تناول الأحاسيس الدقيقة للبلاد المحايدة ،لان هذه البلاد لم تمر بتجربة ما في هذه الخلافات من حوافز قوامهـــا التورط والالتزام واللذين أديا اليها(١) . فالشيوعية والرأسمالية في جوهرهما ليستا صورة مخففة لما

---

(١) أعتقد ان المؤلف قد حاد عن جانب التصوير الصحيح لموقف دول الحياد =

يقوم بين الابيض والأسود من تناقض وخلاف • ولا تود البلاد المحايدة أن تتخذ مواقف محددة مسبقا بالنسبة الى كافة القضايا ، بحيث يكون ردها على أي سؤال معدا حتى قبل أن يثار السؤال • انها تؤثر أن تنظر الى المسائل عندما تثار ، وأن يكون رأيها في كل مسألة على ضوء ما في هذه المسألة من واقع • والحياد تحرر من الانحياز ، ولا يمكن أن يعتبر بأي حال من الاحوال تقاعسا عن اتخاذ القرارات • ويعتبر هذا الموقف وحده مهما بالنسبة الى الخلافات المبدئية بين الشيوعية والرأسمالية •

ولعل الحقيقة في وجود آراء لم تتولد بعد وأحكام غير مقررة يساعد هذه البلاد على منع النظامين المتضاربين من اللقاء الحقيقي • وتؤلف البلاد المحايدة طرازا من العازل بينهما يتولى امتصاص التصادم ومنعه ، كما انها المناسبة التي تترك أثرا ملطفا على النظامين ويبدو دعاة النظامين ولمصلحتهم هم قبل أي شيء آخر ميالين أحيانا للظهور بمظهر العقـــل والمنطق • وقد تقف آراء الحياديين ، وليس من الضروري أن تتفق دائما الى هذا الجانب حينا ، والى ذلك الجانب حينا آخر • وعندما تكون هـــذه الآراء باعثة على الرضا من أحد الجانبين في موقف من المواقف ، فيجب ألا يفسر الجانب الآخر هذا الموقف على أنه يجعل طابع العداء له ، فالحياد هو انكار ونفي لمثل هذا الشعور العام • ولا يمكن لآراء المحايدين أن ترمز الى أي شيء(1) •

= هنا ، فليس صحيحا ان يقال ان الخلافات القائمة بين الكتلتين المتصارعتين بعيدة عن متناول أحاسيس البلاد المحـايدة لانها لا تفهمها بسبب عدم مرورها بتجـربتها فمثـل هذا القول في رأيي يحمل دعوة مبطنة الى الانضمام الى هذا الجانب أو ذاك بعـد تفهم الخلافات . واني لأومن أن سياسة الحياد الايجابي مستمدة من الفهم العميق للخلاف القائم بين الكتلتين والفهم العميق لاحتياجات السلام العالمي والفهم الصادق لمصـــالح الدول التي لا شأن لها في هذا الصراع .

ـ المعرب ـ

(1) اعتقد ان هذا القول امتهانا لفكرة الحياد الايجابي ، وعدم تقدير لها كل التقدير ، اذ انها تحمل معنى الاتهام « بالعضوية » وعدم قيام السياسة الحيـــاذية على مفاهيم ثابتة ومستقرة . لقد نبعت فكرة الحياد الايجابي أول ما نبعت من الرغبة العالمية في السلام بعد ان عانت البشرية ما عانته من ويلات الحرب الأخيرة ، وبعد أن تبينت خطورة نشوب اية حرب جديدة بسبب الاختراعات الذرية والهيدروجينية التي ستنزل الدمار بالعالم ان نشبت أي حرب•• وتبين لاصحاب الفكرة أن الصراع العقائدي والمصلحي بين الكتلتين سيؤدي الى تحول نطاق الحرب الباردة الى حرب « ساخنة » ولذا بات من واجب الدول التي لا شأن لها في هذا الصراع العقائدي والمصـــلحي ، والحريصة على سلام العالم الا تخوض معـركة الحـرب البـاردة وان تنأى عنها ، وأن تقف منها الموقف الذي تمليه مصلحة البشرية جمعاء ، ومصلحة السلام العالمي ، ومن هنا تبين أن مواقف الدول المحايدة من أية مسألة عالمية ، تقرر على ضوء هذه الفكرة الاساسية قبل أن تقرر على ضوء المصالح الذاتية لكل منها كما أراد المؤلف أن يقول. ومن هنا يتبين أن لا صحة للقول بأن هذه المواقف لا ترمز الى أي شيء •

ـ المعرب ـ

وعلينا أن نتذكر هنا ، ان ثمة عدة هيئات محايدة في العالم اليوم، وما جامعه الشعوب البريطانيه الا مثل من هذه الامثلة . فالجامعة هيئة محايدة وينتمي بعض أعضائها الى عضوية احـــلاف لايمكن ان تدعى بالأحلاف الحياديه ويضمن حياد الجامعه الا تكون بأي حال من الاحوال اتحـــادا عـــدوانيا ، بل اتحـــادا تقدميـــا ، وفي وسع الدول الأعضاء من غير المنضمة الى الأحلاف في هذه الجامعة ، أن تنقل الى الطرف المعارض لهذه الأحلاف بشيء من الصدق والوثوق بالنفس والود ، آراء زميلاتها من الدول الاعضاء المنضمة الى الاحلاف ووجهات نظرها[1] . وهـــذا التنوع في تأليف جامعة الشعوب البريطانية هو مصدر قوتها . فالجامعة قوية في داخلها لانها تمثل تنوعا في الآراء ويسرثمة من فائدة تجنى من اي ناد من النوادي ، اذا كان جميع أعضاء هذا النادي يشتركون في الاراء في جميع المواضيع . فمثل هذا الوضع يجعل النادي مفتقرا الى ذلك الغنى في الشخصية والفهم الذي ينجم عن تقدير وجهات النظر المتضـــاربة وتفهمها . ومن واجب كل دولة من دول جامعة الشعوب البريطانية أن تشكر لهذه الجامعة الفرصة التي تتيحها لها في جلاء مشاكلها عن طريق النظر في المشاكل المتشابهة بطرق مختلفة وتفسيرها وتناولها من نواح مختلفة وعلى ضوء وجهات نظر متعددة . ولم تعد الدولة اليوم كما كانت في الماضي جهازا موجها من الداخل توجيها داخليا .

ولعل أمريكا قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها ، واليابان قبـل ذلك بكثير قد عرضتا أروع مثالين على الدولة ذات الجهاز الداخلي التوجيه في العصور الحديثة . ولقد بات اليوم تأثير العلاقات الدولية على المواقف التي تتخذها القوى داخل الدولة نفسها كبيرا للغاية ، وأصبح ما يمكن للبلاد أن تسمح به داخليا ، يعتمد بصورة متزايدة ، وتحمل طابع الخطورة على العلاقات الدولية ولكل بلد من البلاد اجراءاتها وترتيباتهـا التي لاتستطيع تنفيذها ، مخافة أن يؤدي ذلك الى اغضاب أولئك الذين تتطلع الى حسن نواياهم وتعاونهم ، وقد يكون هذا الموقف دليلا بطريقـة من الطرق على وجود حد معين من الوحدة الدولية . ولكن من سوء حظ افريقيا أنه يسير على خط يجعل الانقسامات الناتجة من النوع الذي لا يمكن اصلاحه ، فعلى الرغم من أن ميثاقي الاطلس ووراسو ، يمكن أن

---

(1) أعتقد أن المؤلف قد أعطى لجامعة الشـــعوب البريطانية هنا دورا أكبر من دورها الصحيح ، فالمعروف ان هذه الجامعة تضم دولا عدة منها المرتبط بالاحـــلاف الغربية ومنها المتبع لسياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، ولذا فالمعروف ان موقف الجامعة من القضايا السياسية لا يمكن أن يكون موحدا ، وهكذا فان دور الجامعة في رأيي لا يعدو حدود البحث في القضايا الاقتصادية ، والعلاقات بين الدول الاعضـــاء انفسهم . — المعرب —

يعتبرا مثلين من أمثلة الوحدة الدولية ، الا أنهمـــا يسيران على خطين يجعلان الانقسام بينهما من النوع الذى لا يمكن اصلاحه .

واذا كانت جامعة الشعوب البريطانية قوية فى داخلها ، فانهـــا لاتفتقر أيضا الى القوة فى خارجها • وتعتمد قوتها الخارجية على المدى الذى لاتكون فيه ضيقة ومتزمتة ومحصورة فى تفكيرها • وللتدليل على وجود الوحدة الدولية فى ود وصداقة ، يجب أن تظهر للعالم انها لاتخلو من الخلافات ، وان كان فى وسعها ان تتغلب عليها • وليس فى وسع أية مجموعة دولية أن ترشد الى الطريق الى الوحدة فى عالم تسوده الاختلافات الجذرية ، اذا كانت هذه المجموعة يسودها الانسجام ضمن اطار التزمت • وعلى جامعة الشعوب البريطانية أن تظهر انه على الرغم من تنوع دولها الاعضاء لامن ناحية العنصر فحسب بل ومن ناحية وجهة النظر والتجارب والبرامج ايضا ، الا انها لاتحس بأى تفسيخ ؛ بل وتستطيع أن تميز المناطق التى تستطيع أن تحقق فيها التعاون بين أعضائها على أساس من التكافؤ والمساواة •

وتواجه أفريقيا اليوم عددا من الثورات المتماثلة والمتوازية ، انها تواجه ثورات فى ميـــادين السياسة والاقتصـــاد والمواصلات والتربية والتعليم وغيرها من الميادين المماثلة • ومن الواجب أن يرقب المرء فى هذه الثورات عناصر التضامن والنعم التى ينطوى عليها التراث التليد للقارة ، والا تسمح هذه الثورات لنفسها بالانسياق مع السيل الثورى العلم ، وكأنها « طفاوة » بائسة خلفتها العصـــور القديمة ؛ فافريقيا فى حاجة دائمة الى من يذكرها بطبيعتها التقليدية الضخمة ، ولعل أروع آمالهـــا معلقة فى الافادة من تراثها وتقاليدها •

وهناك فى افريقيا مثلا الكثير من سننها الاخلاقية وشرائعها التى تعتبر انســانية فى طبيعتهـــا . ومن واجب ثورات افريقيـــا الا تســـمح لنفسها بطمس سنن افريقيا وشرائعها الانسانية • فالثورات نفسها فى حاجة الى مبررات أخلاقية لها • وهناك فى أفريقيا اليوم بعض العادات المألوفة التى على الرغم من عدم اعتبارها مشاكل بموجب السنن الاخلاقية الافريقية ؛ الا انها على اى حال تثير الاخلاق الاوروبية الى الحد الذى يدفع كثيرين من الافريقيين أنفسهم الى النظر اليها وكأنها مشاكل أخلاقية • ولعل أبرز هذه القضايا مسألة تعدد الزوجات . فما زالت افريقيا من البلاد التى تمارس هذا المألوف • ولم يؤد تحصيل العلم والمعرفة فى افريقيا دائما الى اقتنـــاع المتعلمين بالانصراف عن تعدد الزوجات أو استنكاره • ففى المناطق الاسلامية فى افريقيا ، والى حد كبير أيضا فى المناطق المسيحية ، ما زال الكثيرون من المثقفين ثقافة مرموقة يمارسون

تعدد الزوجات ، حتى على الرغم مما جرى بينهم وبين السنن المسيحية من اتصال . فتعدد الزوجات دافع اجتماعي ضخم في افريقيا ومن الواجب معالجته بمنتهى الجد والعمق .

ترى هل تعـــدد الزوجات مناف للاخلاق الكريمة ؟ عندما يعتبر الزواج بواحدة — على ضوء مقولات المنطق — الشـــكل الكامل الوحيد للزواج ، والشراكة الحقيقية . التى تقوم بين انسانين ، أحدهما الرجل والآخر المرأة . ويكون هذا الاعتبار على جميع الصعدان لا على الصــعيد الاقتصادي وحده ، أو على صعيد مجرد العناية بالاسرة وانتاجها ، وانما قبل كل شيء على صعيد الرفقة الحياتية بين شخصين دون سواهما ، فان هذا الاعتبار ، وكل ما يلحقه من أقوال ، يوحى بأن لتعدد الزوجات علما اجتماعيا خاصا به وقد اكتشف الباحثون ، في افريقيا ، ان تعدد الزوجات ينتشر أكثر ما ينتشر في المناطق التى ترتفع فيها نســـبة الوفيات بين الاطفال ، وينتشر العقم عند النساء ، أو المناطق التى يفوق عدد النساء فيها عدد الرجال ، أو أحيانا في المناطق التى يعتبر فيهـــا الاكثار من الزوجات من شروط المكانة . ولا يمكن اعتبار كل هذه القضـــايا مجرد ارتباطات تافهة ، بل يمكن أن تصـــبح جزءا من المناقشات الخلقية التى تتناول موضوع منع الحمل .

لا ، من الواجب أن نقـــارن ونفاضل بين حسنات تعدد الزوجات وحسنات الزواج بواحدة . ففي شرقى نيجيريا ، تقوم النســـوة فعـــلا بتشجيع تعدد الزوجات ، وهن يسسن أمورهن بطريقة تضمن الوئام والصفاء بدلا من العداوات العائلية . ويبدو أن تعدد الزوجات والزواج بواحدة ، هما نظامان للزواج ، يرتبطان أوثق ارتباط بالافكار المتعلقة بأسس المجتمع . فحينما يصور المجتمع على أنه قائم على الحقوق الفردية ، فان الميل يسود نحو نظام الزواج بواحدة ، اذ يؤخذ المبدأ القائل بعدم الاعتداء على حقوق أي فرد بعين الاعتبار . ويعمل نظام الزواج بواحـــدة على صيانة هذه الحقوق والحفاظ عليهـــا . أما اذا اعتبر المجتمع من الناحية الاخرى قائما على أساس شبكة من الواجبات والالتزامات ، فان الحقيقة الواقعة بوجوب تحديد حق الفرد في الغذاء . لا تصبح كبيرة الاهمية ، نظرا لوجود شخص جديد يتحتم على الفرد أن يؤمن غذاءه . والاولاد غير الشرعيين أعضاء متســـاوون في نفس المجتمع مع الاولاد الشرعيين ، وعندما تكون دوافع الفرد ناجمة قبل كل شيء عن التزاماته تجاه أعضاء المجتمع ، ينعدم الفرق الذى يقوم على لا شرعية الولادة ، في الحقوق بين الاطفال ، ولا يغدو لتعدد الزوجات أي أثر مهما كان ضئيلا في الحقوق الفردية .

ومن الطبيعي أن تؤثر النساء نظام الزواج بواحدة ، في المجتمعات التي تكون فيها الحياة الاقتصادية للشعب اكتسابية الطابع لا جماعية الصورة . وقد قويت الحركة لتحديد تعدد الزواج في بعض المجتمعات الاسلامية كمصر وتونس والجزائر . حيث أصبحت النساء قادرات على خوض ميادين الاعمـــال الكتابية والتعليمية باعداد وافرة . وقد ألغت حكومة تونس نظام تعدد الزوجات ، على الرغم من أن الدين يسمح بهذا التعدد . أما في المجتمعات الجماعية الطابع في حياتها الاقتصادية فان هذه الجماعية تجد أيضا التعبير عنها في العـــلاقات الزوجية على أساس تعدد الزوجات . وقد تحولت المجتمعات الافريقية في الواقع الى التصنيع الى حد ما والى الطريقة الاكتسابية الى حد آخر . ولم يعد هناك الا عدد قليل من الرجال والنساء يظهرون الميل الى تعدد الزوجات .

ولكن لنعد ثانية الى سؤالنـــا الأول ، هل تعدد الزوجات مناف للاخلاق ؟ اذا صـــح انه مناف للاخلاق ، فان اللاأخلاقية فيه لا تنجم عن ناحية اشتراك الحياة في الزواج . فهنـــاك اشتراكات عدة يكون الشركاء فيها كثيرين . وحتى رفقة الحياة أو الصداقة لا تتطلبـــان أن تقصر الرفقة أو الصحبة على شخصين اثنين لا ثالث لهما لتأمين نجاحهما . واذا لم يكن الزواج مرة واحدة أمرا ينـــافي الأخلاق ، فان الزواج مرتين لا يمكن أن يعتبر منافيا للاخلاق .

ومن واجبنا أن نعترف على أي حال ، ان النساء يؤثرن بل ويتلهفن على نظـــام الزواج بواحدة . ويعني هـــذا النظام اكتساب أحاسيس جديدة ، والاستعداد للوصول الى انضـــباط متكامل ، بل والتضحية بالذات في ميدان خدمة المجموع المغلق . وفي وسع الانسان أن يصفه بأنه نزعة ممتعة . انه مثل أعلى بصورة دائمة .

ومن واجب التعليـــم في افريقيـــا أن يزود الافريقيين بمقومات الشخصية اللازمة لمواجهة شدائد الاوضاع الافريقية . ويرجع الاضطراب الذي يحدث في نهاية فترة ضياع الاستقلال . الى الحقيقة الواقعة وهي انه لم يحدث قط أي فراغ في القيم في افريقيـــا . وصراع القيم في افريقيـــا المثقفة ، كمحاولة لايجـــاد توازن مرض بين انعزالية الفرد ومسئولياته تجاه أقاربه ، هو انعكاس لمثل هـــذا الاضطراب وتلك الفوضى . أما المواقف التي يحملها المهاجرون الى المناطق المدنية ، فانها تدخل ـ بوصفها مواقف تقليدية ـ كل ما تحمله من شدائد الى جوار هذه المدن واجوائها . ولا ريب في أن خصائص هذه الشدائد تعتبر تعبيرا آخر عن هذا الاضطراب . والشدائد هي انعكاسات ، ولذا فان التجارب التي مر بها الآخرون في أماكن أخرى لا يمكن قبولها كموجة دون تجربها

والتثبت منها . وهنـــاك فروق ثابتة فى المركبات النفسية والثقافية للمواقف والعقائد والقيم والانضباطات العاطفية ، التى تخلقهـــا الحياة المدنية فى افريقيا وأوروبا . ولم يسبق لاوروبا قط ان مـرت فى تاريخها بالوضع الراهن الذى تمر فيه أفريقيا ، ولم يحدث لأوروبا فى هذا التاريخ ان ووجهت بقارة على النحو الذى تواجه به الآن افريقيـا وهناك مشاكل اجتماعية يجب فهمها وحلها . وهناك أيضا قضايا تتعلق بالانماء الوطنى ، فى الشـــئون الصحية والمواصلات والتربية والتعليم والصناعة . ومن واجب التعليم فى أفريقيا أن يمكن أكبر عدد من الناس من فهم الشدائد ،والجهد الذى تتعرض له القـــارة وكذلك من تقـــدير التبدلات التى تقع فيها ، ومن الاسهام اســـهاما كاملا بروح اشتراكية صادقة لمنفعة المجموع وخيره . واذا ما ارتبط التعليم بحل المشاكل ، فان من الواجب والحالة هذه تبين الحقيقة الواقعة وهى ان هنـــاك أنواعا مختلفة من هذه المشاكل . ولا يمكن مثلا أن تكون جميع المشاكل التى تواجه أية أمة من الامـــم فى أى وقت من الاوقات مهنية مجردة فى طبيعتها . فبعض المشاكل تتعلق بالليبرالية ، وتختص بالقيم البشرية وبالسياسات التى تؤثر تأثيرا مباشرا على الناس . ولكن على الرغم من ان هذه المشاكل قد تستهدف بالتعابير الكمية والارقام ، الا انها لا يمكن أن تصاغ فى مثل هذه التعابير دون أن تخلف بقايا . ولا يمكن الحصول على تلك الحســـاسية العقليـــة وتلك الروح اللتين تمكنـــانا من موازنة الاعتبارات المتعلقة بالموضوع هنا ، وصقلهما عن طريق التدريب المهنى ليس الا . فالامة قد تحتاج فى كل حين وآن الى ضرورات ملحة . وليست هذه الضرورات الملحة فى الواقع التعبيرى الا ضرورات آنية . ولـــكن لا يمكن أن يصاغ البنيان التعليمى للامة صياغة صارمة بطريقة مستعجلة وأسلوب انتهازى لمعالجة المشاكل الآنية وحدها . فالتعليم نشاط مستمر على طول السنة ، وعلى فى مكنة انسان أن يحدد حاجات الشعب من وقت الى آخر ، أو أن يبين الطريقة التى قد تتحول فيها وتتبدل ؟ فالحاجات تتبدل ، اذ أن بعضها قد يتحقق والبعض الآخر قد يكبح ويكبت بينما قد تخلق حاجات جديدة فى كل وقت . ومن واجب البنيان التعليمى للامة أن يعد بحيث يؤمن الترياق الشـــافى واللازم لجميع الحاجات المتبدلة وحتى الحاجات غير المنظورة . والقدرة على تحقيق هذا هى التفسير لذلك الافتقار الظاهر للواقعية الذى يقض على الكثير من الجامعات مضاجعها ويزعجها كل الازعاج . والاستعداد لمعالجة المشاكل التى لم تظهر بعد . والتى يصعب تحديدها أو شرحها ، يمكن أن يتالق بصـــورة الخيال . عندما يمتحن امتحانا عسيرا مع المشاكل الملحة والمرهقة . ومن الواجب مطالبة الشعوب العديدة فى افريقيا بتفهم فضائل هذا الخيال والعطف عليها . وقد يكون من الخطأ على أى حال بالنسبة الى أية جامعة ، أن

تضيق على نفسها أو أن تخنق خيالها بما يخلفه هذا الخيال من متعة اذ عندما تتحول الجامعة الى برج عاجي منيع لا ينفذ اليه ، ولا تتجاوب مع مشاكل الساعة بسبب انشغالها التكويني بمشاكل الماضي أو مشاكل المستقبل ، فانها تغدو شيئا مقيتا يثير الاستهجان .

ويمكن اخفاء شيء من التأكيد والتوجيه المؤقتين على البنيان التعليمي للامة في بعض الاحايين وطبقا لقواعد معينة . فمثلا يمكن الاكثار من المنح الدراسية لبعض فروع المعرفة بالنسبة الى الفروع الاخرى ، وذلك ابان الفترات الزمنية التي يكون النقص فيها في عدد الأكفاء في ذلك الفرع حادا للغاية . وفي الامكان توسيع الدوائر ليتجاوب مع هذا التوسع مع غزارة العمل أو وفرة الطلب على المهارات الفنية . وعلينا أن نذكر أن قيمة المثقف في كثير من الحالات بالنسبة الى مجموعه لا تكون في مدى ما تعلمه ، أو في مدى ما يمكنه تطبيق ما تعلمه فيها ، وانما تكون في انضباط عاداته العقلية ، وفي صقل قواه الفكرية وشحذها وهي القوى المتأصلة في تجواله الطويل وغير اللازم في حقول العلم والمعرفة .

ولم يتميز التعليم في افريقيا في الواقع فيما مضى بالمرونة . فلقد كان يتجه الى حد كبير الى ما كان يعتبر ضمن الحدود العقلية الضيقة والمؤقتة بمشاكل الساعة . ويبدو أن هذه المشاكل كانت تتلخص في ضرورة اخراج عدد كاف من الكتبة والوعاظ . وكانت ثمرة هذا الوضع خلق هذا الافتقار الهائل الى التوازن ، القائم حاليا في التعليم الافريقي . وقد أمكن ازالة هذا الافتقار الى التوازن ببطء عن طريق الجهود التي بذلتها الحكومات الوطنية .

ويرتبط نشوء هذا الافتقار الى التوازن بوجهات النظر التركازية الانوية التي ميزت الدراسات الاوروبية عن افريقيا . فلم تكن افريقيا تمثل للاوربيين قارة لها كيانها الخاص بها . ولهذا فان التعليم لم يرسم لخدمة المجتمعات الافريقية ، والحفاظ على وحدة المجتمع في الوقت نفسه ، وانما رسم لتقوية ما تقدمه افريقيا لاوروبا من خدمات . ومن هذا نشأ هذا الشكل الغريب للتعليم بكل ما فيه من محتوى تافه .

وقد عانى رواد علم الاجناس البشرية من الاوربيين من نفس التركازية الانوية في افتراضهم أن المجتمعات الافريقية هي صور أقل نجاحا من مجتمعاتهم ، وان العقائد الدينية والغيبية الافريقية ليست الا أوهاما علمية تافهة .

وعلى الرغم من ان هذا الافتراض يبدو طبيعيا ، الا أنه لا يقل خطأ عن الافتراض السابق وذلك بسبب الوسط الثقافي — الذي نبع منه

علماء الاجناس البشرية . اذ لما كان هؤلاء يعيشون عصورهم العلمية فى أوروبا ، فقد خيل اليهم ان جميع المجتمعات الاخرى ، تهتم بما يهتم به مجتمعهم ، ولكنها تفتقر الى الطاقة والذكاء . وعندما كان يتحتم عليهم التفكير فى موضوع المجتمعات الاغريقية القديمة ، كانوا يبدون استعدادا أكبر ، اذ أن هذه المجتمعات لم تكن معاصرة لمجتمعهم ، وكانوا يميلون الى معالجة النظريات الاغريقية على انها فلسفية أو غيبية لا على انها علمية فى غالبها . أما افريقيا فكانوا يعالجونها على انها شكل ضيق محصور من اشكال التشبيهية واذا كانت الحكومات الافريقية نفسهـا على استعداد لدفع المال من أجل الانفاق على البحوث العلمية فى الفن والدين والفكر ، فان فى الامكان ظهور صورة صادقة ومكتملة للشخصية الافريقية بسرعة وسهولة . وللبحوث الاجتماعية فى افريقيا وأوروبا أساس مادى عميق كل العمق . وقد تكون المبررات لهذه البحوث فى أوروبا أكثر منها فى افريقيا ، اذ أن سيطرة النظرة المادية على الفكر الأوروبى أكثر كمالا منها على العقل الافريقى .

فما زال العقل الافريقى يستجيب بصورة مبدئية الى الفن والدين والموسيقى والاخلاق ، أما العقل الاوروبى ، فقد بات صـورة مستكملة للسفسطائية وتحتم على أوروبا لابراز أفـكار تتمتع بالإحساس الطبيعى والتجاوب مع هذه الافكار ، ان تغوص فى أعماق ماضيها وتاريخهـا العريق . وقد يرى المرء بين الآونة والاخرى ، جمهورا من النظارة الذين استهوتهم أعمال التطريز الاسبانية التى يعود تاريخها الى القرن التاسع عشر . ولا ريب فى أن ما يتطلبه العقـل الاوروبى الحديث من نهوض واعداد وتثقيف ، لبعث احساسه بالتجاوب مع كل ما هو سام وجميل ، وما يتصف به من تطبيقية جامدة لسفسطائيته ، هما الدليل الواضح على جفاف جماليته . والجمـالية المثقفة حساسية مصطنعة . وعندما تكون الحساسية طبيعية فقط ، تبدو آنية لا جهد فيهـا ، وتصبح رائعة ، ملهمة ، لاتدعو الى التقزز والتأفف . أما الحساسية المصطنعة المتفلسفة فتمزق كل ما تتصوره . انهـا الحساسية التحليلية التى تغوص الى الاعماق فى تحريها ، والتى تبت فى الأمور وكأنها موسى قاطعة . وهناك تضييق يصيب ذلك الخضاب الداخلى الذى يصيب عشرات الالوف من المشاعر المجلجلة الطنـانة فى حالة من الثمل البدائى ، الذى يعتبر خلاصة الحساسية التى هى الفكر القائم على المنطق .

ولكن تبدو من الضرورى رغبة فى عدم ضياع الحساسية الإفريقية عن طريق الاغراق فى التعليم التقنى أن تقتات هذه الحساسية على لغاتها المحلية الخاصة بها وينعكس مدى الإحساس دائمـا فى مرآة الامكانيات اللغوية ، وعن طريق الاستغلال الدائم لهذه الامكانيـات أولا عن طريق

تسجيل الأدب الافريقى التقليدى وذلك حتى يمكن الحصول على وعى دقيق باللغات كلغات مدونة ومكتوبة · وستجعل الالفة المفهومة التى يجعلها هذا الوضع أمرا ممكنا ، من السهل على الكتاب أن يغرقوا أنفسهم فى تقاليد أدبية عقيمة ·

ولقد أوضحت فى الفصل الثانى أن هنـــاك شيئا من التشابه فى جماعية التقاليد الافريقية وتراثها · ويجعل هذا التشابه امكانية التعاون فى الوسائل المؤدية الى المحافظة على الحساسية الافريقية شـيئا طبيعيا وممكنا · ولكن هذا الاسلوب ليس بالوحيد حقا فى ضمان نجاح التعاون فى افريقيا · فهناك أوجه عدة للتشـــابه ، تكفى لدعم كل شىء ، حتى حركة الوحدة الافريقية نفسها ، التى هى المثل الاعلى للافريقيين · ولقد تحدثت فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، كثيرا ، لايضـــاح طبيعة الوجود الثقافى المتشابه فى افريقيا · ولكن علينا أن ندرك دائمـــا ان الوجود الثقافى المتشابه ، يجب ألا يعنى دائما التماثل فى التعبير عن الأفكار القيادية لأية ثقافة · ولقد ناقشت فى ذلك الفصل الرأى القائل بأن الثقـــافة تظل واحدة حتى ولو اختلف الوســـط الذى تعيش فيه ولا سيما فى الوجه الذى تبدو فيه للعالم · وعلى هذا النحو يتضح ان الثقافات المتشابهة تستطيع أن تقيم أوساطا مختلفة فى نفس الوقت وفى أماكن مختلفة · وتعتمـــد الأنظمة والطرائق التى تعبر عن الثقافة فى شكلها ومحتواها ، على الظروف السائدة والاوضاع المحلية · ولكنهـــا لا تعتمد على هذه الظروف والاوضاع فى الهامها وأبحاثها ، وذلك لان هذا الالهام ينشأ فى المذاهب الفلسفية والعقائد الدينية · ويقوم الوجود المتشابه بين ثقافات افريقيا « السوداء » فى هذه العقائد الدينية ·

وقد استندت المعارضة للجامعة الافريقية دائما على مسائل اقتصادية وسياسية · ومن الواضح ان افريقيا متحدة فى مصالحها فى الانمـــــاء الاقتصادى · ويقول ساسة افريقيا ورجال الحكم فيهـــا ان الاستقلال السياسى يبدو شاذا غريبا اذا كان مفتقرا الى القوة الاقتصادية والمرونة وقد يبدو من الطبيعى والحالة هذه ، أن يتساءل المرء عن الاسباب التى تحول دون التكامل الافريقى عن طريق الوشائج السياسية · ولماذا يضطر المرء الى الاستعاضة عنها بالعرى الثقافية ؟ ان السبب واضح فى هذا كل الوضوح ، وهو انه ليست ثمة فى افريقيا منطقة واحدة تطورت تطورا اقتصاديا عاليـــــا الى الحد الذى يؤدى الى هـــــذا التكامل بالوسائل السياسية · أما فى أوروبا ، فالوضع مختلف تمام الاختلاف اذ ان معظم بلادها متطورة تطورا كبيرا من الناحية الاقتصادية ومن هنا يصبح من السهل ايجاد التكامل الاوروبى دون تعريض أية منطقة من مناطق القارة الى اخطار لا داعى لها ولا مبرر · فقوة الاقتصـــــاد الاوروبى تخلق فى

الواقع ، شيئا من التواكل والاعتماد المتبادل بين دول القارة ، وتخلق شيئا من الاتصال الاقتصادى الذى لا مفر منه فى تجارتها وهناك رباط اقتصادى قائم بينها يستند الى أساس الحاجة المعترف بها الى تعقل الاتصال الاقتصادى وتبسيطه ، ولا ريب فى أن كمال الثقافات الافريقية يتمثل فى قوة الدعوة الثقافية الى الجامعة الافريقية تماما كما ان كمال الاقتصاد الاوروبى يتمثل فى قوة الدعوة الاقتصادية الى الجامعة الاوربية ·

فلم يصل اقتصاد افريقيا بعد الى مرتبة الكمال أو القوة أو المرونة ولهذا فان هذا الاقتصاد لا يقدم بعد الرابطة الوحدوية التى يقدمها الاقتصاد الاوروبى ·

ولا يعنى هذا مطلقا ان الدعوة الى الجامعة الافريقية خالية من جميع الحوافز والنعم الاقتصادية · فعند هذه النقطة بالذات تتهاوى جميع الاعتراضات عليها النابعة من الاعتبارات الاقتصادية · فافريقيا أغنى قارة فى العالم · ولكن معظم ثرواتها ما زالت جامدة فى مرحلة «الامكان» ومرحلة « الركود والنوم » · وهى تعانى أى افريقيا ، من ناحية الموارد الطبيعية ، من التخمة والوفرة · فهناك تضاعف وازدواجية فى هذه الموارد فى جميع أطراف القارة · وعلى الرغم من عدم استكمال أعمال المسح الجيولوجى فيها حتى الآن · فان من المعروف انها تضم كميات هائلة جدا من الكوبالت والنحاس والراديوم والاورانيوم والماس والفاناديوم والمنجنيز ومسحوق الكروم والبوكسيت والحديد والفحم والذهب والقصدير وغيرها وستكشف أعمال المسح الكاملة المقبلة حتما ، عن وجود كميات أخرى من بعض هذه المعادن على الاقل وحتى لو ظل استثمارها لها على صعيد المواد الخام ليس الا فان هذه الموجودات المعدنية تستطيع أن تعين القارة أكبر العون على تجميع الرساميل وعلى الحصول على الثراء · ولكن هل من الضرورى أن تفيد افريقيا نفسها على صعيد المواد الخام ليس الا ؟ ان ما تحتاج اليه افريقيا فى موضوع مخزوناتها المعدنية هو أن تقوم بمسح جيولوجى واسع وشامل على الطريقة التى اتبعها الاتحاد السوفياتى · فلقد كان الدليل الذى قام على وجود مخزونات معدنية وافرة ومتعددة ضروريا كل الضرورة لتأكيد نجاح الثورة ولا ريب فى انه ليست هناك فى افريقيا دولة واحدة تملك من الرساميل والمهارات مايمكنها من استغلال مواردها بأحسن السبل وأكثرها نفعا وفائدة ، وقد يكون فى وسعها أن تجتذب من الخارج الرساميل عن طريق القروض أو الاستثمارات · وفى وسعها أيضا أن تغرى أصحاب الخبرة والمهارة الفنية الذين تحتاج اليهم · ولكن اذا كان ثمة عدد كبير وضخم من البلاد التى تنشد قروض المساعدات الخارجية التى تميل أمريكا وروسيا وأوروبا الى تقديمها فان من الواضح ان أية بلاد

بمفردها لن تستطيع الحصول على مبالغ كبيرة من هـــذه القروض ولو أخذنا على سبيل المثال ان بريطانيا العظمى بضخامتها تنشد قرضا بسبعة ملايين جنيه من البنك العالمى ، تبين لنا ان افريقيا المتحدة ، بما يتوافر لها من فائض ضـــخم من مختلف المواد ، تستطيع أن تطلب من البنك الدولى وأن تحصل على قروض أكبر مما تستطيع الدول الافريقية فرادى الحصول عليه من الهيئات والوكالات الدولية بعد اقناعها لها بتقديمها . وكل ما كانت القروض التى نستطيع الحصول عليها أو التى تتوافر لنا اضخم وأكبر ، كلما كانت ثقتنا أعظم بقدرتنا على استخدامها فى استغلال بعض مواردنا استغلالا فعالا وفى وسع افريقيا المتحدة ، أن تعتبر بعض الموارد المتوافرة فى أكثر من جزء من أجزائها . كمخزونات احتياطية ، وأن تركز جهودها بقوة وعزيمة على استغلالها من المناطق التى يقع عليها الاختيار ، فى عملية الاستغلال الاولى . وفى الامكان اعادة اســـتخدام الاموال التى تجمع وتتراكم كفائض من مثل هذه المشاريع فى منـــاطق أخرى ولما كان الاستثمار سينتظم ويستعقل على أساس القارة كلها لا على صعيد اقليمى فان سرعة النمو الاقتصادى للقارة ستزيد كثيرا على السرعة التى يسير فيها هذا النمو لو أتبعنا سبيلا آخر .

وعدد الاشخاص من ذوى الخبرة والمهارة الفنية الذين يمكن للبلاد المستصنعة الاستغناء عنهم للعمل فى افريقيا محدود بالطبع ، ومن هنا يتبين انه فى وسع افريقيا المتـــحدة أن تفيد منهم فائدة أكبر عن طريق تركيزهم على مشاريع مختارة من افريقيا المجزأة التى قد تنشرهم وتوزعهم على مشاريعها المتنافسة المفتقرة الى العناية والى الموظفين الأكفاء وستنجم مشاكل النقد فى افريقيا اذا توحدت بالطبع . وقد يكون ممـــا يجلو الحكمة الغاء العملات النقدية الراهنة فى المراحل الاولى للاستعاضة عنها بنقد افريقى موحد وذلك لسبب واحد على الاقل وهو ان الطاقة الصناعية لافريقيا ، وقدرتها على دعم عملتها ، لم تتوطد اقدامها بعد ، أما السبب الثانى فهو ان افريقيا المتحدة قد تفيد من الارتبـــاطات النقدية التى سترثها مع العملات الاجنبية ، مما يضعهـــــا بالطبع فى موقف أفضل بالنسبة الى أغراض التبـــادل التجارى والنقدى وتؤدى الحقيقة الواقعة وهى ان اقتصادها سيكون مرتبطا آنذاك بعدد من العملات الاجنبية التى تمكنها وبشكل أفضل من مجاراة ما يطرأ على هذه العملات من ارتفاع وهبـــوط . وليس من الضرورى فى الوقت نفسه أن تتأثر التجارة الخارجية وأن تتعرض الى أية عراقيل من جراء هذا التفاوت فى أسعار النقد . على أى حال ، لن يكون الوضع بأى حال من الاحوال أسوأ مما هو عليه الآن ، وستظل العمـــلات قابلة للتحويل على الصعيد الداخلى الافريقى .

وعلى الرغم من ان افريقيا من البلاد المتخلفة ، الا ان اقتصادها من النوع المختلف والمتغاير ، انه اقتصاد معوج . ويقول معارضو فكرة الجامعة الافريقية وشانئوها ، ان الفروق القائمة بين الدول الغنية والدول الفقيرة كما هو الوضع في افريقيا فعلا ، تؤلف عقبات في طريق الوحدة لا يسهل تخطيها ويضيف هؤلاء ، ان هذا البون الشاسع سيؤدي حتما الى شيء من الاحجام التلقائي من جانب المناطق الاكثر ثراء ، عن الالقاء بسهمها والارتباط كثيرا بالمناطق الفقيرة وليس ثمة من شك في أن غانا هي أغنى المستعمرات البريطانية السابقة بمواردها الطبيعية ، حتى لو ادرجنا روديسيا الشمالية التي نتوقع استقلالها . أما بالنسبة الى الممتلكات الفرنسية السابقة ، فيعتبر الغابون اغناها بموارده الدولية اذ انه ملئ بالمنجنيز والاورانيوم والحديد حول مدن فرانس فيل وموانافا وتيانجا ـ شيبانجا . ومن المعروف الآن أن الكونغو البلجيكي طافح أيضا بالاورانيوم والنحاس والبوكسيت واذا ما قارنا المناطق الاخرى من افريقيا بهذه المناطق تبين لنا انها محرومة من نعم الله كما هي محرومة من نعم الانسان ، ولكن اذا كانت بشائر المنافع الاقتصادية للوحدة الافريقية صحيحة ، فان السبيل الامثل للبلاد الافريقية الغنية ، هو أن تلقى بسهمها مع اخواتها الفقيرات ومن واجب مشاعر الاخوة النابعة من وحدة الثقافات الافريقية أن تجعل من هذا الطراز من التضحية المؤقتة والمستترة شيئا ممكنا ومقبولا ، ويخلق الوجود المتشابه للثقافات الافريقية النابع من تجارب مشتركة مع السيطرة الاجنبية من خارج القارة . ومن الاماني الواحدة ، رباطا سحريا يمكن استخدامه في ربط جميع المناطق في وحدة افريقية جامعة . وفي وسع المناطق الافريقية المتحدة في جامعة أفريقية أن تؤلف مرثية واحدة ، ترثي بها الاستعمار الزائل ، وأن تنتصر عليه مجتمعة . وقد تمت حتى الآن اقامة مشاريع المساعدة المتبادلة بين الدول الافريقية . ولعل أروع الامثلة على هذه المساعدة ماقامت به غانا من وضع عشرة ملايين جنيه تحت تصرف غينيا . وقد شرع النيجريون يتحدثون عن مشاريع المساعدة لسيراليون وان كانت هذه المساعدات لا تخرج عن حدود ألوف الجنيهات (١) .

---

(١) اعتقد أن المؤلف قد نسي وهو يضرب الامثلة عن المساعدات المتبادلة بين الدول الافريقية ما تقوم به الجمهورية العربية المتحدة من دور عظيم في هذا الميدان . وليس أدل على هذا الدور من اتفاقات المساعدة المتبادلة التي عقدتها الجمهورية مع عدد من الدول الافريقية كغينيا ومالي ونيجيريا والصومال وغيرها والتي يبلغ بعضها ملايين الجنيهات . ومن الجدير بالذكر أن الجمهورية العربية المتحدة في موقفها هذا تشعر بأنها تؤدي واجبا مقدسا لقضية النضال الافريقي في سبيل الحرية والاستقلال ـ

ـ المعرب ـ

وفى وسع الجامعة الأفريقية أن تكون طرازا من الضمانات المتبادلة على الصعيد الاقتصادى للمناطق المختلفة فى أفريقيا . أجل فى وسعها أن تكون من الناحية العملية ضمانا موثوقا يقى هـــذه المناطق من الانهيار الاقتصادى الكلى وفى وسع هذا الشكل من أشكال الضمان أن يمكنها من تنظيم الزراعة فيهـا على أسس معقولة . فغانا ونيجريا وساحل العاج والكاميرون تصدر كميات ضخمة من الكاكاو . وقد اتخمت الأســواق العالمية بهذه المادة تخمة كبيرة وذلك بسبب ما تصدره البرازيل من كميات هائلة منها . وقد أدى وجود مادة أخرى تعتمد عليها البرازيل فى صادراتها وهى البن ، الى تحديد ما تصدره من الكاكاو الى الاسواق العالمية وذلك بسبب هبوط أسعاره فى هذه الأسواق هبوطا مفجعا . لكن البلاد الأفريقية ، نظرا لاعتمادها الكـلى على دخلها من ناتج الكاكاو . كانت عاجزة عن الاشتراك مع البرازيل فى مشروعها الرامى الى تحديد التصدير والذى يعتبر مغامرة اقتصادية . ولو كانت أفريقيا موحدة فى جامعة واحدة لكان فى وسعها أن تخطط زراعتها وان تصنفها وتنوعها فتحدد بذلك احتياجات الأسواق العالمية ، لتحول فورا دون وجود فائض فيها ، ولتحصل على أقصى المرابح من جهودها فى التصدير . وفى وسع الايدى العاملة التى تنحدر من ميدان واحد ، ان تستخدم بصورة مناسبة واحيانا بصورة كافية تماما فى انتاج الغذاء لاستهلاك القارة الافريقية كلها وفى الامكان تنظيم انتاج زيت النخيل أيضا . وبنفس الطريقة فى نجيريا والكونجو البلجيكى السابق وداهومى . وهكذا فان الاقتصاد والتنافس فى افريقيا يتطلبان الوحدة الافريقية كوسيلة للنهوض الامثل .

وكثيرا ماتقف مشـــكلة نقص الســكان فى أفريقيا كموضوع يصرف انتباه الناس عن الوحدة الافريقية وطريقها . لكن هذا النقص لايقوم فى الواقع الا على سبيل المقارنة مع القارات الأخرى . واذا مانظرنا اليه على صعيد المدى الذى وصل اليه التقدم الاقتصادى فى القارة ، تبين لنا بوضوح ان افريقيا لا تشكو فى الحقيقة من نقص فى عدد سكانها ومن المحتمل أن يكون العدد المحدود لسكانها نفعا على الصعيدين الاقتصادى والاجتماعى . وهكذا كان فى وسع افريقيا ان تتجنب المشاكل الاقتصادية التى تواجهها أية بلاد متخمة بالسكان مع وجود نظام اقتصادى ضعيف فيها . والواقع الذى يعنى ان عدد الافواه التى يطلب اطعامها فى افريقيا أقل بكثير من عددها فى الصين أو الهند على سبيل المثال ، يشير الى أن فى وسع افريقيا ان تحشد فى أسرع وقت ممكن وفورا زراعية ضخمة ، وان توفر جزءا من المجهودات الزراعية لاغراض التصدير . وسيؤدى نقص السكان فى افريقيا أيضا الى الاسراع فى تقصيرها على أسس تقنية ، اذ أنه يخلق ضرورة طبيعية للتألية والمكنة ، وسيتمكن الافريقيون عن هذا الطريق من التعرف

بسرعة على وسائل التقنية (التكنولوجيا) وتتحرر اعداد كبيرة وواقعية منهم للعمل فى مختلف المجالات الانسانية والاجتماعية المنسجمة مع أنسنة مجتمعاتهم الجماعية • ولا ريب فى أن سرعة الأفريقى فى استيعاب المعرفة ستكون فى مصلحة القارة كلها • ولقد أظهر الافريقى هذه السرعة فى اكتساب المعرفة فى براعته فى تعلم اللغات والعلوم الاوروبية • ولا تؤلف قواعد المهارة اليدوية أية مشاكل خطيرة أمام الافريقيين فقد تمكنوا فى غضون جيلين فقط من استيعاب المعرفة الاوروبية وتملكها ولا ريب فى أن السرعة التى اجتاز فيها الأفريقيون هذه المرحلة ستحملهم أيضا على اجتياز العصر التقنى • بنفس العزيمة والنشاط •

وأخيرا تؤدى الجامعة الافريقية الى تلطيف الآثار التى يخلفها التوزيع غير المتساوى للسكان فى طول القارة الافريقية وعرضها •

وعلى الرغم من أن الوحدة الافريقية تبدو وكأنها حركة داخلية تخص افريقيا وحدها ، الا أنها تثير من الناحيتين الاقتصادية والسياسية اهتمام القارات الاخرى وقلقها ، ولا سيما القارة الاوروبية التى كانت افريقيا مرتبطة بها حتى الآن أوثق ارتباط • وتخلق افريقيا المشاكل للسوق الأوروبية المشتركة كما أن هذه السوق تخلق المشاكل لافريقيا • فالسوق الاوروبية المشتركة تعتمد على المواد الاولية من افريقيا ، كما تعتمد هذه على تجارتها مع أوروبا • ولكن لا ينتظر أن تظل الصورة التى تريدها أفريقيا لنفسها ومستقبلها هى صورة المنتج الأزلى للمواد الأولية لصناعات الآخرين • ويتحتم على أفريقيا بالطبع أن تبيع لغيرها المواد الاولية التى لا تستطيع أن تستعملها هى ، ولكن من واجبها أن تسير نحو التصنيع وأن تزيد من استعمالها للمواد الأولية ، التى تنتجها ومن المحتوم على البلاد التى تنتج المواد الأولية وتصدرهـــا لتعود فتســـتوردها عـلى شكل صناعات جاهزة ، ان تخسر وان تكون خسارتها كبيرة ، اذ ليس ثمة من وجه على الاطلاق للمقارنة بين الأسعار التى تتقاضاها أفريقيا من أوربا ثمنا لموادها الاولية ، والاسعار التى يتحتم عليها أن تدفعها الى أوروبا ثمنا للسلع الجاهزة التى تستوردها منها • وتكون نتيجة الميزان التجارى دائما الى جانب الخسارة الكبيرة البالغة ولكن دول السوق الاوروبية المشتركة قد ترغب فى ضمان مصادرها من المواد الاولية التى تحتاج اليها ، ولهذا فقد تعمل هذه الدول على اقناع أفريقيا بتأجيل تصنيعها أطول مدة ممكنة والى أكبر حد تستطيع فيه أن تتقدم بمثل هذا الاقتراح ومن الضرورى بالنسبة الى أفريقيا ألا تفلح السوق الأوروبية المشتركة فى تجزئتهـا وتفسيخ وحدتها اذ على الرغم من أن هذه السوق قد لا تفيد افريقيا بشىء الا أنها قد تستطيع خلق الخصومات والفروق بين دول هذه القارة عن طريق ماتقترحه من حواجز التعريفة الجمركية • فلو ارتبطت السوق مع بعض

البلاد الافريقية لا معها كلها . وكان اقتصاد هذا البعض يقف موقف التنافس من البعض الآخر ، فان الوحدة الافريقية ستواجه صعوبة جديدة .

ويقال في بعض الاحيان ان تعدد اللغات في افريقيا يؤلف حاجزا فعالا في طريق الوحدة الافريقية . وقد أوضح ديلافوس ، المتخصص في الشئون الافريقية أن هناك أربع مجموعات أساسية من اللغات من القارة سماها بالسودانية والنيلية وشبه البانتو والبانتو . ولكن تصنيفه هذا تعرض لهجوم عنيف من بعض النقاد الاذكياء الخبراء في الشئون الافريقية من أمثال جرينبرج ، الذين قالوا بأن تسمية بعض اللغات الافريقية بانها شبه البانتو تسمية سخيفة تماما كالقول بان الانجليزية هي لغة شبه المانية . واخترع آخر من الدهاقنة في بحوث اللغات الافريقية ويدعى ويسترمان تعبيرا جديدا ولاذعا اذ اطلق على اللغات التي تتكلم بها قبائل التوجولاند من غير « الايوى » اسم البقايا أو المخلفات ولكنه وباللأسف لم يشر في قليل أو كثير الى الاصل الذى يمكن أن تكون هذه اللغات من مخلفاته أو بقاياه . وقد يكون من العسير على الانسان أن يذعن لتوجيه اللغويين الافريقيين التقليديين . ويبدو أن هؤلاء اللغويين لم يكونوا يحسون احساسا كافيا بالفروق العنصرية أو الخصائص الاقتصادية والمهنية والتقنية . ويقول جورج موردوك على سبيل المثال في هؤلاء اللغويين التقليديين ، وله كل الحق في جميع ماقاله ، ان كثيرين منهم بدوا وكأنهم يعتبرون رعاية قطعان الماشية وحلبها من السمات اللغوية ، بل وسمة طاغية كل الطغيان . ويجد بعض اللغويين الافريقيين أنفسهم عند هذه النقطة في بحر غامر من الخيال المنهل . فديلافوس مثلا ، الذى كثيرا ما يقتبس منه خصوم الوحدة الافريقية وهم الذين يستندون في وجهات نظرهم الى وجود مجموعة من اللغات التي لا يمكن التفاهم بها والتي تشبه لغات برج بابل هو أحد الذين يخلطون كل الخلط بين المجموعات اللغوية في افريقيا وهو يستعيض بشكل يائس عن قواعد علم الاجناس البشرية بقواعد علم الحروف ، حتى وهو يحاول اقامة الدليل على آرائه في الاجناس مما يستثير الدهشة حقا . وعندما تقوم الادلة الثابتة والعامة على وجود علاقة بين قواعد الاجناس البشرية وقواعد علم الحروف يغدو من الصحيح استقرائيا وأسلوبيا « اسناد النتيجة التي يمكن الوصول اليها هنا الى القواعد المستقاة من هناك . ولكن يبدو لى أن عقل ديلافوس وحده ، هو الذى قضى على كل شكوك واضحة وظاهرة في هذا الموضوع » .

وعندما يصل أصحاب نظرية بابل « الى ادعاء وجود عدة أوجه عامة للشبه بين اللغات الافريقية ، فانهم يطلقون على أوجه الشبه هذه عن سابق عزم وتصميم اسم العلاقات ، ويشار هنا الى أن هذه اللغات تلجأ دائما الى استخدام البوادىء أو الكواسع أو الزوائد في الكلمات لتعطى

معانى خاصة (اضافة لفظ فى أول الكلمة أو آخرها أو وسطها لاعطاء معنى خاص) ولكن اللغة اليونانية تضيف مثل هذه الزوائد على الكلمات أيضا • فهناك افتقار مزعوم الى الكلمات للتعبير عن المعانى الجامدة غير المنصرفة كما أن هناك غنى مماثلا فى المعانى المحدودة وفى أهمية اللفظ بالنسبة الى تركيب الكلمة وعلاقاتها باللفظ ، فان هذه الظاهرة طبيعية فى اللغات غير المعربة التى تعتبر الانجليزية مثلا بارزا من أمثلتها • ويظل لترتيب اللفظ والكلم أهميته بالنسبة الى الاعراب حتى عندما يكون ثمة اعراب للالفاظ الانجليزية وان لم يكن هـذا الاعراب كافيا لتجنب الفوضى والارتباك • ولننظر على سبيل المثال الى الجملتين الانجليزيتين « اعطه اياها » و « اعطه لها » • ولم يكن تفسير أوجه الشبه هذه فى افريقيا قويا للغاية عن طريق الانتشار السريع للاسلام أو العلاقات التجارية • فاللغة اما ان تكون من اللغات المعربة فى مجموعها أو لا تكون • ولو أخذنا هذين البلدين معا ، ونظرا الى ندرة الابتكارات الاخرى التى تستطيع اللغة اللجوء اليها لاهداف اعرابية كترتيب الكلمات أو النغم اللفظى أو ماشابههما ، تبين لنا أن من السخف ان نرى فى الحقيقة المجردة عن وجـود لغتين تتشابهان فى ابتكاراتهما ، لغزا يتطلب حله استقصاء مجمـوعة من النظريات » •

ومهما كانت ثمرة هذا الحوار اللغوى فان من الواضح ان تعدد اللغات فى افريقيا وتنوعها ، لم يجعل بعد من العسير احداث الاتصال الداخلى بين الاقاليم الافريقية ، ومازالت اللغات الرسمية الشائعة هى الفرنسية والانجليزية والاسبانية والبرتغالية • ومادامت هذه النعمة موجودة فليس ثمة من داع الى أن تكون اللغات الداخلية فى القارة عقبة فى طريق وحدتها وبدلا من أن يكون تعدد اللغات فى أفريقية عقبة فى طريق وحدتها • فان فى مكنته أن يكون أداة من أدوات وحدتها وذلك بالنسبة الى ما يخلقه من مصلحة طبيعية ومجهود فى آداب هذه اللغات وكذلك فى التفهم الكيفى والفعال الذى تؤدى اليه هذه المصلحة وذلك المجهود •

ومع اننا نوصى بالوحدة الافريقية كشىء ايجابى • فان وسائل تحقيقها أمر يجب أن يناقش ويبحث بشكل واضح • وليس هناك ماهو أشد فجيعة بالنسبة الى افريقيا من القيام بمحاولة عامة كاذبة فى هذا السبيل ولقد بدأت وحدات منطقية أصيلة فى الظهور فى أفريقيا ولعل أبرز الأمثلة عليها اتحاد غانا وغينيا ومالى • والاتحاد المنتظر فى أفريقيا الشرقية • ويمثل هذان الاتحادان نموذجا للوحدة التى تنطوى على الاجماع أو شبه الاجماع ، فى مواقف الدول المنضمة اليها من الشئون الداخلية والخارجية • ولا ريب فى أن هذا الطراز من الوحدة الاصيلة ، لاطراز الوحدة التى تتمثل فى دماثة الزمالة وكياسة الاحاديث على موائد الشاى

هو الذى سينقذ أفريقيا · ولقد قيل ان تحقيق الوحــدة فى الولايات المتحدة الامريكية قد استغرق مائة وسبعين عاما · ولكن الضغوط الداخلية والخارجية التى تتعرض لها افريقيا اليوم هى أقوى بكثير من تلك التى واجهتها أمريكا ، والتى كان فى امكانها أن تعالجها على مهل وفى وقت طويل · وقد برهنت افريقيا على أن سرعة العمل ، من خصائصها المحمودة ومن الواضح كل الوضوح ، ان هناك اخطارا تواجه افريقيا فى حالة بقائها مجزأة ، وان هذه التجزئة ستبقى على عجزها وضعفها ، وألا خلاص لهـا الا بالوحدة ولا ريب فى أن وضوح هذه الامور بالنسبة الى أفريقيا اليوم أعظم بكثير من وضوحها بالنسبة الى الولايات المتحدة فى أيامها الاولى · وليس تاريخ القارات الا كمثل الحلم الذى حلمه نبوخذ نصر امبراطور بابل ، اذ رأى ماردا ، تتألف أجزاء جسمه من مواد مختلفة ذات وميض متزايد · وستقيم افريقيا الدليل فى وحدتها على أن قدميها ليستا من الفخار · وسيكون تاريخها فى وحدتها ، تاريخ أمجاد واشراق ، وتاريخ تحقيق لمآثر مختلفة من مآثر الوحدة والكرامة ·

(تم الكتاب)

الفهرست

تحليل حركة الملاحة في القناة خلال ديسمبر سنة ١٩٦٢

الحركة الملاحية :

حققت السفن التى عبرت القناة خلال ديسمبر ١٩٦٢ زيادة قدرها ٧٣ سفينة أى بنسبة ٤ر٩٪ على تلك العابرة خلال نفس الشهر من عام ١٩٦١ .

فقد بلغ عدد السفن العابرة خلال ديسمبر الحالى ١٥٦٢ سفينة مجموع حمولتها الصافية ١٦٤٧٠٦٩٨ طنا — بمتوسط يومى قدره ٥٠ر٤ سفينة مقابل ١٤٨٩ سفينة حمولتها الصافية ١٥٧٦٦٩٦٨ طنا ومتوسط يومى قدره ٤٨ سفينة فى ديسمبر ١٩٦١ .

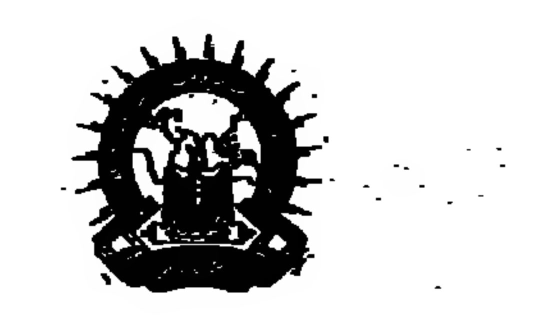
وعبرت القناة من الشمال الى الجنوب خلال الشهر الحالى ٧٥٩ سفينة مقابل ٧٢٤ سفينة فى ديسمبر الماضى — بزيادة قدرها ٣٥ سفينة ، ويرجع ذلك الى أن السفن المحملة قد زادت بمقدار ١٠ سفن (٣٩٠ مقابل ٣٨٠) وكذلك السفن الفارغة بمقدار ٢٥ سفينة (٣٦٩ مقابل ٣٤٤) .

وبلغ عدد السفن العابرة من الجنوب ٨٠٣ سفن مقابل ٧٦٥ سفينة بزيادة قدرها ٣٨ سفينة ، وهذا نتيجة لزيادة السفن المحملة بمقدار ٢٥ سفينة (٧٤٨ مقابل ٧٢٣) والسفن الفارغة بمقدار ١٣ سفينة (٥٥ مقابل ٤٢) .

الحمولة الصافية :

زادت الحمولة الصافية للسفن التى عبرت القناة خلال ديسمبر الحالى مقارنة بمثلها فى ديسمبر الماضى بمقدار ٧٠٤٠٠٠ طن أى بنسبة ٤ر٥٪ (١٦٤٧١٠٠٠ طن مجموع حمولتها فى ديسمبر ١٩٦٢ مقابل ١٥٧٦٧٠٠٠ طن فى ديسمبر ١٩٦١) .

وبتقسيم الحمولة الصافية طبقا لاتجاهى العبور يتضح أنها قد حققت زيادة فى كلا الاتجاهين ، فقد بلغت الحمولة الصافية للسفن العابرة من الشمال الى الجنوب خلال الشهر الحالى ٨٠٨٠٠٠٠ طن مقابل ٧٩١٦٠٠٠ طن خلال نفس الشهر من عام ١٩٦١ أى بزيادة قدرها ١٦٤٠٠٠ طن ، وذلك نتيجة لارتفاع الحمولة الصافية للناقلات الفارغة ، وبلغت بالنسبة للسفن العابرة من الجنوب الى الشمال ٨٣٩١٠٠٠ طن مقابل ٧٨٥١٠٠٠ طن أى بزيادة قدرها ٥٤٠٠٠٠ طن ، وتعود تلك الزيادة الى ارتفاع الحمولة الصافية بالنسبة لجميع أنواع السفن عدا سفن البريد .



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

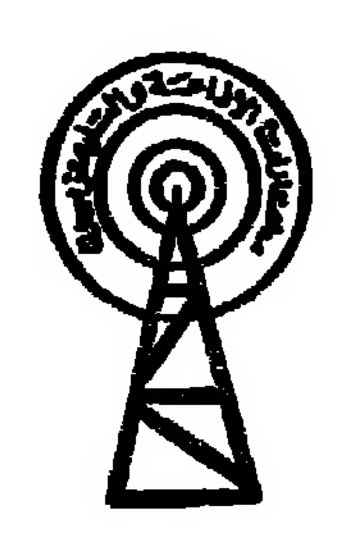
تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٤
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

مجموعة
اخترنا لك
تصدر

اسبوعية باللغات العالمية

يشترك في تحريرها واعدادها

لجنة « اخترنا لك »



المراسلات

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ - ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢

العدد ١٦٧ الثمن ١٥ قرشا